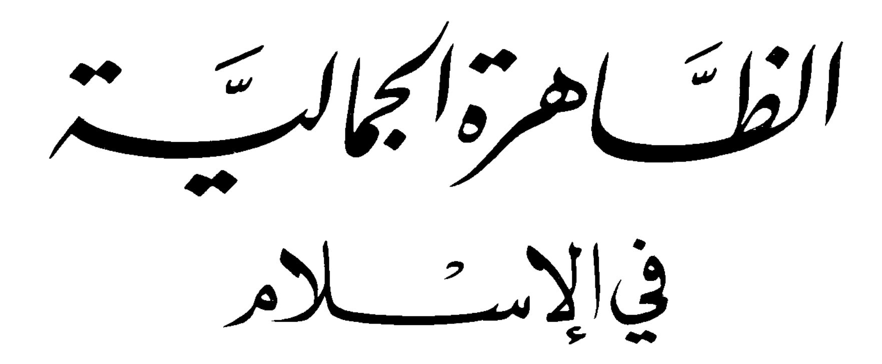
دراسات جمالية إسلامية

« ١ »



بقلم:

صالح أحمد الشامي

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

المكتب الاسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

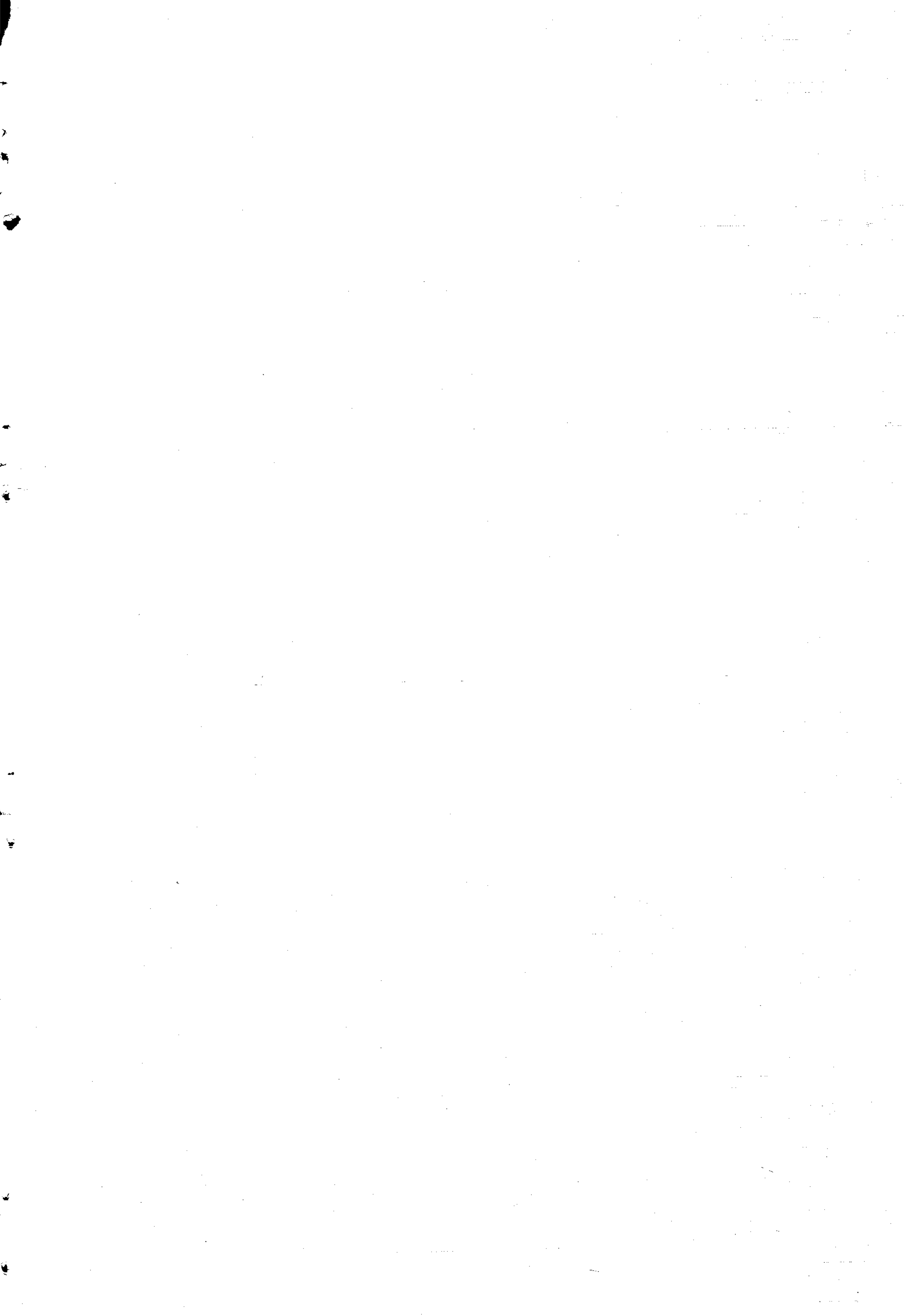
الظَّاهِرَةُ الجَمَالِيَّة
في الإسلام



الإهداء

إلى من ربَّاني على لغة الجمال ..
إلى من كانت كلماته في توجيهي :
الأجمل أن تفعل هذا .. وكان الأجمل أن تترك هذا ..
وهكذا جعلني أتعامل مع كل ما يحيط بي
من خلال حسٍّ جمالي .
إلى والدي الكريم
تقديرًا لحق الأبوة .. واعترافًا بالفضل على
تربيته الجمالية .. أقدم هذا الجهد المتواضع .

صالح



المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين. يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم لك الحمد، وبك المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وبعـد:

فقد ينتقد العاملون للإسلام هذا البحث، والاهتمام به، باعتباره من نافلة القول، ومن حقهم أن يكون شعورهم كذلك، حرصاً على الوقت أن لا يضيع سدى، سواء بالنسبة للكاتب أو القارىء، ومن واجب كل كاتب أن يحرص على وقت قارئه...

وقد يعجب بعضهم أن يكون لمثل هذا الموضوع مكان في أيام كاد المسلم أن يكون فيها أذل من شاته في أماكن كثيرة من أرض الله.. فهو أحوج إلى غير هذا...

أقول: قد يعجب هذا، وينتقد ذاك، ولكنهم ربما عذرونا إذا تذكروا أن الدروس العملية الأولى التي تلقاها الجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ كانت دروساً للجمال بها صلة وثيقة.. نعم، ألم تكن دروسهم الأولى أنهم تعلموا كيف يكون الصبر جميلاً.. وكيف يكون الهجر جميلاً.. وكيف يكون الصفح جميلاً..؟

وأعود بعد هذا لأقول:

لست من هواة الفلسفة ولا من محبيها، وإن كان البحث الذي أقدم له مصنفاً فيها، ومحسوباً عليها، كما هو معروف، كما أني لست ممن اشتغل بالفن، وإن كنت ممن يستهويه الجمال.. ولكن للموضوع قصة.

كان ذلك أثناء تلاوتي للقرآن الكريم، في محاولة للوقوف على الخطوط العريضة التي يتميز بها القرآن المكي. بغرض كتابة بحث قصير عن ذلك في كتاب «من معين السيرة».

وكانت التلاوة يومها في سورة يوسف.. وتلوت قوله تعالى: ﴿... فصبر جميل﴾.. وتابعت قراءتي، فإذا بي أجدني مشدوداً للعودة إليها، وكأني أقرؤها للمرة الأولى!! ووقفت أتأملها ــ ومرّ زمن غير قصير.. وتساءلت كيف يكون الصبر جميلا؟ إنه المرارة حساً ومعنى، فكيف يوصف بالجمال؟

وأحسست بعد ذلك أن الجمال في هذه الآية ليس مجرد وصف، وإنما هو الوصف الذي امتزج بالحقيقة، وإذا الآية لوحة يشع الجمال من كل أطرافها، وغاب الصبر تحت وهج ذلك الجمال فلم يبق له أثر.. وبقي الجمال هو الذي يتعامل مع القارىء.

وعدت إلى التفاسير أنشد فيها المعنى، فلم أحصل على ما يروي الغليل، بل إن الكثير من المفسرين لم تستوقفه الكلمة، فالتعبير عنده من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرح وإيضاح، ومنهم من توقف قليلاً ليقول كلمة أو كلمتين..

ففي تفسير الطبري (فصبر جميل) هو الذي لا جزع فيه.

وعند ابن كثير والرازي: أي فسأصبر صبراً جميلاً.

وفي الظلال: إنه سيصبر صبراً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو.

ورجعت إلى كتب اللغة.. ثم إلى كتب فقه اللغة.. ولكن دون جدوى..

ويممت بعد ذلك شطر «كتب الجمال» أبحث في طياتها.. فلم أجد سوى سراب خادع، يغرك مرآه فإذا أتيته لم تجده شيئاً.

واستقر في خلدي أن للإسلام نظرة جمالية عامة. ينبغي تفهمها، والبحث عنها. وكان القرآن هو المرجع الوحيد.. كنت أقرأ بإمعان وروية وتؤدة أسجل من آياته كل ما له صلة بالجمال، فوجدتني أمام كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه.

وتكررت عودتي إلى القرآن بهذا القصد.. وإذا بي ــ ومن خلال الآيات التي تجمعت لدي ــ أمام ظاهرة جمالية صبغت المنهج الإسلامي بصبغتها، فكانت في مادته وفي الشكل، فهي ليست عملاً تزيينياً، وليست كذلك وصفاً إضافياً بل هي في طبيعة مادة المنهج وفي خواصها..

وتبين لي أن القرآن الكريم وحده يستقل بصياغة هذه الظاهرة وبيانها، أما السنة فكان لها الدور الكبير في الموضوع التطبيقي لهذه الظاهرة وهو ما نستطيع تسميته بـ«التربية الجمالية».

وسأحاول تسجيل هذه الظاهرة، بعون الله، بعيداً عن النظريات.. ذلك أن هذه الظاهرة سمة من سمات المنهج العظيم فما يصلح أن تستعار لها القوالب من هنا وهناك..

قد يلتقي بعض علماء الجمال مع الظاهرة في بعض جزئياتها، وهذا لا يعني أن الإسلام قد أخذ من هؤلاء وأولئك. ولكنهم بعد بحثهم التقوا مع بعض جزئيات الحقيقة.. ولن يهتدوا إليها كاملة، ذلك أنهم لم يهتدوا بهدي الله تعالى.

ومن المعلوم أن ما يسمونه «علم الجمال» هو علم حديث[1]، وحينما نسجل هذه الظاهرة إنما نعود بها إلى النصوص يوم جاء الإسلام، ولم يكن أحد يومها فكر في شيء يسمى علم جمال.

وإذا كان هناك شيء يحسن التنويه به فهو قلة المصادر بالنسبة لموضوع الظاهرة الجمالية، الأمر الذي جعلني أنصرف بكليّتي إلى المرجع الأول والأخير.. إلى القرآن الكريم. هذا من حيث المادة وأما من حيث الشكل فقد بذلت وسعي ــ وأرجو أن أكون قد وفقت ــ في ترتيب الفصول بحيث يؤدي كل منها غرضه في ترابط نقاطه بعضها مع بعض، وفي كونه تمهيداً للفصل الذي يليه. حيث تكوّن

---

(١) ظهر مصطلح «علم الجمال» على يد الفيلسوف الألماني «جوتيب بومجارتن» (١٧١٤-١٧٦٢)م [دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ١٥].

بمجموعها وحدة متكاملة هي الظاهرة الجمالية في الإسلام. وإذا كان قد حالفني بعض التوفيق فذلك فضل الله الذي أحمده عليه. وإذا كنت قد أخطأت... فأستغفر الله لذنبي، شاكراً لمن يرشدني إلى الصواب.

وما كانت قلة المصادر عن جدب في الفكر الإسلامي، وإنما هي الأمور حينما تكون معتادة قلّما يُهتَم بها، وقد كانت القضية الجمالية واقعاً عاشه المسلمون، وبخاصة في القرون الأولى، فبات الفرد المسلم يعايش الجمال، بل يعيشه حقيقةً لا وهماً، وواقعاً لا خيالاً،... وقف زياد بن أبية بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشرح للمسلمين انتصار إخوانهم المجاهدين.. وذلك إثر وقعة جلولاء.. فأعجب عمر بفصاحة الخطيب، فقال: إن هذا لهو الخطيب المصقع، فقال زياد: يا أمير المؤمنين: إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا.

وما كان جمال الكلمات وفصاحتها إلا قبساً من واقع المسلمين. الذي أضحى بفضل الله قادراً على أن يجعل من العيي خطيباً، ومن الأصم سميعاً...

عاش المسلمون هذا الواقع وظنوا أن الحياة كلها هكذا... وتناسق الجمال في كل ميادين الحياة يومئذ بعضه مع بعض... فإذا اللوحة من صنع الله لأنها أنشئت وفق منهج الله.

إن الذين عاشوا الجمال شغلهم ما هم فيه عن تسجيله وتدوينه، ومع ذلك فلم يسجلون؟ إن هذا الواقع هو دائماً نتيجة حتمية لتطبيق منهج الله.

وإذا كان الجمال ــ وفقاً لخاصية الشمول ــ له علاقة بكل قضايا الحياة ظاهرها وباطنها، وبعبارة أخرى: جمال الظاهر وجمال المعنى فإن الدراسات الجمالية المعنوية هي التي عُني المسلمون بها، وإن كان هذا لا يعني إهمالهم للجانب الآخر.

هذا وقد تبين لي من مواد البحث التي تجمعت لدي أن هناك ثلاث نقاط تتركز حولها مادة هذا الموضوع. منها ما يعتبر قواعد وأسس، ومنها ما يرجع إلى الجانب التطبيقي، ومنها ما يرجع إلى أثر المنهج في بناء النفس من الوجهة الجمالية.

وطبقاً لهذا فقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة أجزاء:

الأول : ويتناول بيان القواعد والكليات العامة التي تقوم عليها النظرة الجمالية في الإسلام. وسيكون تحت عنوان: الظاهرة الجمالية في الإسلام.

الثاني : ويتناول الساحات الجمالية التي يبرز فيها الجمال من خلال الوقائع والأشياء. وهي المجال التطبيقي، وتشمل: الطبيعة والإنسان والفن وستكون تحت عنوان «ميادين الجمال».

الثالث : ويتناول أثر المنهج في بناء الحس الجمالي في النفس الإنسانية.. وسيكون تحت عنوان: التربية الجمالية في المنهج الإسلامي.

وإني إذا أضع الجزء الأول من هذه الدراسة بين الأيدي. أحب أن أذكر بأنني اقتصرت فيه على الكليات. وما تُرك ـ مما يتوقع القارىء وجوده ـ فإنما كان بسبب الحرص على تنسيق البحث وأن تذكر كل فكرة في مكانها المناسب. فبحث الإلتزام ـ مثلاً ـ آثرت أن يذكر عند الحديث عن الفنون. ذلك أن الإلتزام يعني أن يتبنى الفنان منهجاً معيناً يملي عليه سلوكاً منبثقاً عن ذلك المنهج.. وإنما يظهر ذلك في الواقع التطبيقي. وكذلك لم أتوقف للحديث عن الفن ـ كما فعلت كتب علم الجمال ـ لأن الفن ليس هو الجمال، وإنما هو مظهر للجمال في بعض جوانبه.. فآثرت أن يكون في الجزء الثاني.

وقد قسمت هذا الجزء ـ الأول ـ إلى بابين:

الأول : وموضوعه: أضواء على علم الجمال. ليكون بمثابة تمهيد للباب الثاني.

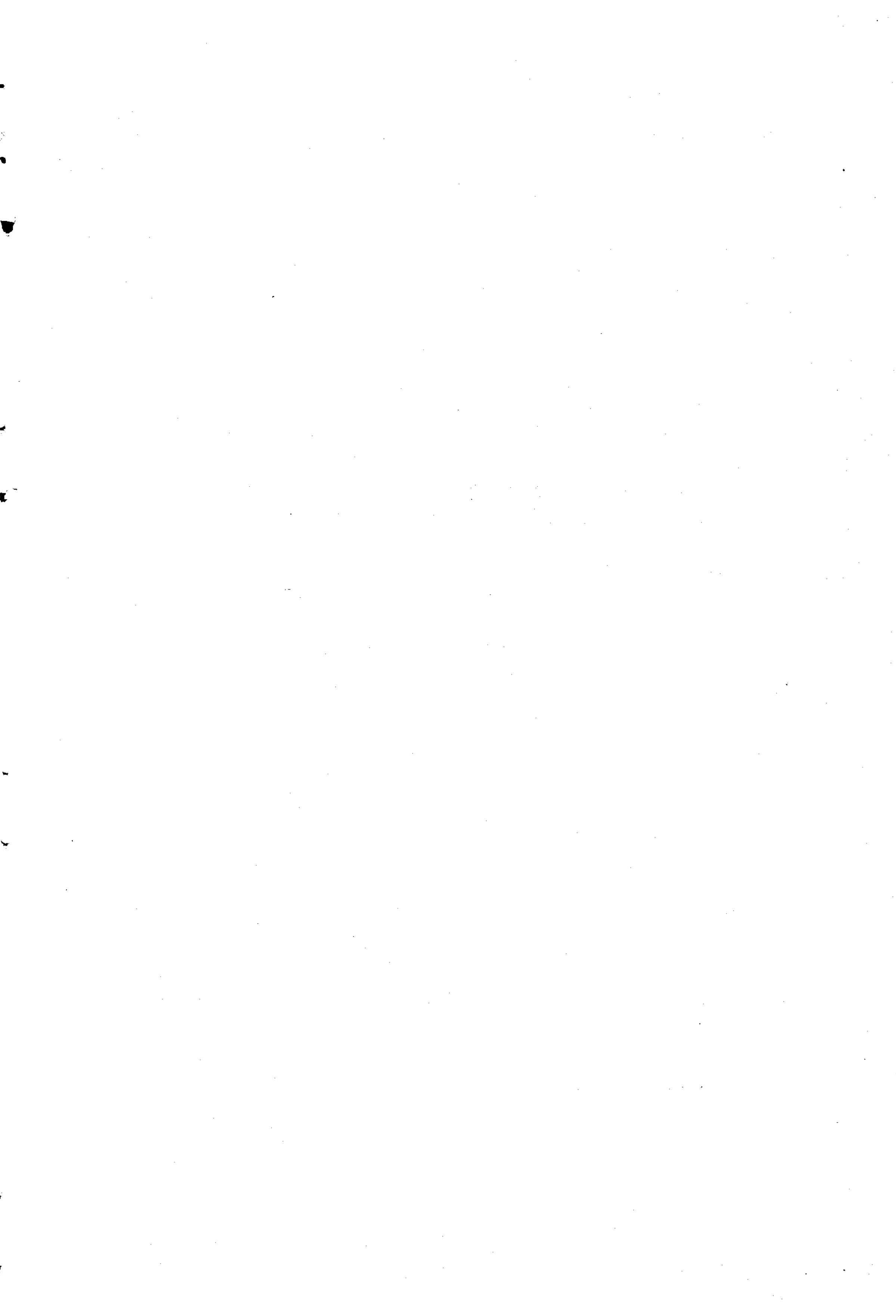
الثاني : الظاهرة الجمالية في الإسلام.

والله أسأل أن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

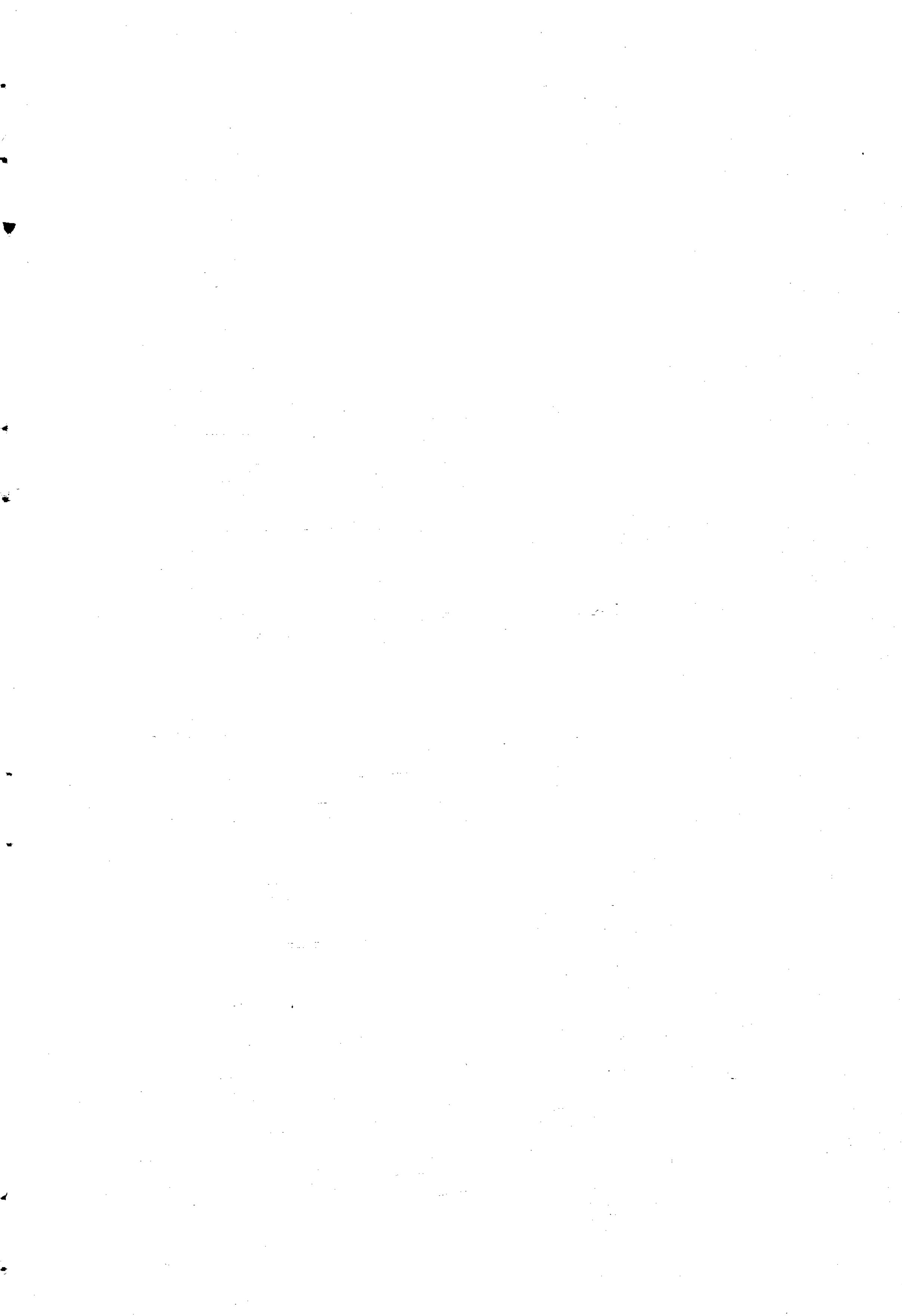
غرة رجب ١٤٠٥ هـ

آذار ١٩٨٥ م

صالح أحمد الشامي

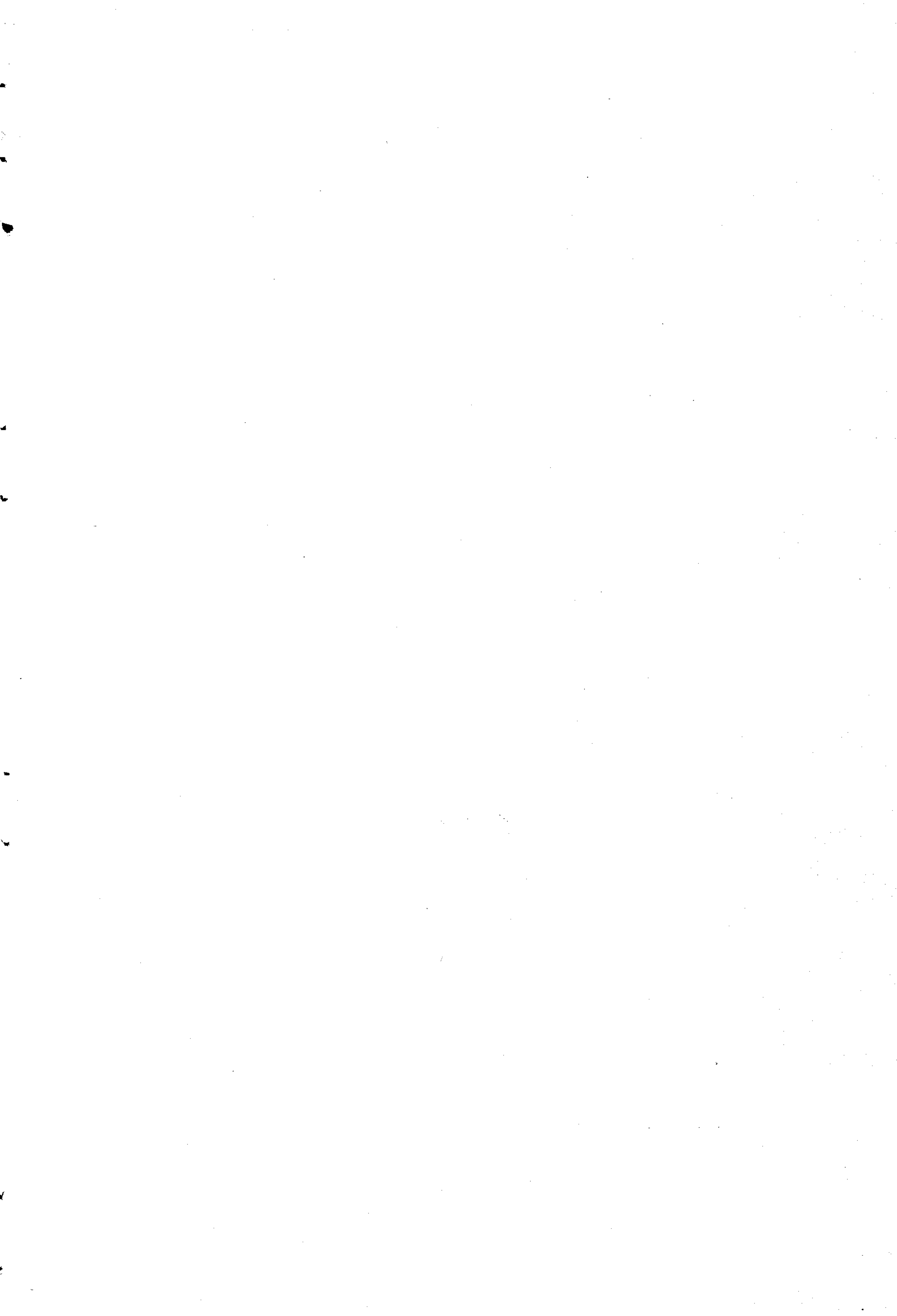



الظاهرة الجمالية
في الإسلام



الباب الأول

أضواء على علم الجمال



إنه لا بد من جولة قصيرة نتعرَّف بها على بعض جوانب «علم الجمال» ليكون القارىء الكريم على صلة بالموضوعات المطروحة تحت هذا العنوان. إنها جولة قصيرة، ولكنه سيتاح له من خلالها أن يقف على تصورٍ لذلك الركام الذي دوّن تحت لافتة الجمال، وما هو إلا ركام من الفلسفة التي تطرَّقت إلى أشياء كثيرة ليس الجمال إلا واحداً منها.

وسنعرج في جولتنا هذه على الفصول التالية:

الفصل الأول : مفهوم الجمال.
الفصل الثاني : الجمال والعلم.
الفصل الثالث : الجمال والفلسفة.
الفصل الرابع : الجمال والأخلاق.
الفصل الخامس : الجمال والدين.
الفصل السادس : الشكل والمضمون.

راجياً أن يجد القارىء فيها الخطوط العريضة التي تناولها هذا العلم، وما لم أذكره فهو ألصق بالفن منه بالجمال. وسوف يكون الحديث عنه، إن شاء الله، عندما نلج بحث «ميادين الجمال» التي يُعدُّ الجمال واحداً منها. فالمدارس الفنية ــ مثلاً ــ على امتدادها وتعددها، وكثرة ما كتب حولها، هي ألصق بالفن منها بالجمال. بل إذا أردنا الدقة قلنا: إنها ألصق بفن التصوير خاصة منها بالفن عامة.

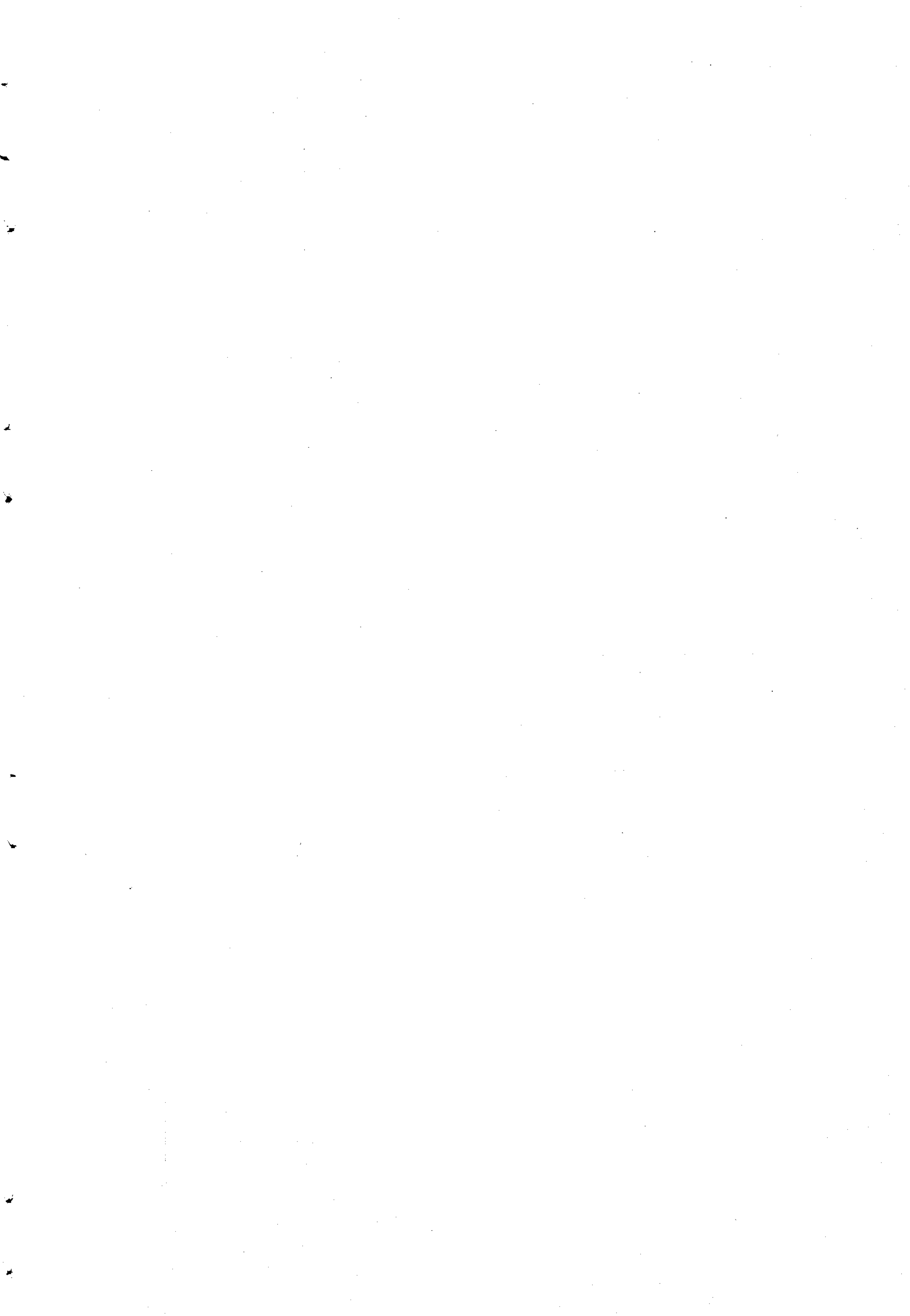
ولنبدأ هذه الجولة...



الفصل الأول

مفهوم الجمال

- رحلة.
- ما هو الجمال؟
- الفن والجمال.
- حقيقة الجمال.



رحلة:

ذهبا يتفقدان الرعية...

سارا وكل منهما يسامر الآخر ويهمس في حسّه ترانيم الحب والإخاء.

كان ذلك ليلاً، حين أخلدت الأشياء إلى الراحة، وذهب بعضها في سبات عميق، ولكن بعضها الآخر أغراها ضوء القمر ينساب من عليائه ليغمر الحياة، فإذا الظلمة قد تبددت، وبدا الكون في ما يشبه النهار في رحيله أو قدومه.. فسهرت تلك الأشياء منتظرة ظلمة الليل أو ضياء النهار.

وعلى متن تلك النسمة الرخية وصلا في رحلتهما إلى الشاطىء. كانت الأمواج متلاحقة يتبع بعضها بعضاً في رقة وحنان. كأنما كل واحدة منها تريد أن تقي الأخرى لسعة البرد الخفيفة فتجعل من نفسها رداء لأختها.. ثم تلتقي جميعاً على الشاطىء تبث حديثها إلى تلك الصخور.. بعد رحلة طويلة، معبرة عن فرحة الوصول إلى شاطىء الأمان..

كانا يرمقان ذلك المشهد الذي تمتلىء به العين.. وتصيخ الأذن إلى تلك الموسيقى العذبة التي يعزفها لقاء الموجات مع تلك الصخور... وأغراهما ذلك بالبقاء فجلسا...

ومن فوق تلك الصخرة العالية الشامخة أطلا على مسافات شاسعة من صفحة اليّم وقد كساها القمر ثوباً فضياً لألاءاً.. تأنس العين لمشهده وترتاح. وكانت أطراف الحديث متجاذَبة بينهما... وفي ذلك الجو الساحر نسيا نفسيهما ونسيا مهمتهما.. ونسيا الزمن.. فلم ينتبها إلا حين خلعت تلك الصفحة ثوبها الفضي وارتدت ثوباً ذهبياً يكاد بريقه يذهب بالأبصار..

وأشرقت الشمس على الكون، فإذا الأرض نور وضياء، وإذا البسمة على فم كل شيء.

وفي تلك الروضة الغناء، التي تقع على منعطف الطريق، كان لهما رعية، وقفا يتفقدان أحوالها ويسمعان أحاديثها. كل شيء على ما يرام، الأشجار يعانق بعضها بعضاً وداً وحناناً، والطلّ أهدى من خزانته للورد لؤلؤاً وجمانا، وطرب النسيم لتغريد الطيور فذهب يداعب أوراق الشجر فكان حفيفها بعض التعبير عن النشوة... وداعب ظلها صفحة الماء الزلال في ذلك الجدول الصغير... فعبر عن سعادته بذلك الخرير الناعم... واطمأنا على الرعية...

وفي التفاتة إلى الأفق البعيد... هناك في تلك الأرض المجدبة بنتة خضراء وحيدة، خرجت تعبر عن الإرادة والرغبة في الحياة. إنها تعلمت كيف يكون الصبر على البلاء جميلاً، فأكسبها ذلك قوة ومقاومة، وساعدها على البقاء... لتشيع الأنس في ذلك المكان.. إنها تعلمت الأنس بالوحدة والاعتماد على النفس... وكان لا بد من زيارتها اعترافاً بفضلها وإكراماً لها.

وفي الطريق، استوقفتهما رمال الصحراء الناعمة المتحركة.. تسرّ إليهما حديثها... وكانت الريح قد داعبتها حتى تعبت.. وراحت تأخذ قسطها من الراحة بعد عناء، كل في مكانها فقد تعلمت النظام.. ونظرا إليها في تناسقها فتيقنا أنه ترتيب تعجز عنه كل يد صَناع...

كان «الحُسْنُ» مسروراً بمصاحبة «الجمال» في تلك الجولة، والصديق يأنس بصديقه...

وتابع الجمال وصديقه رحلتهما في تفقد الرعية، وما أكثرها...

وكان بودّنا أن نتابع رحلتنا معهما، فنحن نعلم أنه ما يزال في برنامجهما الكثير... الكثير.

الأمومة حيث كانت بحنانها وعطفها، والطفولة ببراءتها وخفّتها...

الآثار المنتشرة هنا وهناك.. تسجل المهارة والدقة وأحياناً الضخامة والتحدي والعناد...

وفي برنامجه زيارة المتاحف، فقد بلغه أن رعاعاً من «اللوحات» التي لا نسب لها ولا قيد استطاعت أن تدخل إليها، في غفلة من الرقيب، وتجعل من نفسها بعض رعيته...

وفي برنامجه زيارة روضات الشعر.. فقد كثرت فيها الطفيليات...

كان بودنا أن نتابع الرحلة.. ولكننا نكتفي بهذا الجزء دلالة على الكل. إذ كان لا بدَّ لمن أراد التعرف على «الجمال» من رحلة في أرجاء مملكته الواسعة.

وقد تعلمنا من خلالها أن رعية الجمال تنتشر حيث ترتاح النفس وتستأنس وتمتد العين غير راغبة في التحول عما تراه إلى غيره. وتصيخ الأذن مرهفَةً سمعها لتنقل ما لا قدرة للعين على نقله من النغمة والصوت، بل إنه حيث تشترك العين والأذن... فتنقل العين المنظر الفتَّان وتنقل الأذن الصوت الرخيم، وتعيش النفس التناسق بين إحساس الأذن ورؤية العين وإدراك العقل...

وبعد:

ما هو الجمال؟

قد يكون من السهل أن نرى «شيئاً» فنصفه بالجمال، أو نرى «سلوكاً» لإنسان في أمر ما، فنصف ذلك السلوك بالجمال، ولكن من العسير تعريف الجمال!!

إن «مفهوم الجمال» قريب متداول، يفهمه الجميع ويتعاملون معه، ولكن «التعريف» به بعيد المنال، وهذا ما دفع بعض الكتاب والفنانين إلى التصريح بصعوبة ذلك، وبعده عن الإمكان.

قال «مالرو»[1]: فكرة الجمال ــ وهي من أكثر أفكار علم الجمال غموضاً ــ ليست بغامضة إلا في علم الجمال نفسه[2].

وقال «برتليمي»: إن نحن رجعنا إلى قدامى الفلاسفة لعلمنا أن الجميل، شأنه شأن الحق والخير، يعيش فوق العقل والمنطق والعمل، ولهذا فالجميل لا يقبل التعريف... والجمال يفهم من خلال الأشياء الجميلة[3].

---

(١) اندريه مالرو (١٩٠١-١٩٧٥) روائي وفيلسوف فرنسي اتجه إلى الفن من كتبه (سيكلوجية الفن).

(٢) بحث في علم الجمال. جان برتليمي ص ٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٠-١١.

وقال أبو ريان: إننا في مجال البحث الجمالي أمام ظاهرة تستعصي على التعريف ما دمنا في مجال الوجدان والشعور، لا في مجال العقل والقضايا المنطقية [١].

ولعل السبب الرئيسي الذي ترجع إليه صعوبة التعريف، هو أن الجمال معنى من المعاني، فهو لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره، حيث نستطيع رؤيته في الإنسان، وفي الأشياء، وفي الأفعال والتصرفات...

إنه الحيوية التي لها إمكانية دخول المجالات كلها، مادية كانت أم معنوية، وقد تكون في مادة الشيء وحقيقته، وقد تكون في ظاهره وصورته.

وهو الذي يسهم في كمال الأشياء ظاهراً وباطناً..

وما دام «الجمال» معنى فليس بالإمكان ضبطه بالوصف أو «الكم» أو «الكيف».. الأمر الذي يحول دون إنتاج تعريف له.

وهناك عامل آخر يؤخر عملية الإنتاج هذه، هو اختلاف الأفراد في تقديرهم للجمال، وكذلك في درجة تذوقهم له.

وهذا ما دفع بعض كبار فلاسفة الجمال إلى تعريفه بالآثار المترتبة عليه [٢].

الفن والجمال:

يعدُّ الفن واحداً من المجالات التي يسيطر الجمال عليها، و يظهر من خلالها، ولكن الفن ليس هو الجمال، إذ قد يوجد الفن ولا يوجد الجمال فيه، إما لطبيعة ذلك العمل الفني الذي ربما كان تصويراً للقبح، وإما لأن الفنان قد غلب عليه الجانب الفني.. فلم يأبه لمراعاة الجمال.

وقد خلط كثير من الكتّاب بين الكلمتين، حتى ما يكاد القارىء يلحظ فرقاً في استعمالها، إن كتباً كثيرة وضع «الجمال» عنوناً لها، ولكنك لا تجد فيها غير الحديث عن الفن، وكأنه هو الجمال.

---

(١) فلسفة الجمال. د. محمد علي أبو ريان ص ٧٥.

(٢) لهذا البحث تتمة بيان في الباب الثاني من هذا الكتاب.

وأعتقد أن السبب في هذا، هو ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من اعتبار الفنِّ الميدان الوحيد للجمال. وأن «علم الجمال» قاصر على الفن. ومن هؤلاء «هيغل»[1] حيث قال: «نقصر مصطلح علم الجمال على الفن الجميل» وقال: «الموضوع الحق لبحثنا هو جمال الفن منظوراً إليه على أنه الحقيقة الوحيدة لفكرة الجمال»[2].

وإنه ما من شك في أن الصلة وثيقة بين «الفن» وبين «الجمال» فمن غاية الفن تحقيق الجمال، ولكنه تارة يدرك هذه الغاية وتارة تفوته.

والجمال لا يستغني عن الفن كميدان من ميادينه الفسيحة، ولكن لا يستطيع أن يتخلى عن مجالاته الأخرى التي منها الطبيعة والإنسان.

وقد حاول «جون ديوي»[3] أن يوضح الصلة بينهما فقال: إذا بحثنا عن الصلة بين الفن والجمال وجدنا: أن الفن يشير إلى العمل الإنتاجي، وأن الجمال يشير إلى الإدراك والاستمتاع، إلا أنه في بعض الأحيان يشار إلى فصل الظاهرة الفنية من حيث هي إبداع وخلق عن الظاهرة الجمالية من حيث هي تذوق واستمتاع، كي لا يكون الفن شيئاً مفروضاً على المادة الجمالية»[4].

حقيقة الجمال:

لا شك أن للجمال حقيقة موجودة ثابتة، ولكن أين، وكيف، نضع يدنا عليها؟

هل هي الصفة المستقرة في ذات الشيء؟ وعلى هذا تكون حقيقة الجمال مستقرة في ذلك الشيء.

أم هي الشعور الذي ينبع من نفس الإنسان تجاه شيء ما؟ وحينئذٍ تكون حقيقة الجمال مستقرة في نظرة الإنسان من خلال ما يشعر به نحو ذلك الشيء!

---

(١) هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسوف ألماني تعمق في دراسة علم الجمال.

(٢) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ١١٩.

(٣) فيلسوف وعالم نفس أمريكي (١٨٥٩-١٩٥٢) اهتم بعلم التربية.

(٤) الخبرة الجمالية. سرحان ص ٣٣ وانظر «فلسفة الفن» د. زكريا ابراهيم ص ١١٦-١٢٠.

ليس هناك اتفاق على هذا الأمر.

في رأي «شوبنهاور»[١] أن الجمال صفة موجودة في ذات الشيء[٢]. وإلى قريب من هذا ذهب «هيدجر»[٣] حينما عدّ مهمة الفن هي الكشف عن حقيقة الموجود، وعلى هذا فالجمال في نظره ليس سوى مظهر من مظاهر تجلي الحقيقة حينما تتفتح بكل معنى الكلمة[٤].

ونرى في الجانب الآخر «كانت»[٥] الذي لا يعتقد ذلك، بل يرى أن جمال الشيء يتوقف في تقديره على ما يشعر به الإنسان نحو هذا الشيء، أي أنه لا يوجد شيء جميل في ذاته، يعتقد كل الناس أنه جميل، بل إن الأشياء تعدّ جميلة أو غير جميلة طبقاً لتقدير كل إنسان لقوة تأثيرها في عقليته ونفسيته[٦].

وإلى بعض هذا الاتجاه ذهب «كاسيرر»[٧] حينما قال: إن الجمال ليس مجرد خاصية مباشرة باطنة في الأشياء، بل هو يتضمن بالضرورة إحالة إلى الذهن البشري الذي يدركه[٨]. وبهذا تنتقل حقيقة الجمال من كونه صفة في الشيء إلى طريقة إدراكه وأثر النفس الإنسانية في هذا الإدراك.

و يتبين لنا مما سبق أن هناك اتجاهين بهذا الصدد:

١) اتجاهاً يعدّ حقيقة الجمال قائمة في ذات الشيء الجميل، فهي صفة من صفاته.

٢) واتجاهاً آخر يرى أن حقيقة الجمال مستقرة في شعور الإنسان نحو ذلك الشيء.

---

(١) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠)م فيلسوف ألماني. أقام فلسفته على مثالية كانت. أهم كتبه: العالم إرادة وفكر.

(٢) جمال المرأة. د. فخري فرج ص ١٧ (التعليق).

(٣) مارتن هيدجر (١٨٨٩-٠٠٠٠) فيلسوف ألماني يعد رائد الوجودية الإلحادية. اتهم بالتعقيد، وهوزعيم الوجودية الألمانية.

(٤) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٢٦٩ و٢٧١.

(٥) عمانوئيل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) يعد أكبر الفلاسفة الألمان.

(٦) جمال المرأة. د. فخري فرج ص ١٢-١٣.

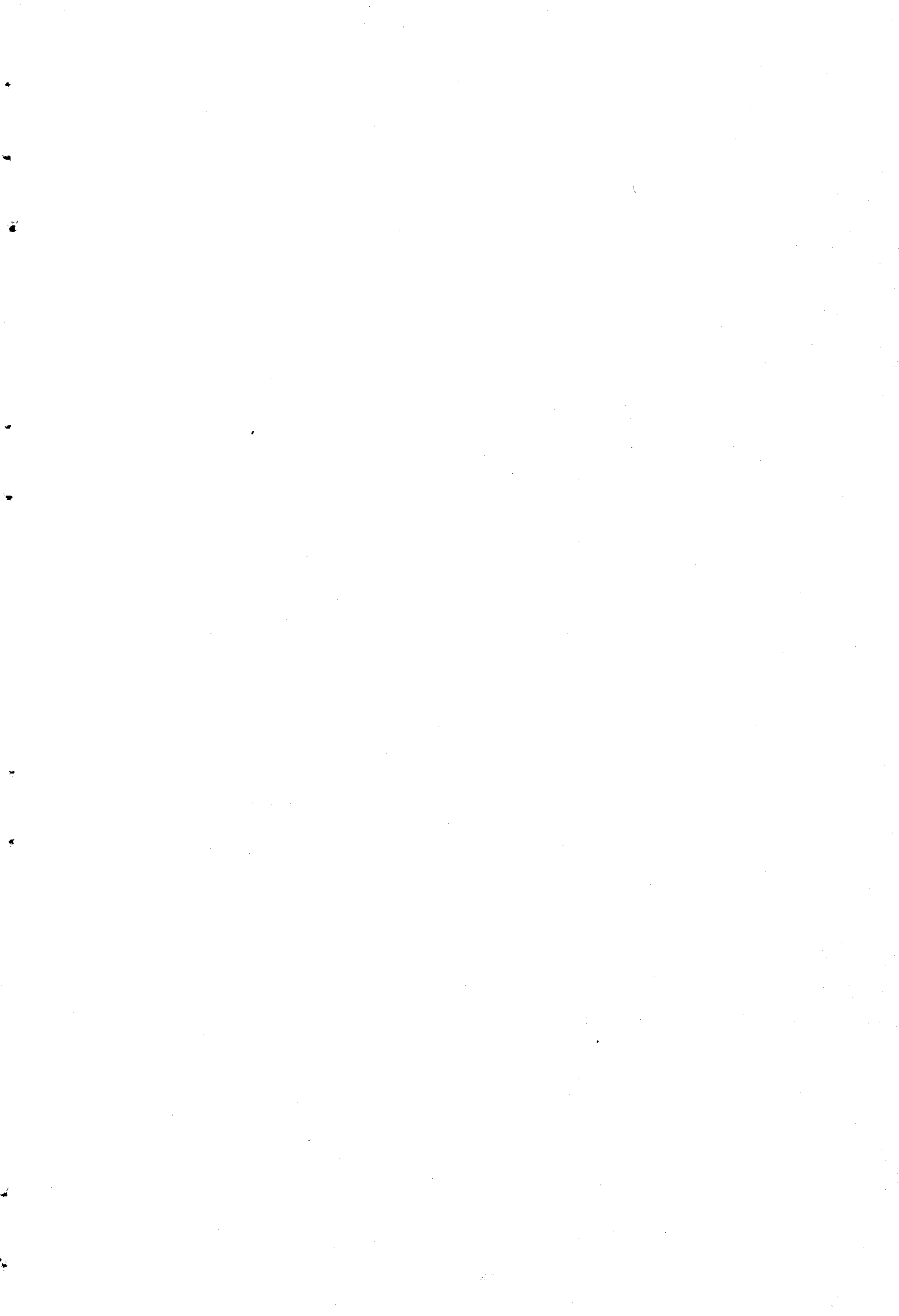
(٧) كاسيرر (١٨٧٤-١٩٤٥) فيلسوف ألماني. يعد رائد الكانتية الجديدة، كتب في الجمال.

(٨) فلسفة الفن د. زكريا ابراهيم ص ٢٩٠.

الفصل الثاني

الجمال والعلم

- ◻ علم الجمال.
- ◻ موضوعات علم الجمال.
- ◻ خصائص الجمال.
- ◻ مقاييس الجمال.



علم الجمال:

إنشاء «علم الجمال» حلم راود الكثير من الفلاسفة، وتطلع إليه كل أولئك الذين اهتموا بالدراسات الجمالية، وما زالت الجهود يتبع المتأخر منها المتقدم حيث يجتمع بعضها إلى بعض في سبيل تحقيق ذلك.

وقد وصلت القناعة لدى بعضهم إلى اعتبار ذلك واقعاً قائماً لامرية فيه، وأن هذا العلم قد وقف على قدميه وأخذ موقعه المناسب مع بهائه بين العلوم الأخرى. ومن ثم وضعت التعاريف له كأي علم أخذ أبعاده في ميادين الثقافة والمعرفة. ونذكر هنا على سبيل المثال تعريف «هيغل» حيث قال:

«إن علم الجمال هو فلسفة الفن الجميل، إنه فلسفة للوعي الجمالي، وفلسفة للقدرة عل الإبداع الأكثر صدقاً وجمالاً، فلسفة للتذوق الأكثر قدرة على الإستيعاب»[1].

واندفع بعضهم في عقد المقارنات بين «العلم» وبين «الفن» باعتباره الميدان الفسيح لموضوع «الجمال». فهذا «هربدت ريد»[2] يقرر أنه ليس ثمة معايير للحقيقة تنطبق على العلم وحده دون الفن، لأنه إذا كان للعلم لغته القائمة على العلامات، فإن للفن لغته القائمة على الرموز[3] ... ثم يقول: فأنا في النهاية لا أميز بين العلم والفن إلا باعتبارهما مناهج، هذا إلى أني أعتقد أن التناقض الذي قام بينهما في الماضي كان راجعاً إلى نظرة قاصرة محدودة إلى كل من النشاطين، إذ الحق أن الفن هو وسيلة تمثيل إحدى الحقائق، وأن العلم هو تفسير الحقيقة نفسها[4].

---

(١) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ٢١.

(٢) مفكر وعالم جمال وشاعر انكليزي (١٨٩٣-١٩٦٨) عمل أستاذاً للفنون بجامعة ادنبره.

(٣) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٤) التربية عن طريق الفن. هربرت ريد ص ١٨-١٩.

وقد أكد هذا الاتجاه «ريمون باير»[١] ــ رغم اعترافه بالصعوبات الكثيرة التي حالت دون قيام علم موضوعي للجمال ــ حيث رأى أن «الاستطيقا» ــ علم الجمال ــ هي أولاً «علم الكيف» في حين أن العلوم جميعاً «كمية» ثم هي مشوبة بعامل ذاتي، في حين أن العلوم جميعاً موضوعية، وهي أخيراً ذات طابع فردي أو جزئي أو خاص، في حين أن كل علم هو بالضرورة علم بالكلي أو العام[٢]. وبهذا يرى أنه وضح الأركان التي يقوم عليها هذا العلم.

وفي المقابل ذهب فريق آخر إلى نفي إمكانية قيام هذا العلم، لاختلاف بين طبيعة العلم وبين طبيعة الفن. «فالعلم ينتقل من الوقائع المادية إلى الكشف عن القوانين العامة (التجريد)، أما الفن فإنه لا يستخدم التجريد أو البرهان كمنهج، ولا يخضع للفروض (الإفتراض) أو التصنيف العلمي، إنه ينبع من ذاتية الفنان المتفاعلة مع الموضوع»[٣].

ويستبعد «ألكسيس كاريل»[٤] إمكانية تطبيق النظرة العلمية في هذا الميدان حيث يقول: تبدو الوسيلة العلمية ــ للنظرة الأولى ــ غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا.. لأن فنوننا لا تفهم الأشياء التي لا أبعاد لها ولا وزن، وإنما هي تصل فقط للمناطق التي تقع في الاتساع والزمن، إنها غير قادرة على قياس الغرور والحقد والحب والجمال[٥]...

ويذهب «جورج سانتيانا»[٦] إلى أبعد من هذا فينكر علم الجمال أصلاً فيقول: «إنني لا أسلم ــ في الفلسفة ــ بوجود فرع خاص يمكن أن نسميه باسم (فلسفة الجمال) فإن ما اصطلحنا في العادة على تسميته باسم (فلسفة الفن) لهو ــ فيما يبدو لي ــ مجرد دراسة لفظية. مثلها في ذلك كمثل فلسفة التاريخ سواء

---

(١) مفكر فرنسي (١٨٩٨-١٩٥٩).

(٢) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٣٥٦.

(٣) فصول في علم الجمال. برجاوي ص ٧٧.

(٤) عالم امريكي ذو مكانة علمية عالية منح جائزة نوبل عام (١٩١٢) لأبحاثه الطبية الفذة.

(٥) الإنسان ذلك المجهول ص ٥٤.

(٦) فيلسوف وشاعر امريكي (١٨٦٣-١٩٥٢) ولد بمدريد أهم كتبه (الإحساس بالجمال).

بسواء»[1] . ثم يؤكد ذلك بقوله: إن لفظ «استطيقا» ــ علم الجمال ــ ليس إلا مجرد لفظ مائع استخدم حديثاً في الأوساط الجامعية للإشارة إلى كل ما يمسّ الأعمال الفنية والإحساس بالجمال[2] .

تلك كانت نماذج لآراء كل من الفريقين، يمكننا بعدها أن ندلي بالملاحظات التالية:

(١) إن الفريق الأول الذي قال بإمكانية قيام هذا العلم، قصره على الفن، باعتباره ميدان الجمال، وقد صرح بذلك هيغل في كتابه «المدخل الى علم الجمال» حيث قال: «هذا المؤلف موقوف على الاستطيقا، أي على فلسفة الجمال، على علمه، وبمزيد من الدقة، الجمال الفني حصراً دون الجمال الطبيعي»[3] وقد أغفلوا بذلك ميدانين فسيحين للجمال هما: الطبيعة والإنسان. بل إن بعضهم قصره على بعض فروع الفن الجميل كالنحت والتصوير.. وهذا نقص كبير يسجل على هذا العلم لو وجد!

(٢) إنهم ــ أيضاً ــ لم يستطيعوا فصله عن الفلسفة.. حتى عد فصلاً من فصولها. وما كان كذلك لا يسمى علماً، طالما أنه لا يستقل بنفسه، ويذهب «أبوريان» إلى استحالة قيام علم للجمال لا يستند إلى إطار فلسفي واضح المعالم[4] .

(٣) إن هذا الفريق نفسه لا تجمع بين أفراده وجهة نظر واحدة. بل كثيراً ما يكون بعضهم على طرفي نقيض مع بعضهم الآخر، على الرغم من حصرهم «للجمال» في «الفن» وهذا ما عبر عنه الدكتور زكريا إبراهيم بقوله: ولو أننا حاولنا الآن أن نبحث السمات العامة التي تتصف بها فلسفة الفن في الفكر المعاصر، لوجدنا أنه قد يكون من العسير ــ إن لم نقل من المستحيل ــ الاهتداء إلى خصائص مشتركة تجمع بين شتى الاتجاهات المعاصرة في فلسفة الفن. والسبب في ذلك أن تعدد المذاهب الفلسفية في القرن العشرين قد عمل على اختلاف

---

(١)(٢) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٦٩.

(٣) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ٥.

(٤) فلسفة الجمال. أبوريان ص ٥٠.

وجهات نظر الفلاسفة في الحكم على «الخبرة الجمالية» حتى لقد يبدو لأول وهلة أننا نشهد اليوم «فوضى فكرية» لا نظير لها في ميدان الدراسات الجمالية بصفة عامة وفي طريق الحكم على الفن بصفة خاصة[1] ...

(٤) وحتى وقتنا الحاضر فليس هناك «مصطلحات» لعلم الجمال متفق عليها. بل يكاد يكون لكل عالم مصطلحاته الخاصة. فالفن عند «كروتشه»[2] (حدس)، والعمل الفني عند هيدجر (شيء) والأعمال الفنية مجرد أشياء. والموضوع الجمالي عند «سارتر»[3] هو مجرد «متخيل» أو «لا واقعي» ونجد «التمرد» عند ألبير كامي[4] ...[5].

وعدم الإتفاق على المصطلحات أمر يعيق تقدم العلم. إذ لا يستطيع المتأخر البناء والمتابعة لما أنتجه من سبقه. بل إن عدم الوضوح في هذه المصطلحات قد يجعل الفائدة قليلة من ذلك الإنتاج و يعطينا المثال على ذلك الدكتور زكريا إبراهيم لدى بحثه عن فلسفة هيدجر فيقول: نرى لزاماً علينا أن نشير إلى ما في هذه الفلسفة من اصطلاحات فنية دقيقة قد تعسر ترجمتها أحياناً إلى أية لغة أجنبية، وهذا هو العائق الكبير الذي اصطدم به معظم مترجمي هيدجر[6] ...

تلك بعض المآخذ على القول بإنشاء «علم للجمال» وهي مآخذ مهمة لا يمكن الإغضاء عنها وتجاوزها، وهي السبب في تضخم الموضوعات التي نسبت إلى هذا العلم بل وتورمها في بعض الأحيان، مما جعل الكثير من هذه البحوث ليست بذات جدوى.

---

(١) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ١٢.

(٢) بندتو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢) فيلسوف إيطالي، أشتهر مذهبه باسم (فلسفة الروح) من كتبه (المجمل في علم الجمال).

(٣) جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) فيلسوف وأديب فرنسي، اقترنت الفلسفة الوجودية باسمه.

(٤) ألبير كامي (١٩١٣-١٩٦٠) كاتب فرنسي اتسمت أعماله الأخيرة بالمذهب الوجودي.

(٥) راجع فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٤٣ (الحدس) و٢٦١ (الشيء) و٢٤٠ (المتخيل) و٢٠٦ (التمرد).

(٦) المصدر السابق ص ٢٥٨-٢٥٩.

موضوعات «علم الجمال»:

على الرغم مما سبق ذكره ــ من استبعاد وجود علم جمال ــ فإن الكتب التي ظهرت تحت هذا العنوان كثيرة جداً، فما هي الموضوعات التي تضمنتها هذه الكتب؟ أو بتعبير أدق، ما هي الموضوعات التي يرى الراغبون في قيام هذا العلم وجودها فيه؟

إن الموضوع الأساسي لعلم الجمال؛ هو دراسة الجمال في أعمال الفن الجميل[(١)]. ولكن «بومجارتن»[(٢)] أضاف إلى ذلك دراسة تكوين الذوق، وطبيعة الانفعال، والإهتمام بتحليل منطق الفن ممثلاً في طبيعة الخيال الفني[(٣)]. وجاء «كانت» بعده فأثار من المشكلات الجمالية ما لم يكن للفلاسفة به عهد. مثل مشكلة الحكم الجمالي، ومشكلة صلة الشكل بالمضمون في العمل الفني، ومشكلة علاقة الفن بالطبيعة، ومشكلة تصنيف الفنون، ومشكلة الصلة بين الجميل والجليل[(٤)] ...

ثم اتسع نطاق هذه الموضوعات في القرن العشرين بتأثير النظريات الفلسفية «فلم يكتف الباحثون في فلسفة الفن بإعادة النظر إلى المفاهيم التي درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم «التعبير» ومفهوم «الصورة» ومفهوم «الحدس» ومفهوم «الرمزية»... بل حاولوا أيضاً ربط «فلسفة الفن» بمباحث أخرى مهمة مثل مبحث اللغويات العام[(٥)]...

على أننا نستطيع أن نرجع الموضوعات التي تناولتها كتب علم الجمال إلى أصلين رئيسيين: أحدهما يتعلق بالموضوع الجمالي، والثاني يتعلق بالفنان.

(١) أما ما يتعلق بالموضوع الجمالي، فلا نجد كتاباً تناول كل ما يتعلق به، وإنما تناول كل كاتب جانباً من الجوانب. ولعل أهم الفقرات هي:

---

(١) فسلفة الجمال. أبو ريان ص ١١١.

(٢) فيلسوف ألماني (١٧١٤-١٧٦٢) أول من استخدم لفظ (استطبقا) للدلالة على علم الجمال.

(٣) علم الجمال. الديدي ص ٣٩.

(٤) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٨.

(٥) المرجع السابق ص ١١.

ـــ معنى الجمال، الجمال المجرد.
ـــ هل الجمال هو ذات الشيء الجميل، أم هو المشاعر؟
ـــ جمال الطبيعة وجمال الفن.
ـــ الشكل والمضمون.
ـــ أسس الجمال وضوابطه.. التناظم والتناسق..
ـــ مهمة الفن: إيقاظ المشاعر.. تهذيب الأخلاق.
ـــ التصور الموضوعي للفن.
ـــ الفكرة.
ـــ خصائص اللغة الفنية.
ـــ اللذة الجمالية واللذة الحسية.
ـــ تصنيف الفنون الجميلة.
ـــ علوم جمالية جديدة.. علم الجمال الاجتماعي.. علم الجمال الصناعي.
ـــ وظيفة الفن.. ترفيهية، مثالية، تطهيرية..
ـــ ....

(٢) وأما ما يتعلق بالفنان، فما تناولته كتب الجمال:
ـــ شخصية الفنان وأثرها.. وضرورة الاهتمام بها؟!..
ـــ العبقرية والإلهام.
ـــ الخيال والواقع.
ـــ الإبداع وكيفية حدوثه.
ـــ التقليد والمحاكاة للطبيعة.
ـــ الأسلوب، الطريقة، الأصالة.
ـــ الموهبة، الذوق، الذكاء..
ـــ الخبرة الجمالية.. في التذوق والنقد والعمل الفني.
ـــ علاقة الفنان بالمجتمع.
ـــ مهمة الفنان..
ـــ الالتزام.. الفن الموجه..
ـــ المدارس الفنية.
ـــ ......

وهنـاك إضـافةً إلى ما سبق موضوعات تتعلق بالمشاهد (المتأمل) ومدى خبرته الفنية ومشاركته الفنان نظرته...

وكـذلـك فيما يـتعلق بعالم الجمال ومهمته، هل هي مجرد دراسة للعمل الفني.. أم هي نقد...؟

ذلـك سـرد لأهـم المـوضوعات... ومن خلالها يتبين لنا أن كثيراً من العناصر حـشرت وأضـيفـت إلى هـذا الـفـن لمجرد شبهـة العلاقة كموضوع الإبداع وكيفية حدوثه.. والإلهام والعبقرية.. كما أن موضوع الفن طغى طغياناً تاماً على «الجمال» فتحول الحديث إلى الفن.. وترك الجمال وشأنه.

والملاحظة المهمة: أنه وحتى وقتنا الحاضر قد سجل هذا العلم فشله في إيجاد خطة منهجية للبحث يسير الكاتب أو المؤلف من خلالها. فنرى عناوين هذه الكتب متشابهة بل ومتطابقة بعض الأحيان. ثم لا نجد تشابهاً في طريقة البحث، أو تناول الموضوعات. فما يتناوله مؤلف قد لا يستوقف مؤلفاً آخر.. ويهتم بعضهم بما يهمله الآخر.

خصائص الجمال:

وإذا كان قد أصبح للجمال علم، فهل استطاع هذا العلم أن يحدد طبيعة الجمال وخصائصه.. ومقاييسه..

إن الفكرة المهمة في هذا الصدد والتي التقت عليها آراء كثيرة هي أنه لا يمكن أن يكون لهذا العلم قواعد سابقة على وجود العمل الفني.

قال «برتليمي»: إننا نستطيع التحدث ــ جوازاً ــ عن قواعد عامة جداً، ولو أن هذه القواعد لا تستنتج من مذهب للجمال وُضعَ مقدماً، بل تستنبط مؤخراً من الأعمال التي تم تنفيذها فعلاً، كما تستنبط قواعد علم تقدير القيم العلمية من التجربة والنجاح والخطأ[1].

ثم أكد ذلك بقوله: «ما من إنسان يستطيع اليوم أن يعرف علم الجمال بأنه

(١) بحث في علم الجمال ص ٥.

علم مقاييس الجمال، الذي يتطلب معرفة قواعد لا بد أن تؤخذ في الاعتبار مقدماً عند إنتاج الأشياء الجملية... ولقد أمكن القول في هذا المعنى بأن علم الجمال هو الشرعية غير المحددة النابعة من مجموع النتائج الموفقة. وذلك أن الجمال ليس بنموذج أبدي أو بقانون أمثل قائم قياماً مسبقاً[1] ».

و يتوجه «فلدمان» ــ وهو أحد علماء الجمال الفرنسيين ــ بالنصيحة إلى عالم الجمال فيقول: «ينبغي ألا يتدخل عالم الجمال في فرض القواعد التي ينبغي أن يلتزم بها الفنان لتحقيق الجمال في إنتاجه، أو أن يشترط للجمال شروطاً معينة، بل هو يبحث في أحكام الناس الجمالية شأنه في ذلك شأن عالم المنطق، لا يفرض على العلماء قواعد التفكير التي عليهم أن يسيروا عليها، بل هو يكتفي بتحليل خطوات تفكيرهم[2] ».

ومع أهمية الفكرة السابقة، فإن بعض العلماء حاول أن يثبت بعض الخصائص التي يتصف بها الشيء الجميل ومنهم «ادموند بيرك» (١٧٢٩-١٧٩٧) فهو يرى أن الشيء الجميل يتصف بخصائص أهمها: الضآلة، والرقة، والتنوع المتدرج بين أجزائه، وعدم اتصال هذه الأجزاء بعضها بالبعض الآخر على شكل زوايا، ونعومة المظهر، أو اختفاء كل مظهر للقوة. و وضوح اللون وبريقه دون أن يكون خاطفاً، والألوان الهادئة أي الفواتح هي أقرب إلى سمة الجمال من غيرها من الألوان القاتمة. ومن ناحية الأصوات نجد أن الصوت الناعم الرقيق هو الذي يوصف بالجمال، دون غيره من الأصوات الهادرة الخشنة، ومن ناحية الملمس ــ والملمس عنده أهم حواس إدراك الجمال ــ نجد أن الأجسام الصقيلة أقرب إلى الجمال من الأجسام الخشنة الملمس[3] ».

و يرى «هوجارت»[4] أن أهم العوامل المؤثرة في التقدير الجمالي هي: التناسب، والتنوع، والاطراد، والبساطة، والتعقيد، والضخامة[5].

---

(١) المصدر السابق ص ٥-٦.

(٢) مقدمة في علم الجمال. مطر ص ٦-٧.

(٣) فلسفة الجمال، أبو ريان ص ٣٣-٣٤.

(٤) وليم هوجارت (١٦٩٧-١٧٦٤) عالم جمال انكليزي اشتهر كمصور كما اشتهر بأعمال الحفر.

(٥) المصدر السابق ص ٢٨.

وإذا كان «بيرك» و «هوجارت» وغيرهم كثير قد اتجهوا إلى الحديث عن الخصائص الظاهرة للشيء الجميل، فإن فريقاً آخر اتجه إلى إعطاء الخصائص الباطنة أو المعنوية اعتبارها، ونثبت ــ على سبيل المثال ــ رأي «كروتشه» في هذا الصدد حيث يرى:

١ ــ ألا يكون الفن ظاهرة فيزيائية، أو واقعة طبيعية، ومعنى هذا نقد سائر النزعات التجريبية في علم الجمال. فالظاهرة الفنية واقعة لا تقبل القياس بل هي حقيقة روحية.

٢ ــ ألا يكون الفن فعلاً نفعياً،.. وهذا رفض لمذهب «اللذة» أو «المنفعة».

٣ ــ ألا يكون الفن «فعلاً أخلاقياً» فإذا كانت الإرادة الخيرة هي قوام الإنسان الفاضل، فإنها ليست قوام الإنسان الفنان، ومعنى هذا وضع الفن خارج نطاق الأخلاق، وهو بالتالي رفض لفكرة «الفن الموجه».

٤ ــ وهو يرفض أن يكون الفن مجرد معرفة تصورية، وبهذا يكون الفن في مقابل العلم... و يتقرر بناء عليه نفور الفن من العلوم الوضعية والرياضيات أشد من نفوره من الفلسفة والدين والتاريخ[١].

ونتساءل ــ بعد تقديم وجهتي النظر السابقتين ــ هل كان ما ذهب إليه كل من «بيرك» و«هوجارت» نتيجة لاستقراء قام به كل منهما، أم هو وجهة نظر خاصة؟ ومهما يكن من أمر فإن ما طرحاه لا يكوّن رأياً عاماً بسبب اختلاف الأذواق لدى الناس، ثم هي مفاهيم عامة تنقصها الدقة، وما صح منها في مجال قد لا يكون كذلك في مجال آخر.

وما ذهب إليه «كروتشه» يمثل اتجاهاً له معارضوه في كل خاصية ذهب إليها.

كل هذا يؤكد عدم صلاحية الفن «الجمال» للانضواء تحت التقنين أو الخضوع إلى قواعد علمية، وهذا ما تنبه له «هيغل» حيث قال: يظهر أن الفن يتعذر عليه أن يصلح لدراسة علمية[٢]...

---

(١) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٤٣-٤٨ ملخصاً.

(٢) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ١٧.

مقاييس الجمال:

هل هناك مقاييس يمكن اعتمادها في تقدير الجمال؟

إن الإجابة على هذا السؤال متوقفة على النظرة إلى الجمال، فيما إذا كان من الممكن أن نطبق عليه معايير العلم، أم لا؟

والذين ذهبوا إلى النفي، عللوا ذلك بتعليلات مختلفة، أما هيغل: فالجمال ــ في نظره ــ أمر عرضي، والعلم هو علم للضروري لا للعرضي، وبالتالي: فإنه يستحيل صوغ معيار للجمال، ذلك أن الأذواق تختلف إلى ما لا نهاية[1].

وذهب بعضهم إلى إمكانية القياس بالرجوع إلى واحد من الثلاثة التالية حيث يكون الحكم:

أ ــ إما بالاستناد إلى آراء علماء الجمال والفلاسفة.

ب ــ وإما بمقارنة الأعمال الفنية بعضها ببعض.

ج ــ وإما بالاعتماد على الطبيعة لأنها تبدو في بعض الأحيان المعيار الذي نقيس به العمل الفني الجميل[2].

ونظرة سريعة على هذه المقاييس، تجعلنا على يقين من عدم قدرتها على الوفاء بالمطلوب، إذ هي مقاييس رجراجة لا يمكن الاعتماد عليها.

فآراء العلماء تكون تبعاً لفلسفاتهم، التي تمتد على الساحة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مما يجعل تلك الأحكام مختلفة..

ومقارنة الأعمال الفنية بعضها مع بعض... يجعلنا نتساءل: أيها المقياس؟ المتقدم أم المتأخر؟ العمل الذي من صنع الرواد المشهورين، أم أي عمل ولو كان صانعه من المغمورين؟.. وفي هذه الحالة يكون الحكم لا على العمل الفني لذاته، وإنما من خلال صانعه..

وإذا اعتمدنا على الطبيعة، تصدى لنا الذين ينكرون أستذتها، وينكرون محاكاتها.. وبالتالي فلا يمكن اعتمادها.

---

(١) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ١٧.

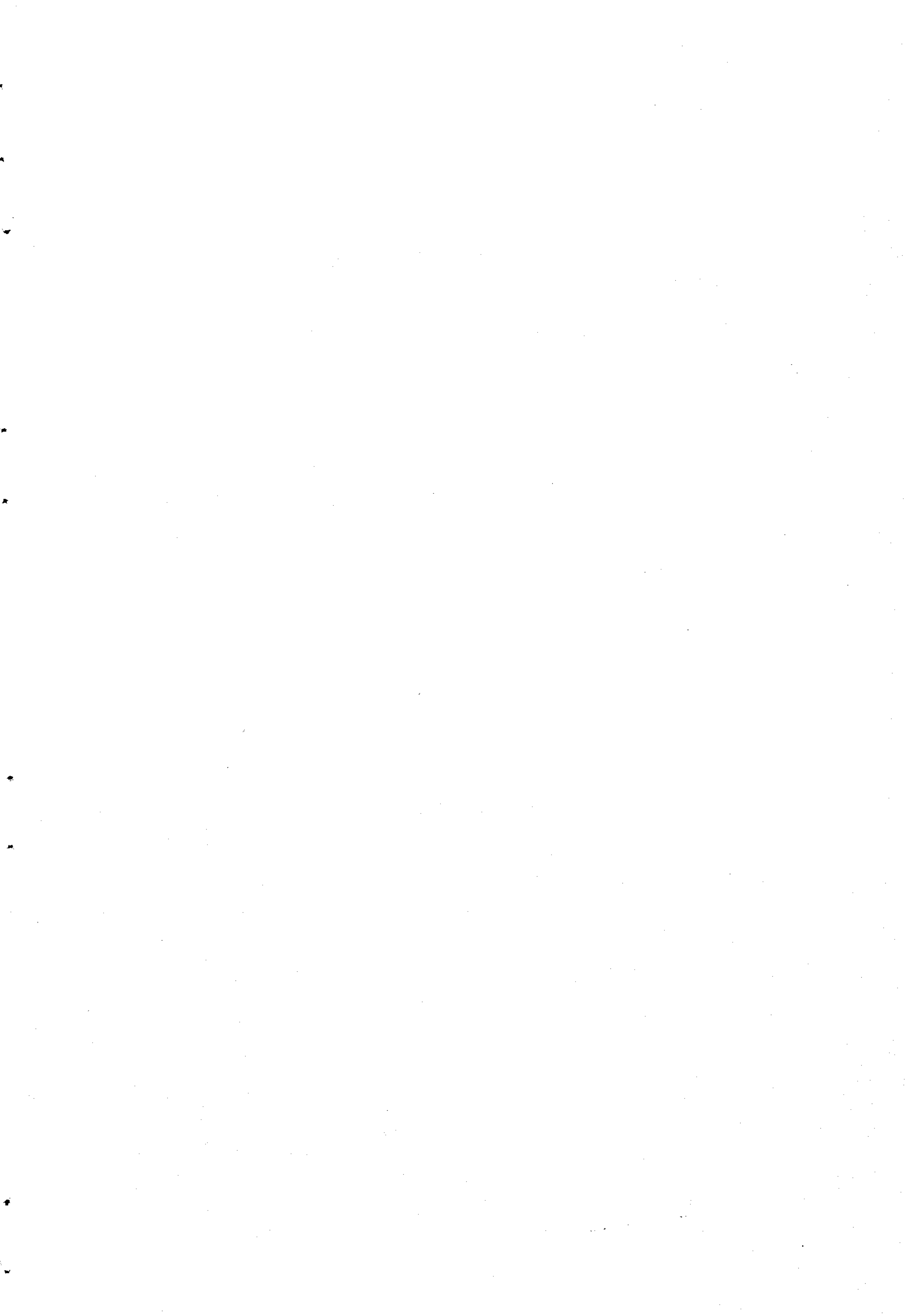
(٢) انظر: فصول في علم الجمال. برجاوي ص ٣١-٣٢.

إن الحكم الجمالي سيظل حكماً فردياً، ذلك أن هناك عوامل كثيرة تدخل في عملية الحكم، ترجع إلى شخصية المتأمل، سواء أكان هذا المتأمل فناناً أم عالماً أم ناقداً.. أم مشاهداً عادياً.

فالذوق، والثقافة الفنية، والقيم التي يهتم بها، وأهمية الموضوع بالنسبة إليه، وحالته النفسية في تلك المرحلة.. إنها عوامل كثيرة.. ومن غير المعقول أن يحصل الاتفاق عليها بين اثنين.. إذا الاختلاف في واحد منها، يعني تغيّر نتيجة المعادلة.

وتبقى المقاييس الشخصية هي المرجع..

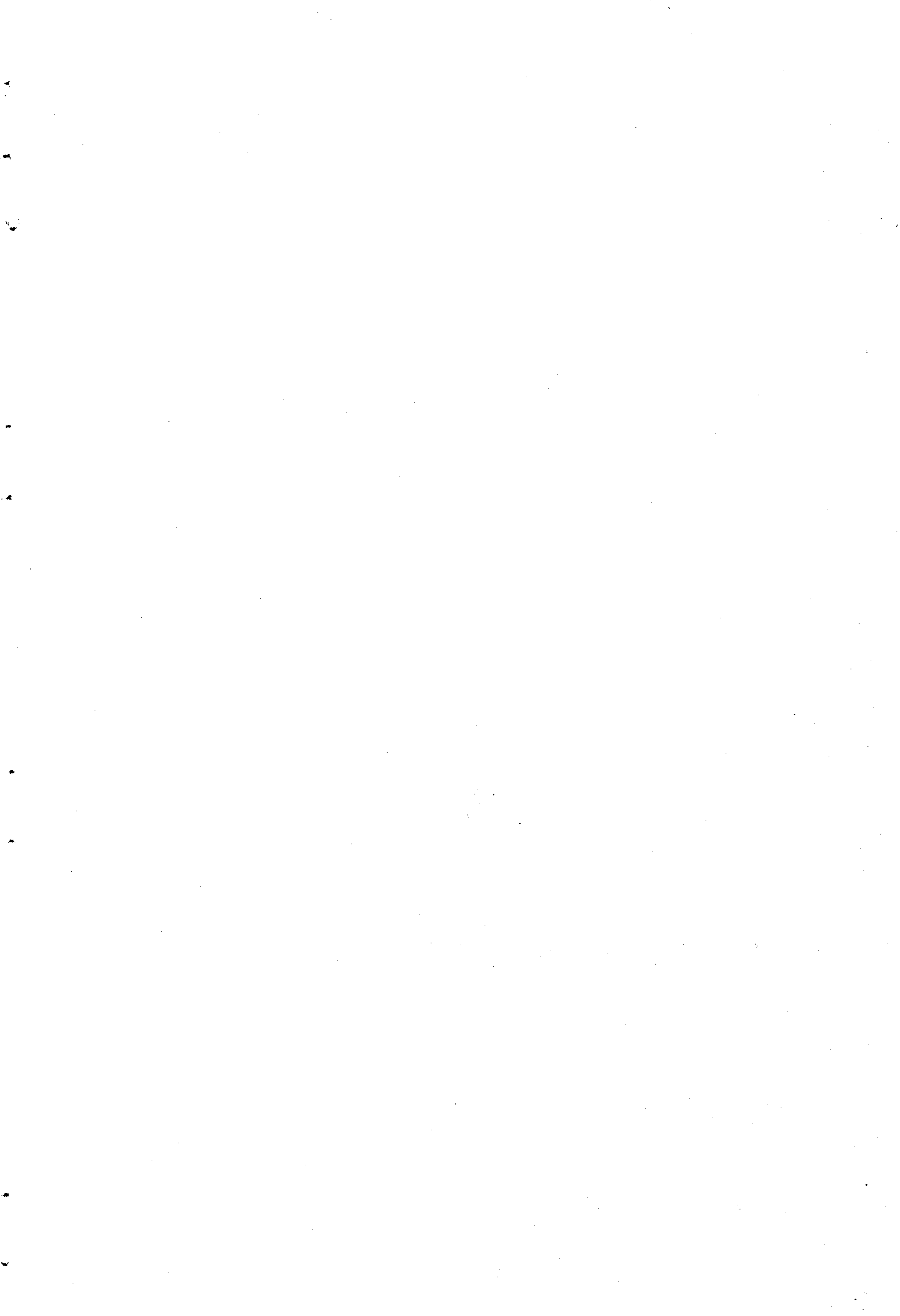




الفصل الثالث

الجمال والفلسفة

- الجمال والفلسفة .
- فلسفات بغير جمال .
  ١) الماركسية .
  ٢) الوجودية .
- تأثر الفن بالفلسفة .



الجمال والفلسفة:

إن موضوع الجمال هو «الجميل» سواء أكان مشهداً من مشاهد الطبيعة أم لوحة فنية، أم إنساناً، أم بيتاً من الشعر... بينما تتجه الفلسفة إلى البحث عن الحقيقة.

ونتساءل كيف أمكن للفلسفة أن تهيمن على البحث الجمالي وتجعله تابعاً لها، مع اختلاف الموضوع في كل منهما؟

يرى بعضهم أنه: «لما كانت الفلسفة تاريخياً تسيطر على التفكير البشري[١]، مالت إلى إقامة قواعد للفنون تنظم اتجاهاتها، وترسي مظاهرها على أسس من المنطق والعقل، رغم ما بين الفنون والفلسفة من تفاوت في الطبيعة والأسلوب... و ينشأ من جراء ذلك ما نسميه «بعلم الجمال» أو فلسفة الجمال.. وهو أمر طريف[٢]..».

وقال بعضهم: «درج المشتغلون بالدراسات الفلسفية على إدخال علم الجمال ضمن مباحثهم المعيارية فوضعوه إلى جانب «علم المنطق» و«علم الأخلاق» حتى يكتمل ثالوث العلوم المعيارية التي تدرس الحق والخير والجمال[٣]».

وقد اختلفت مواقف العلماء من هذا الأمر ــ ربط الجمال بالفلسفة ــ ونستطيع أن نتبين من خلال ذلك الاتجاهات التالية:

(١) الاتجاه الأول: وقد تشكل من مجموعة من الروافد.

فقد ذهب بعضهم إلى أن «علم الجمال» هو أحد موضوعات الفلسفة.

---

(١) إن الفلسفة سيطرت على الفكر الذي لم يهتد بهدي الله تعالى، ولذلك ظل أتباعها في بعد عن الحقيقة التي يهيمون بها و يبحثون عنها.

(٢) فصول في علم الجمال. برجاوي ص ٧١-٧٢.

(٣) فلسفة الفن في الفكر المعاصر. زكريا ابراهيم ص ٣٥٠.

وذهب بعضهم إلى أنه في طريقه إلى ذلك.

ورأى فريق ثالث: أنه لا بد من دعم بحوث الجمال بالفلسفة لنستطيع أن نجعل منها علماً.

قال «بوزانكيت»[1]: إن علم الجمال هو فرع من الفلسفة يوجد من أجل المعرفة لا كدليل للعمل[2].

وقال هيغل: «إن مفهوم الجمال والفن ــ في نظرنا ــ مسلمة تنبع من نسق الفلسفة[3]».

وتوقع «اتيين سوريو»[4] أن يتحول علم الجمال في المستقبل إلى نظرية فلسفية في المعرفة[5].

وقال الديدي: «مبحث الجمال هو أحد مباحث الفلسفة، أو هو العامل المشترك الأعظم بين الفن والفلسفة[6]».

وقال أبوريان: «... الشواهد جميعاً تؤيد ما ذهبنا إليه من استحالة قيام عام للجمال لا يستند إلى إطار فلسفي واضح المعالم[7]».

ويمكن أن نلحق بهذا الاتجاه «برجسون»[8] الذي خلط بين الفلسفة وعلم الجمال أحياناً، وجمعها في إطار واحد. فهو يرى أن هدفها واحد، وأن طريقها

---

(١) برنارد بوزانكيت (١٨٤٨-١٩٢٣) فيلسوف انكليزي.
(٢) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ٢٢.
(٣) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ١٣.
(٤) اتيين سوريو: عالم جمال فرنسي معاصر، وهو استاذ علم الجمال بالسوربون.
(٥) فلسفة الجمال. أبو ريان ص ٥٤.
(٦) علم الجمال. الديدي ص ١٥.
(٧) فلسفة الجمال. أبو ريان ص ٥٠.
(٨) هنري برجسون (١٨٥٩-١٩٤١) عالم وفيلسوف فرنسي. كتب في علم الفيزياء وعلم الحياة وعلم النفس وعلم ما بعد الطبيعة. ومن كتبه (منبعا الأخلاق والدين) وهو ثنائي في فلسفته. وكان يخلط بين الفن والفلسفة.

واحدة[1]. وهكذا ألحق الفن بالنظر المحض والتأمل الخالص والحدس الفلسفي[2].

(٢) الاتجاه الثاني: ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الفن (الجمال) مصدر الفلسفة ومدخلها.

يرى «شلنج»[3] أن الفن ليس أمراً غريباً عن الفلسفة، وليس آلة لها، بل هو في حقيقة الأمر مصدرها و ينبوعها الأول، فلقد انبثقت التأملات الفلسفية المبكرة عند اليونان من روائع الشعر وإبداع الفنانين، ولا شك أن الإلياذة والأوديسة[4] تعدان خير دليل على هذا الرأي... ولا بد في نظره من أن تعود الفلسفة فتقطع مسيرتها الأولى، أي أن تصدر في عصرنا هذا عن الفن وترتبط به وتتفاعل معه[5].

ومن أنصار هذا الاتجاه «كروتشه» الذي يرى أن الفن هو أبسط صورة من صور المعرفة البشرية، لأنه بمجرد ما يتفلسف الإنسان فإنه سرعان ما يتجه نحو القيمة الجمالية، محاولاً الكشف عن مدلولها، وكأن فلسفة الفن هي المدخل الضروري إلى كل فلسفة[6].

(٣) الاتجاه الثالث: وذهب القائلون به إلى ضرورة إبعاد الفلسفة عن موضوعات الجمال. ومن هؤلاء «جان برتليمي» الذي عد «برجسون» مسؤولاً عن كل الأخطاء التي ترتبت على الخلط بين الفلسفة وعلم الجمال. حيث قال: إن الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه برجسون الذي تتفرع منه الأخطاء الأخرى هو أنه يخلط بين الفلسفة وعلم الجمال أحياناً[7].

---

(١) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٥٤٢.

(٢) مشكلة الفن. زكريا ابراهيم ص ١٩٠.

(٣) شليخ (١٧٧٥-١٨٥٤) فيلسوف ألماني من أتباع الكانتيه، ساعد على قيام الحركة الرومانسية.

(٤) الإلياذة والأوديسة: هما ملحمتان شعريتان لـ«هوميروس» من اليونان تتكون كل منهما من ٢٤ نشيداً ترويان أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطرواديين.

(٥) فلسفة الجمال. أبوريان ص ٣٧.

(٦) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٣٧٠.

(٧) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٥٤٢.

ويبرر اتجاهه الذي ذهب إليه بقوله: «هناك من يلجؤون إلى الفلاسفة أولاً – في التعرف على الجمال – وعلم الجمال على ما يلوح هو مجالهم، وكثيرون من عظمائهم قد كرسوا له بعض مؤلفاتهم، غير أن خبرتهم الفنية ليست للأسف دائماً على نفس المستوى من عبقريتهم الفلسفية...

لذا نجد أن الفنان لا يعرف دائماً نفسه من خلال آرائهم، يقول المسيو «جيلسون»(١): يلوح أنه عندما يتحدث فيلسوف عن فن التصوير، ما من مصور يفهم ما يقول، وعلى أي حال فإن ما يسميه الفلاسفة تصويراً هو شيء آخر غير ذلك الذي يرمز إليه المصورون بهذا الاسم لهذه الأسباب سوف نقف بعيدين عن الفلاسفة(٢).

وإنه لما يؤيد هذا الاتجاه الأخير، ما أثرت به الفلسفة على علم الجمال من عدم الوضوح.. الذي أدى إلى التيه حتى بالنسبة للفنانين أنفسهم.

يقول إليوت – وهو من كبار نقاد العصر –: لقد قرأت بعضاً من فلسفة هيغل وفيشته، كما قرأت كذلك لهارتلي ولكنني نسيت كل ما قرأته، أما عن شيلنج فأنا أجهل كل ما كتبه على الرغم أنه من هؤلاء الكتاب الكثيرين الذين إذا تركتهم بغير قراءة فترة طويلة قلّت لديك الرغبة في العودة إليهم. ولعل هذا أن يكون السبب في أنني عجزت كلية عن فهم هذا النص (يقصد تعريف كولردج للخيال)(٣).

وممن تاه من جراء هيمنة الفلسفة الأخوان الفنانان: إدمون وجول جونكور(٤) حيث قالا في صدد حيرتهما من مفهوم الجمال بعد أن هيمنت الفلسفة عليه:
«الجمال؟ آه.. نعم.. الجمال، من أين يأتي؟ وما الذي يجعله يعيش؟ وما عنصره؟ أفلاطون، أفلوطين... صفة الفكرة تعبر عنها صورة رمزية؟ كما ندركه مختلطاً أم تجميع ارستطالي لأفكار النظام والمقدار، ما أدراني؟

---

(١) فيلسوف فرنسي ولد عام (١٨٨٤) في باريس، مؤلف كتاب (فلسفة العصور الوسطى).
(٢) المصدر السابق ص ١٢-١٣.
(٣) فلسفة الجمال في الفكر المعاصر. العشماوي ص ٨٤.
(٤) أدمون (١٨٢٢-١٨٩٦) وأخوه جول (١٨٣٠-١٨٧٠) من أبناء أسرة جونكور الفرنسية، عرفا بحبهما للآداب والفنون واشتغلا بالنقد.

الجمال؟

أهو المثل الأعلى؟ أهو الحقيقة مستنبطة من مجال الخاص والعابر؟ أم اندماج وتناسق بين مبدئي الوجود: المثال والصورة؟ بين الماهية والحقيقة؟ بين المنظور وغير المنظور؟

أهو في الحقيقة؟ لكن أي حقيقة؟ حقيقة محاكاة جمال الكائنات والأجسام؟ لكن أي محاكاة؟ محاكاة بالاختيار أم بالتسامي؟ المحاكاة دون تخصيص فردي... حيث الإنسان ليس بإنسان؟ أم المحاكاة طبقاً لنموذج جمعي للكمال؟

أهو جمال أرفع من الجمال الواقعي؟

أهو طبيعة ثانية تضفي عليه صفة الخلود؟

ماذا؟ الجميل؟

أهو موضوعية أم لا نهائية ذاتية؟

أهو التعبيرية التي قال عنها جوته؟

أهو الجانب الفردي الطبيعي الذي تميز به هيرش أولينج؟

أهو كلمة بيكون التي قال فيها إن الإنسان يضيف إلى الطبيعة شيئاً؟ أم هو الطبيعة كما تراها الشخصية فهي ذاتية الإحساس؟

أهو واحد أم متعدد؟ مطلق أم منوع؟

الجميل أقصى حدود اللا محدود الذي لا يعرف... قطرة في محيط الله ــ كما قال لايبنتز ــ وهو في نظر المدرسة الساخرة خلق مضاد للخليقة يعيد الإنسان من خلاله بناء العالم وإحلال شيء أكثر بشرية محل الخلق الإلهي بحيث يصبح أكثر انطباقاً والآنية المعنية، فهو معركة ضد الله؟

قال البعض: إن الجميل شقيق الخير، باعتبار أنه يدخل في عملية التكيف بالخير، وبصفته إعداداً لعلم الأخلاق، وهذا وفاق رأي فيخته: إن الجميل نافع.

آه من فلسفة الجمال ونظريات علم الجمال كلها... إن هي إلا ألفاظ[1]».

وعلى الرغم من الاتجاه الصحيح الذي سجله الرأي الأخير، من ضرورة البعد عن الفلسفة فإنا نلاحظ إنضواء علم الجمال تحت الفلسفة، ويكفي للدلالة على

(١) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٦-٧.

ذلك أن تلقي نظرة سريعة على كتب «علم الجمال» التي هي في متناول الأيدي، حيث تجد نفسك في خضم الفلسفة تتعامل مع علمائها بدءاً من أفلاطون وأرسطو.. وقد تقرأ كتاباً بكامله تحت عنوان الجمال فلا تجد فيه شيئاً من الجمال! حتى ولا جمال الترتيب والتنسيق بين موضوعاته. وهكذا يضيع الجمال بين عبارات الفلسفة وسفسطة القول...

وقد تركت الفلسفة آثارها واضحة في موضوعات الجمال، وبغض النظر عن كونها آثاراً إيجابية أو سلبية. فإننا بحاجة إلى وقفة يسيرة على أهم هذه الآثار.

فلسفات بغير جمال:

بعد أن عدّ علم الجمال فصلا من فصول الفلسفة، كان على كل فيلسوف ــ أو فلسفة ــ أن يدلي برأيه في الجمال والفن ليسجل ذلك الفصل، وإذا لم يفعل ذلك.. فإن هناك من المتبرعين من يقوم بذلك تطوعاً دون مقابل احتراماً للفلسفة وتقرباً إليها.

ليس هذا فحسب، بل حتى ولو كان للفيلسوف رأي مضاد للفن فلا بدّ أن يفلسف هذا الرأي وتوجد له المبررات، ولعل بعض هذا هو ما حصل بالنسبة لأفلاطون، الذي نستطيع أن نقول إنه «الافتتاحية» للكثير من كتب الجمال، لأنه كذلك بالنسبة لكتب الفلسفة.

وأفلاطون باعتباره أحد عمالقة الفلسفة اليونانية فليس من المناسب أن يخلو فكره من الحديث عن الجمال أو الفن.

ولكن موقفه من الفن موقف سلبي، «فهو يرى ضرورة طرد الشعراء والفنانين من المدينة، لأنه يرى أن الفن يقلد الطبيعة، التي هي مجموعة أشباح وظلال كاذبة للعالم المعقول، فعمل الفنان محاكاة للشيء المقلد.. أي محاكاة المحاكاة... والفنانون من جهة أخرى يصورون الرغبات الدنيئة ويحببونها إلى نفوس الناس.. فتشيع الرذيلة[1]..».

---

(١) فلسفة الجمال، أبوريان ص ١١.

فعلاقة الفن عنده بالواقع علاقة جدلية، علاقة رفض، وهي من جهة ثانية علاقة غير إنسانية لا دخل للفنان فيها[1].

و يعلق برتليمي على موقف أفلاطون فيقول: «هكذا نرى أن كتاب (الجمهورية) لأفلاطون يتعرض لنقد الفنون الجميلة، و يتركز هذا النقد حول فكرة التقليد، وهي وجهة نظر ضعيفة لرجل سياسي وعالم أخلاق لم يتبيّنها أفلاطون في دقة كافية[2]».

ومع هذا الموقف الواضح من الفن الجميل بالنسبة لأفلاطون فقد سودت بشأنه صفحات كثيرة في كتب علم الجمال.. وأضافوه إلى علماء هذا الفن بأثر رجعي.. كما أنهم أرادوه «ملاحاً بالإضافة إلى كونه حذّاء[3]».

وإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة لأفلاطون ــ وهو في قديم الزمان ــ فمن البدهي أن تلزم الفلسفات المعاصرة باتخاذ نظرة جمالية، ولو كان ذلك بالإكراه. ونكتفي بالحديث في هذا الصدد: عن الماركسية والوجودية.

(١) الماركسية والجمال:

الماركسية نظرية اقتصادية تقوم على أساس من الفلسفة المادية الجدلية، وعلى التفسير المادي للتاريخ الذي هو.. الصراع بين الطبقات.

و يلاحظ من هذا أن النظرية تستند إلى أساسين:

المادية المنطقية.

المادية التاريخية.

أما المادية المنطقية فتعني أن الحياة كلها مادة، والمادة وحدها هي الحقيقة الموضوعية، كما تبدو للحواس، والمادة مقترنة بالحركة لا تنفك عنها.. فهي في حالة

---

(١) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ٥٧.

(٢) برتليمي ص ٢٢١.

(٣) جاء في كتاب الجمهورية لأفلاطون: «فمن خصائص دولتنا وحدها أن الحذاء فيها حذاء فحسب، وليس ملاحاً في الوقت نفسه...» عن كتاب دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ٥٢. وهكذا أراد نفسه فيلسوفاً فأرادوا أن يكون عالم جمال أيضاً.

حركة دائمة وتطور مستمر، والمادة لا نهائية وغير قابلة للنفاد[1]. وقد لخص ماركس هذا بقوله: لا إله والحياة مادة.

وأما المادية التاريخية فهي منبثقة من هذا التصور للمادة وحركتها، فالتاريخ الإنساني حركة تعبر عن التطور العام الكلي للمجتمع، والروابط بين أفراده هي الروابط المادية للإنتاج... وهكذا أضحى التاريخ صراعاً بين الطبقات، وأحداثه أعمال بشرية قامت بدوافع مادية بحتة.

وهكذا تكون الماركسية ـ بتفسيرها المادي للتاريخ ـ قد هبطت بالإنسان إلى مستوى الحيوان وُجردته من القيم والفضائل. وأضحى العقل مجرد مادة تعكس الظواهر الخارجية، والروح ليست جوهراً مستقلا وإنما هي من نتاج المادة.

ورجع الإنسان القهقرى، فلم تعد مطالبه في الحياة سوى ما حدده ماركس من: الغذاء والسكن والإشباع الجنسي. وفي سبيل الوصول إلى هذه المطالب لا بد من الصراع.. والأخلاق والقيم لا وجود لها.. أو لنقل: إن لها مفاهيم جديدة، كما قال ستالين: الأخلاق الصالحة في نظرنا تلك التي تيسر القضاء على النظام القديم، وهي التي تدعم النظام الشيوعي ولا شيء غير هذا يمكن أن يسمى أخلاقاً فاضلة.

ولتحقيق قيام الشيوعية ـ كما يقول لينين ـ يجب علينا أن نتوسل بكل أنواع الحيل والمناورات والوسائل غير القانونية لتحقيق أهدافنا.

و ينتهي دور الأسرة بقيام الشيوعية ـ كما قال ستالين ـ: ما دمنا ننكر الأديان فإننا لا نستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بأن للاسرة قداسة، فكل القداسات زائفة.

والعنف هو الذي بموجبه تقوم سلطة الدولة ـ كما يقول ستالين نقلاً عن لينين ـ: إن دكتاتورية البروليتاريا هي سيادة البروليتاريا على البروجولزية سيادة لا يحدها قانون، وهي تستند إلى العنف...

---

(١) وهذا يعني رفض كل العوامل الغيبية التي تؤمن بها الأديان، واعتبار المادة الفاعل المتحرك الوحيد في هذه الحياة ـ كما يقول الاستاذ فتحي يكن ـ.

والمقصلة ضرورية لإلغاء الملكية الخاصة، كما يرى مؤسس المذهب ماركس[1].

هذه هي الخطوط العريضة للنظرية الماركسية، كان لا بد من المرور بها لنستطيع التعرف على مواطن الجمال.. أو بتعبير آخر للتعرف على النظرة الجمالية الماركسية؟؟؟!!!

ومن الواضح منذ البدء أن هذا المذهب لا يمكن أن يكون للجمال فيه مكان، لا لأنه لا يتلاءم معه، بل لأنه بطبيعته يأبى «الجمال» و يرفضه.

وسواء أقلنا إن تذوق الجمال هو بعض أعمال الروح وأشواقها، أم قلنا هو بعض أعمال العقل ومنعكساته.. فإن هذا أو ذاك لا وجود له في قاموس الماركسية ــ كما رأينا ــ إلا باعتباره صدى للمادة..

ولسنا في حاجة للذهاب بعيداً لحشد البراهين على ذلك وقد صرح به مؤسس المذهب ــ ماركس ــ حيث «يرى أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع، وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة، والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي[2]».

وعلى الرغم من صراحة ماركس في أن الفنون الجميلة.. عكس النظام الماركسي فإن الأتباع لم يقبلوا أن تخلو فلسفة سيدهم من هذا الجانب المهم، مسايرة للمذاهب الأخرى ومساواة لها. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فقد ذهب «كريستو فركودو يل» إلى القول بأن الثقافة البروجوازية عاجزة عن إنتاج علم الجمال للسبب عينه الذي يجعل معظم منتجاتها الاجتماعية غير جميلة[3]. وإذا علمنا أن البروجوازية ــ عنده ــ تعني كل ما ليس ماركسياً، تبينا أن الجمال وعلمه أصبح قاصراً على الماركسية، حسب رأيه؟؟

وإذا تركنا هذا الاتجاه القائم على التعصب الأعمى، وعدنا إلى الأتباع الآخرين الذين يقرون بجماليات المذاهب الأخرى، و يفتشون ــ في الوقت

---

(١) انظر «الكشاف الفريد» تأليف خالد محمد علي الحاج ١/٤٥٥ وما بعدها.

(٢) ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين ص ٢٠٨.

(٣) علم الجمال في الفلسفة المعاصرة ص ٦٣.

نفسه ــ عن جماليات يمكن تزيين مذهبهم بها... استطعنا أن نتوقف عند الفيلسوف الماركسي الكبير «روجيه جارودي»[1] الذي حاول بموضوعية أن يحدد موضوع علم الجمال الماركيسي فقال: «هذه الجدلية المعقدة في علاقات العمل الإبداعي بالواقع وبالحياة هي الموضوع الأساسي لعلم الجمال الماركسي[2]». وهكذا يبين أن ميدان هذا العلم هو تلك «الجدلية المعقدة».

وإذا كان جارودي قد عثر على الأرض التي يقيم عليها البناء، فهو يعترف بقلة تلك المواد التي يقام بها البناء، وأنها من القلّة بحيث لا يمكن الاعتماد عليها للنهوض به. وفي ذلك يقول «إن صياغة فلسفة جمالية ليست ترفاً نافلاً لدى الماركسية، وهي مع ذلك مهمة عسيرة، لأن مؤسسي الماركسية: ماركس وانجلز، لم يقوما بصياغة منهجية للمبادىء الجمالية، وكل ما يمكن العثور عليه في كتاباتها، أحكام خاصة على هذا الأثر الفني أو ذلك، تتخللها بعض الملاحظات المتصلة بالطريقة، وهذه عناصر ثمينة ولكن وضعها الواحد إلى الآخر لا يكفي لتأليف فلسفة ماركسية الجمال[3]».

ومع هذا فقد مضى الماركسيون ــ على الرغم من وضوح هذه الحقائق ــ يحاولون إيجاد جماليات ماركسية بالقوة على طريقتهم في كل شيء...

... وظهر «علم الجمال الماركسي».

فما هي خصائصه؟

---

(١) فيلسوف فرنسي ماركسي، ظل ردحاً من الزمن عضواً بارزاً في الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم عضواً بارزاً في المكتب السياسي، و يعد واحداً من أبرز فلاسفة الماركسية في هذا القرن. ومن مؤلفاته: (من الحرمان إلى الحوار)، و(البديل) و(من أكون في اعتقادكم) و(زوايا نظر إلى الإنسان) و(ماركسية القرن العشرين). وفي كتابه هذا يعبر بجلاء عن موقفه النقدي للماركسية.

قدم نفسه مرشحاً لرئاسة جمهورية فرنسا خلال الانتخابات الأخيرة. أعلن إسلامه في ١١ رمضان سنة ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) وتسمى باسم: رجا جارودي. (باختصار عن مجلة الدعوة السعودية. العدد ٨٦٥، ٨ محرم ١٤٠٣).

(٢) علم الجمال في الفلسفة المعاصرة. مجاهد ص ٦٣، نقلاً عن كتاب (واقعية بلا ضفاف) ص ٢٣١ لجارودي.

(٣) المصدر السابق ص ٦٦، نقلاً عن كتاب (ماركسية القرن العشرين) ص ٢١٨ لجارودي.

يقول «تيروتيوف»: إن علم الجمال الماركسي، هو بالدرجة الأولى علم لفن جديد، للفن الاشتراكي[1].

إذن هو علم «لفن جديد» هذا الفن ليس هو الذي تعارف عليه الإنسان وأنشأه ونماه وطوره، بل هو خاص «بالفن الاشتراكي» حيث تغيب إنسانية الإنسان وتبقى ماديته.

وطبقاً لهذه المواصفات الخاصة، كان لا بد من مقاييس «خاصة» كذلك لتحديد قيمة الجمال.. أو قيمة العمل الفني..

وبموجب المقياس الماركسي «فإنه لا يحكم على العمل الفني من خلال قيمته الجمالية، بل من جهة علاقته بتشجيع الثورة[2]». وهكذا أصبح العمل الفني يكسب قيمته لا من ذاته بل من خارجه، وأضحى الجمال كذلك مرتبطاً بالثورة فما كان بعينها جميل فهو الجميل؟!

وهكذا يخضع الإنتاج الفني لسلطة المجتمع، و يصبح الإبداع الفني ملازماً لها، وتفقد التجربة الذاتية قيمتها إذا نظر إليها بعيداً عنه، و يتحول «علم الجمال» إلى علم جديد يعرف «بعلم الاجتماع الجمالي[3]».

تلك نظرة سريعة على المحاولة التي قامت لإلباس الماركسية ثوب الجمال، ولكن شفافية هذا الثوب لم تستطع إخفاء غلظ المادة وقسوتها، وتمزق الثوب بعامل خشونة المادة قبل أن يسدل على الجسم المادي...

وكانت النتيجة أن «تمركس الجمال» و«تمركست الفنون» ولنترك الحديث للأستاذ محمد قطب يبين لنا الآثار التي ترتبت على ذلك. حيث يقول: «لقد كان التفسير المادي للتاريخ محنة الفكر الأوربي في العصر الحديث.. وكانت النتيجة أن الفنون التي التزمت بهذا التفسير أصبحت خالية من الوجود الحقيقي للإنسان، لا عواطفه، ولا انفعالاته، ولا اهتماماته، ولا سبحات روحه، ولا تأملات فكره،

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٣.

(٢) انظر: مقدمة في علم الجمال. د. أميرة حلمي مطر ص ١١٤.

(٣) انظر: فصول في علم الجمال. برجاوي ص ١٧٤.

ولا حتى نوازع جسده وأشواقه لها حساب في ذلك الفن، فيما عدا هذا الصراع الطبقي الاقتصادي[1]...

هذا وفي نهاية حديثنا عن الشيوعية والجمال، لا بد لنا من ذكر رأي بعض المفكرين الروس الذين حملوا على الفن باسم «الثورة» ورأوا أنه لا بد من انحلال القيم الجمالية لصالح القيم العملية. وهذا ما عبر عنه «بيسارف» حينما قال: إنني لأوثر ألف مرة أن أكون إسكافياً روسياً عن أن أكون رافائيلاً روسياً» ومعنى هذا أن زوجاً من الأحذية ــ في نظر هذا المفكر ــ أنفع من شكسبير نفسه[2].

وليس هذا رأياً فردياً، بل إن الشاعر الروسي الكبير «تكراسوف» يؤكد هذا إذ «يقرر بصراحة أنه يفضل قطعة من الجبن على الشاعر الروسي «بوشكين»[3] كلها[4]».

إن هذا الاتجاه هو الذي يمثل موقف الشيوعية بصراحة من الجمال، إنه لا مكان له في فلسفتها ولا وجود له في قاموسها. ولعل تعليق «ألبير كامي» على ذلك يمثل بعض الحقيقة، إذ يقول: إن من طبيعة البؤس أن ينصرف عن مناظر السعادة والنعيم، لأن أمثال هذه المشاهد لا تولد في نفسه سوى مشاعر الحزن والشقاء[5].

إن المفكرين الشيوعيين الذين تمثلوا الفكر الشيوعي وعاشوه. هم الذي نادوا بضرورة استبعاد الجمال والفن، فكانوا واقعيين صادقين مع طبيعة ثورتهم وفكرهم وجدليتهم.

(٢) الوجودية والجمال:

الوجودية هي المذهب الثاني الذي يفتش عن ملصقات جمالية يستر بها بناءه الهش، ولونه الباهت، ورائحته الكريهة.

---

(١) منهج الفن الإسلامي. فصل: العواطف البشرية.

(٢) فلسفة الفن. د. زكريا ابراهيم ص ٢٠٨.

(٣) بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) يعدونه أنظم الشعراء الروس، ولد بموسكو.

(٤)(٥) المصدر السابق ص ٢٠٨.

وهي مذهب اتجه إلى إبراز قيمة الوجود الفردي، وهذا يعني أن يهتدي الإنسان إلى وجوده بنفسه، وأن يكون مستقلاً بنفسه عن الآخرين، وأن يسبر غور وجوده[١].

والوجودية فلسفة فردية، لا تقيم قواعد، وتثور ضد القوانين حتى تبقى على حرية الفرد التي تنادي بها[٢]. وهذا ما جعل منها مذهباً فلسفياً فضفاضاً ينضوي تحته كثيرون، منهم المؤمن بالنصرانية ومنهم الملحد الذي لا يؤمن بدين[٣].

ومن الواضح أن الإلحاد هو الذي سيطر أخيراً على ساحة الوجودية حتى باتت كلمة «الوجودية» مرادفة «الإلحاد»، ولعل السبب في ذلك أنها لم تصبح نظرية فلسفية في متناول الجميع إلا بواسطة «سارتر» و«ألبير كامي» وهما من الملحدين. وقد أكدت هذا الاتجاه «سيمون دي بوفوار»[٤] بإلحادها الذي عبرت عنه بقولها: «لم أعتقد إطلاقاً في سمة القداسة الخاصة بالأدب، كان الله قد مات وأنا في الرابعة عشرة، ولم يحل شيء محله[٥]»؟!

ولما لم نكن أمام رأي موحد بالنسبة لمفهوم الوجودية فيحسن بنا أن نستعرض بعض تعاريفها على لسان صانعيها ومعتنقيها علّنا نستوضح الخطوط العريضة لهذه الفلسفة.

كان المعنى السابق ــ الذي ذكرناه ــ هو ما يراه «كير كجارد»[٦].

---

(١) المذاهب المعاصرة. عبد الرحمن عميرة ص ٢٠٩.

(٢) علم الجمال في الفلسفة المعاصرة. مجاهد عبد المنعم مجاهد ص ٩.

(٣) من المؤمنين: كير لجارد، وكارل يسيرز وجبرائيل مارسيل.. ومن الملحدين: هيدجر، وجان بول سارتر، وألبير كامي، وسيمون دي بوفوار. (انظر فلسفة الجمال في الفكر المعاصر. د. محمد زكي العشماوي ص ١٩٨) والإيمان ــ كما يراه كير كجارد ــ يأتي عن طريق التأمل الداخلي وليس عن طريق تعاليم الكتب المقدسة وأداء الصلوات.

(٤) كاتبة فرنسية وجودية، كانت على صلة وثيقة بسارتر، حتى أطلق عليها اسم: عذراء سارتر من كتبها: (قوة الأشياء) و(الوجودية وحكمة الشعوب).

(٥) علم الجمال. عبد الفتاح الديدي ص ١٦٢.

(٦) سورين كير لجارد (١٨١٣-١٨٥٥). راهب وفيلسوف دنماركي كتب بحوثاً دينية خرج بها على المألوف فاختلف مع الكنيسة. كان يعتقد أنه ينبغي للإنسان أن يلتمس المعرفة الحقة من داخل نفسه. وأن المثقف إنما يعاني بسبب التعارض بين الوجود الفردي الموقت من جهة والحقيقة الأبدية من جهة أخرى.. (الموسوعة العربية الميسرة).

و يرى «يسبرز»[1] أحد أتباعه: أن كلمة (وجود) هي إحدى مرادفات كلمة (واقع)، بيد أنها قد اتخذت وجهاً جديداً بفضل التوكيد الذي أكده عليها «كيركجارد» فأصبحت تدل على ما أنا إياه بصورة أساسية في نظر ذاتي[2]».

وهي عند سارتر: طاعة النفس. والوجودي في مذهبه هو الذي لا يقبل توجيها يأتي إليه من الخارج. و يشير إلى ذلك بقوله: إن من لا يستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان[3].

و يلاحظ من تلك المفاهيم التركيز على «الإنسان ووجوده» وتبرز من خلال ذلك الفردية والنفعية والأنانية. وإذا أردنا جلاء الصورة بأوضح من هذا كان علينا أن نحدد الخطوط العريضة لهذه الفلسفه حسب ما يراه معتنقوها. ومن ذلك:

١ ـ الاهتمام بالحاضر وعدم الاكتراث بالمستقبل:

وتلك نتيجة للاهتمام بالوجود الفردي وتأكيده في مقابل الوجود الكوني العام.

فسارتر لا يجد أي متعة في أن يصبح مادة من مواد التاريخ، حسبه أنه يحقق رسالته ككاتب بين أبناء عصره[4].. و بالمعنى نفسه تقول سيمون دي بوفوار: .. لذلك تمنيت أن يقرأ مؤلفاتي كثير من الناس أثناء حياتي وأن يقدروني حق قدري وأن يحبوني، أما الأجيال القادمة فلم أكن أعبأ بها أو كدت ألا أعبأ بها[5].

٢ ـ الاهتمام الكبير بلذّات الجسد:

فذلك هو المطلب المهم الذي ينبغي السعي له والحصول عليه وفي سبيل ذلك لا بد من أن تداس الأخلاق والقيم.. يقول سارتر: إن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذاته إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته، بحيث يفعل ما يشاء و يترك ما يريد ولا يبالي بالعرف أو الدين[6].

---

(١) كارل يسيرز (١٨٨٣-؟) فيلسوف ألماني.

(٢) فلسفة الجمال / العشماوي ص ١٩٧.

(٣) المذاهب المعاصرة / عميرة ص ٢١١.

(٤) (٥) علم الجمال / الديدي ص ١٦٣.

(٦) المذاهب المعاصرة / عميرة ص ٢١٠.

وتقول بوفوار: إن من طبيعتها أن تجنح إلى لذائذ الجسد[1].

٣ ــ فلسفة عدمية:

والوجودية فلسفة عدمية.. «فالهرب» و«الانسحاب» مصطلحات أساسية فيها، يقول سارتر: «الوعي لكي يكون قادراً على التخيل يجب أن يكون قادراً على الهرب من هذا العالم بطبيعته نفسها، يجب أن يكون قادراً بجهوده على الانسحاب من العالم أي يجب أن يكون حراً[2].

و يشجع «كامي» على الإنسحاب من الحياة نفسها وذلك بالانتحار يقول: «... و بانعدام أي سبب عميق للحياة، و بالطابع الذي لا معنى له لهذا السعي اليومي، و بعدم جدوى الألم والعذاب، وبالاختصار فإن الانتحار يعني بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش[3] ».

تلك لمحة يسيرة عن «الوجودية» فلسفة..

وكان على هذه الفلسفة أن توجد جمالياتها، وكان المتوقع أن يعد هذه الجماليات سارتر، يقول مجاهد: الواقع أننا لا نجد أي مؤلف فلسفي وجودي يحتوي على دراسة شاملة لنظرية جمالية وما زلنا في انتظار الدراسة الجمالية التي يعدها جان بول سارتر[4].

وأكبر الظن أن سارتر لم يفعل. وسواء أفعل أم لم يفعل فإن فلسفة الوجودية مطروحة بين الأيدي، وما قلناه عن الماركسية ينطبق عليها، فإن طبيعتها مغايرة لكل جمال. ومع هذا فسوف نعود إلى نصوص هذه الفلسفة نبحث عن مكانة الجمال فيها، أو مكانه، إن وجد؟!

إن معطيات الوجودية كلها مناقضة للقيم الجمالية، ولذلك فإن الوجوديين حينما

---

(١) علم الجمال / الديدي ص ١٧١.

(٢) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ١٣٧.

(٣) فلسفة الجمال / العشماوي ص ٢١٩.

(٤) علم الجمال في الفلسفة المعاصرة. مجاهد ص ٩. وتكرر هذا المعنى أيضاً في قول الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه فلسفة الفن ص ٢٣٠. وكلا القولين يؤكد ما قلناه قبل قليل من إلزام كل فلسفة بأن يكون لها رأي في «الجمال».

يتحدثون عن الفن يقيمون أحكامهم على ما يفرضه مذهبهم لا على ما يفرضه واقع الفن نفسه. ولنترك سارتر يحدثنا عن الجمال كما يراه:

«الجمال قيمة لا تطبق إلا على ما هو تخيل والتي تعني نفي العالم في بنائه الجوهري.. والقول بأننا نفترض نظرة جمالية للحياة هو خلط دائم بين الواقعي والتخيل».

«الموضوع الجمالي هو شيء غير واقعي».

«الجمال هو تناقض محجب».

«إن الموضوع الجمالي هو شيء غير حقيقي، إن ما يحدث هو أن الموضوع الجمالي مركب ومستوعب عن طريق وعي تخيلي بصفته كشيء غير حقيقي».

«يمكننا دفعة واحدة أن نصوغ القانون: إن العمل الفني هو لا واقع[١]».

«إن الموضوع الجمالي هو موضوع متخيل تلعب الإرادة الواعية دوراً فيه[٢]».

والتخيل عند سارتر فعل، وعلى هذا يكون فعل التخيل عكس فعل الواقع إنه في آن واحد يشيد و يعزل و يعدم. إنه يبني و يستبعد بعض العناصر و يضفي طابع العدم على الواقع[٣] ...

وإن الفن فعل من أفعال التخيل. وبهذا كان التخيل قادراً على التقاط اللاواقعي فهو حينما يقول «الموضوع الجمالي شيء غير واقعي» فهو ينفي عن الجميل الإدراك الحسي[٤].

وهكذا أضحى الجمال فلسفة.. في عالم التخيل، والتخيل فعل ولكنه في عالم اللاواقع. فهو مدرك في هذا المجال فقط.

وإذا إنتقلنا من سارتر إلى «ألبير كامي» فإننا نجده يلتقي مع «هيدجر» حيث يرى الأول الجمال بعض نتاج «التمرد» و يراه الثاني بعض نتاج «الصراع» فالإنتاج الجمالي لا يوجد إلا في ساحات التمرد والصراع.

---

(١) علم الجمال / مجاهد ص ٣٨-٤٤.

(٢) فلسفة الجمال / العشماوي ص ٢٣٤.

(٣) دراسات في علم الجمال. مجاهد ص ١٣٧.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٨.

يرى كامي أن الإنسان يفقد الوحدة في عالمه الواقعي فيجد نفسه مضطراً إلى إبداع آخر يقيمه بديلاً لهذا العالم. والفن في جوهره هو الحركة التمردية التي يقوم بها الإنسان حينما يرفض الواقع من أجل إيجاد العالم الجديد الذي يستطيع أن يجد فيه ما ينشده من وحدة وتماسك...

ولهذا يصبح «التمرد» في حد ذاته مطلباً جمالياً(١)...

أما «هيدجر» فيرى أن العمل الفني لا بد أن يظهر على صورة عالم يخلقه الفنان و يثبت دعائمه فوق الأرض. وهذا يعني محاولة سيطرة «العالم» على «الأرض» من أجل إعادة تنظيم كل ما يحيط بها من علاقات.. وهكذا ينشب الصراع بين العالم والأرض... ولا بد للإنتاج الجمالي من أن يجيء حاملاً لآثار هذا الصراع الدامي(٢)...

وهكذا يتقاذف أساطين الوجودية «الجمال» فإذا به كرة تتداول بين التخيل والتمرد والصراع.. إنه الجمال في نظر الوجودية؟!

وقد انحسرت الوجودية الآن، ولم يعد هناك من يهتم بها، لتصبح فلسفة مرحلة من التاريخ.. ومع ذلك فما زال بعضهم يفتش لها عن جماليات!!..

تأثر الفن بالفلسفة:

إذا كانت الفلسفة قد حاولت احتواء الفن، أو علم الجمال، حتى بات من الواجب على كل فلسفة أن يكون لها رأي في هذا المجال ــ كما رأينا بالنسبة للماركسية والوجودية ــ فإنه مما لا شك فيه أن الفلسفة قد أثرت عملياً في الفن كما أثرت على الفنانين، حتى بدأ بعضهم يرسم بقلم الفيلسوف و يفكر بعقله... وتقاعدت ريشة الفنان عن العمل، وتحولت عملية الإبداع إلى قضية منطقية.

وللدلالة على ما نقول نستطيع أن نقدم اللوحة المشهورة التي رسمها «ماليفتش»(٣) والتي هي عبارة عن مربع أسود فوق خلفية بيضاء.

---

(١) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٠-٢٧١.

(٣) كازيمير ماليفتش: رسام روسي (١٨٧٨-١٩٣٥) يعد من رواد فن التجريد.

وقد هاجمه النقاد بشأنها...

فأجاب: «بأن المربع كان مليئاً بكل المشاهد المرئية المرفوضة التي لم تظهر في اللوحة، فالمربع هو الغياب التام لكل شيء، وكان هذا المربع في حالة حمل لأنه كان مفعماً بالمعاني، فهو ذروة التجريد الذاتي والحساسية الخالصة في الصحراء الجرداء [(١)]».

وبغض النظر عن نقد النقاد أو ثناء المعجبين، فإن للقارىء أن يسائل نفسه، هل هو أمام فن أم أمام فلسفة؟ وأين موقع الجمال؟ وأين ظاهرة الإبداع؟... إن الجمال لا يحتاج إلى تعليل وترجمة...

ذلك اتجاه ما كان ليوجد لولا تأثر الفنان بالفلسفة، ومع هذا شعر «ماليفتش» بأن لوحته تلك لا تستطيع الوقوف على قدميها دون أن يشفعها بذلك الشرح والبيان.

وهكذا لم يعد الجمال غاية الفن بل الغاية هي الفلسفة؟!



(١) علم الجمال / الديدي ص ١٣٢ وانظر ثناءه على هذه اللوحة ص ١٨٥ حيث يرى أنه بلغ بلا شك أقصى حدود الفن؟!

الفصل الرابع

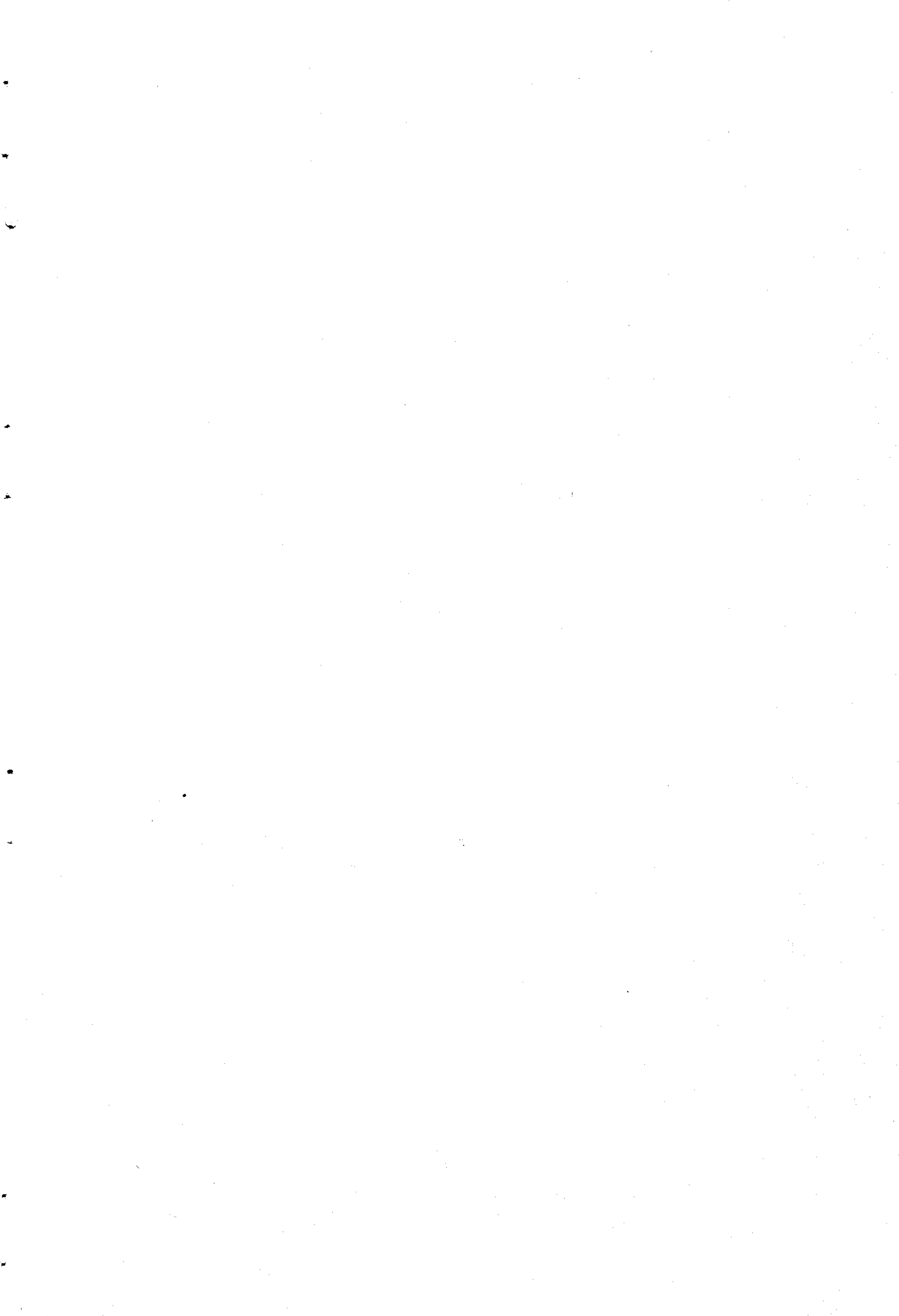
الجمال والأخلاق

□ الحق والخير والجمال.

□ الفنانون والأخلاق.

□ الفن للفن.

□ وبعد.



«الحق والخير والجمال»...

كثيراً ما تستعمل هذه الكلمات معطوفاً بعضها على بعض، ولا يُدرى متى حدث هذا الاقتران ومن هو أول واضع له.

ولكن هذه الكلمات الثلاث تمثل «القيم» التي طالما سعى لها الإنسان، حينما تصفو إنسانيته وتبرز فيه «الفطرة» بعيداً عن الغبش الذي قد يحجبها حجباً كاملاً أحياناً، وجزئياً أحياناً أخرى.

ونتساءل، هل كان هذا الاقتران نتيجة لاتصال الوشائج بين هذه القيم وتماسكها بعضها مع بعض، إذ إنها تمثل الجانب المضيء في هذه الحياة... أم إن ذلك الاقتران كان نتيجة لكونها أهدافاً يسعى إليها الإنسان، فكان اجتماعها بهذا الاعتبار، بغض النظر عن تجانسها؟

ومهما يكن من أمر، فإن الذي يهمنا في هذا الفصل، هو أن نبين مدى الارتباط بين الجمال وزميليه، وهل هي علاقة وحدة أم تجانس؟ وهل كل ما هو «خير» جميل؟ وهل «الجميل» دائماً هو الخير والحق؟

تلك مشكلة أخذت حيزاً لا بأس به من كتب علم الجمال، وغاص فيها الباحثون بين نفي وإثبات، ولكن الأمر الذي غفل عن الكثيرون أنهم لم يفرقوا بين الجمال كقيمة مطلقة وبين «الجمال الفني» الذي يبرز من خلال اللوحة أو العمل الفني.. حتى آل الأمر إلى الحديث عن علاقة الفن بالأخلاق ونسي الجمال..

وحينما نتجاوز هذه الملاحظة يمكننا القول بأن هذه القيم «الحق والخير والجمال» قيم عليا، يلتقي بعضها مع بعض باعتبارها حقائق في هذا الوجود

«فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود[١]».

نعود بعد هذا التمهيد لنتحدث عن «الجمال الفني» وعلاقته بالحق والخير...

لم يكن للفلاسفة وعلماء الجمال رأي واحد تجاه هذه القضية، وإذا حاولنا تصنيف هذه الآراء، وضم المتشابه منها إلى مثيله، أمكننا أن نجد أنفسنا أمام ثلاثة اتجاهات رئيسية:

(١) يذهب الفريق الأول ــ ومنهم هربرت في العصر الحديث ــ إلى التوحيد بين الخيرية والجمال، ويجعل علم الأخلاق فرعاً من فروع علم الجمال[٢].

ويرى «آلان»(٣) أن الخير صورة من صور الجمال، ويرى أن الفلسفة التقليدية كانت على حق حينما جعلت من القيمة الأخلاقية شكلاً من أشكال القيمة الجمالية[٤].

ويرى هؤلاء أن للفن مضموناً أخلاقياً يتمثل في التسامي بأرواحنا، ومساعدتنا على مقاومة أهوائنا، وهذا ما يسمى بنظرية «التطهير» التي قال بها أرسطو وتابعه عليها هيغل[٥].

ويمكن أن نلحق بهذا الإتجاه «سانتيانا» على الرغم من فصله بين الجمال والأخلاق، حيث يذهب إلى إقامة «أخلاق جمالية» على اعتبار أن الفضائل العليا ــ من أمثال الشرف والصدق والنظافة ــ إنما هي فضائل جمالية مبعثها نفور الضمير من القبح أو الدمامة التي ينطوي عليها كل سلوك أخلاقي لا يراعي أمثال هذه المبادىء[٦].

---

(١) منهج الفن الإسلامي/ من المقدمة، للأستاذ محمد قطب.

(٢) فلسفة الجمال، أبوريان ص ١١٥.

(٣) فيلسوف وكاتب فرنسي (١٨٦٨-١٩٥١) من كتبه (نسق الفنون الجميلة) (تمهيدات لعلم الجمال).

(٤) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ١٤٣.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٤.

(٦) المصدر نفسه ص ٧٦.

(٢) و يرى الفريق الآخر أن كلاً من الجمال «الفن» والخير على طرفي نقيض، ولذا نادى هؤلاء بالابتعاد عن الفن والتزام الأخلاق.

فهذا «تولستوي»[١] يدين شتى الأعمال الفنية التي تدعو إلى الانحراف الخلقي، والاستخفاف بالدين[٢].

ومن قبل قام أفلاطون بتلك الحملة التي شنها على الفن، وأخرج الفنانين على أثرها من جمهوريته، لأنهم ــ برأيه ــ يفسدون الذوق و يبعدون الناس بفن التقليد والمحاكاة عن جوهر الحقائق[٣].

وقد كان هذا هو موقف الكنيسة أيضاً في عصورها الأولى، فهذا «فاسيلي» (٣٢٩-٣٧٩)م يرى البعد كل البعد عن الفن ودراسته. وإن الإنسان ــ برأيه ــ يجب أن يمضي حياته في الصوم والصلاة، لا بالسلوى والمتعة، وإن الضحك ضعف بشري يدل على سطحية الروح وخفتها.

وقد كان «برونيم (٣٣٠-٤١٩)م يرفض الفن رفضاً باتاً، ويخاطب المؤمنين في رسائله: إجعل ابنتك تتعلم كيف تسمع وتتكلم ما يدعو إلى الخوف من الله، أما الكلمات السيئة فيجب أن لا تتذكرها.. وليسبح فمها الطاهر بحمد الله[٤].

واستمر هذا الاتجاه لدى الفلاسفة حتى العصر الحديث، ففي القرن الثامن عشر جاء «جان جاك روسو»[٥] ليقول: كلما تقدم الفن إلى الأمام كان التردي من نصيب الأخلاق، ثم يتساءل عن الدور الأخلاقي الذي تلعبه التماثيل الموضوعة في الحدائق ليرها جميع الناس؟ وتلك الصور في المعارض هل هي أجود ما عندنا من الإنتاج الفني؟ وهل تمثل المدافعين عن الوطن؟ إن جميع أشكال الفنون تضلل القلب والعقل، فهي مقتبسة من الخرافات القديمة[٦].

---

(١) ليون تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) روائي وفيلسوف روسي ذو شهرة واسعة.
(٢) مشكلة الفن. زكريا ابراهيم ص ٢١٣، وفلسفة الفن، له ص ٢١٠.
(٣) فصول في علم الجمال. برجاوي ص ١٤٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٤٥-١٤٦ نقلاً عن (تاريخ النظريات الجمالية، أوفسياينكوف ص ٧٥).
(٥) فيلسوف فرنسي (١٧١٢-١٧٧٨) أثرت آراؤه في المذاهب الاشتراكية والشيوعية الحديثة.
(٦) المصدر السابق ص ١٤٦ نقلاً عن (أوفسياينكوف ص ١٥٦).

وهكذا انتهى الأمر لدى هؤلاء إلى ضرورة نبذ الفن كله باعتباره أمراً منافياً للأخلاق.

(٣) و يرى الفريق الثالث أنه لا صلة على الإطلاق بين الفن والأخلاق، لأن القيم الجمالية تعلو على الخير والشر معاً.

وانطلاقاً من هذا المبدأ يقرر «كروتشه» أن الفن خارج تماماً عن نطاق الأخلاق.. وأنه إذا كانت الإرادة الخيرة هي قوام الإنسان الفاضل فإنها ليست قوام الإنسان الفنان(١).

و يقول أبو ريان: يجب أن نؤكد بطريقة حاسمة الفصل بين القيمة الجمالية والأخلاق، ذلك لأن الفن الجميل لا يمكن أن يوضع تحت رقابة أصحاب المثل والفضائل الأخلاقية، فلا صلة أصلاً بين الأخلاق والفن(٢).

نلاحظ من خلال العرض السابق اتفاق الإتجاهين الثاني والثالث على إبعاد الفن عن دائرة الأخلاق ولكن أصحاب الاتجاه الثاني يحاربون الفن حفاظاً على الأخلاق، بينما يرى الآخرون إطلاق العنان للفن حتى يكون حراً طليقاً...

أما الفريق الأول الذي قال بأخلاقية الفن، وأن من آثاره تهذيب النفس.. فنترك مناقشته لـ«برتليمي»، حيث يقول: إن مجموع الأفراد الذين يحسّن الفن من أخلاقهم قليلون، والاعتقاد بأن حب الإنسان للأعمال الفنية العظمى حباً مطلقاً يمكن أن ينقي القلب والحياة، اعتقاد يكاد يكون خاطئاً على الدوام، فلطالما رأينا أناساً لا حصر لهم قد أحبوا أكمل المقطوعات الموسيقية وأجمل اللوحات الفنية، وظلوا مع ذلك من الرعاع، فتأثير الفن في تقدم الأخلاق تأثير بسيط جداً(٣)...

وهذا ما ألمح إليه هيغل حين قال: إن تمثيلات مريم المجدلية، الخاطئة الحسناء، قد أوردت موارد الخطيئة عدداً من الرجال يفوق بكثير عدد من قادتهم إلى التوبة والندامة(٤).

---

(١) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٤٦.
(٢) فلسفة الجمال ص ٩٠.
(٣) بحث في علم الجمال ص ٥١١ (نقلاً عن: كورتيه: الفن والحمية الروحية).
(٤) المدخل إلى علم الجمال ص ٥٤ هيغل.

تلك كانت آراء واتجاهات الفلاسفة وعلماء الجمال.. ومناقشاتهم... ولكن هل كان للفنانين مشاركة ما في ذلك؟ هذا ما نتحدث عنه في الفقرة التالية.

الفنانون والأخلاق:

إن الفنانين ــ فيما يبدو ــ لم يكن لهم أية مشاركة أو اهتمام بتلك المناقشات التي دارت بين الفلاسفة بصدد علاقة الفن بالأخلاق، وانطلق كل واحد منهم يكتب أو يرسم أو ينحت.. كما يحلو له، فصنعت التماثيل التي أبرزت صراخ الجسد وقد تعرى من كل شيء.. بل ذهبت بعض اللوحات إلى أبعد من هذا حينما سجلت الانحراف والشذوذ الجنسي...

وهكذا أنتج الفنان كل ما خطر بفكره، بعيداً عن أي قيد من خلق أو فضيلة أو عرف[١]. وترك أمر الدفاع عن إنتاجه ذاك للمعجبين به أو باتجاهه، إضافة إلى أصحاب الاتجاه الثالث ــ الآنف الذكر ــ الذين رأوا عدم العلاقة بين الفن والأخلاق.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر أمثلة من تلك الدفاعات التي أدلى بها أصحابها انتصاراً لفن «الرذيلة» أو قل لحرية الفن.

جاء في كتاب «فصول في علم الجمال»:

«لقد صنع رودان»[٢] المثال الفرنسي، تماثيل يبرز فيها ملامح الأنوثة الصارخة في جسد المرأة، وقد يحكم علماء الأخلاق والاجتماع ورجال الدين بأن هذا النوع من الأعمال الفنية مثير لأحط الغرائز الحيوانية، الأمر الذي يجعل منه دعوة صارخة إلى الرذيلة والفساد والانهيار الأخلاقي، غير أن الذوق الجمالي ــ رغم كل هذا التقييم ــ يحكم بأن هذه التماثيل آية في الجمال، شرط أن لا نضع في الاعتبار عند صنع التماثيل، مجرد إثارة الغرائز الجنسية، والمخالفة المتعمدة للسنن الأخلاقية والاجتماعية والدينية.

---

(١) ينبغي أن نستثني هنا الفنان في ظل محاكم التفتيش حينما كان للكنيسة سلطتها فإنه كان يومئذ ملتزماً بأوامر الكنيسة وإلا فالمقصلة كانت بانتظاره.

(٢) أوغست رودان (١٨٤٠-١٩١٧) نحات فرنسي.

إن من خصائص القلب النظيف والعاطفة النبيلة أن لا تبحث عن الشر في الخير، والقبح في الجمال، فبراءة النظرة إلى الأشياء هي التي تتضمن التأمل الجمالي، والفرد الذي يجهل أمور الفن، ولم تتوفر له تربية وثقافة فنية رفيعة، هو الذي يذهب عند التأمل في اللوحة أو التمثال أو القصة مباشرة مع سياق أفكاره وخبايا نفسه فهو الذي لا يعرف الفرق الشاسع، فيميز بين صورة المرأة العارية وصورة المرأة التي تخلع ثيابها، إذ إن تقديره لقيمة الصورة الماثلة أمامه إنما ينبع من شعوره الضيق بالملذات الجنسية.

أما العارف بالفن، الذي تربى بالجمال وتثقف بالروائع من الفنون فهو يتمسك أساساً بمميزات الخطوط وصفات الألوان والأشكال ويربط بينها وبين قيم التهذيب، وينفذ إلى الجوهر، وبمدى ما يتغلغل إلى الأعماق، بقدر ما يكون قد عطل عنده الرغبات الجنسية حيال الفن، وعطل فيها كثيراً من الرغبات الأخرى فينسى حتى أمام أشهر اللوحات التي تثير الجنس جسد المرأة، فيغلفها بقناع الفضيلة ويلفها بثوب نقي روحاني صافٍ[1]».

وفي دفاع آخر نجد:

«.. وإذن فصفة الجمال صفة فريدة لا تتعلق بأي صفة أخرى، فقد يتبدى الجمال مثلاً في أثر فني محرم دينياً أو مستهجن من الناحية الأخلاقية، كأن يعرض المثال جسد المرأة عارية مبرزاً فيه ملامح الأنوثة الصارخة... ولكن الذوق الجمالي ــ رغم هذا كله ــ يحكم بأن هذا التمثال آية في الجمال[2]».

وفي دفاع ثالث نجد:

«.. وحين ننظر إلى لوحة (الصديقان) للمصور «كوربيه»[3] نرى فيها منظراً من مناظر الحب الممنوع، لكن إذا كان أحد ممن ساءت نياتهم يستنتج من هذا

---

(١) فصول في علم الجمال، برجاوي ص ١٥٢، وهذا الدفاع قد أورده قبله برتليمي، بل إن التفريق بين صورة المرأة العارية والمرأة التي خلعت ثيابها منقول عنه بنصه (انظر: بحث في علم الجمال/جان برتليمي ص ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) فلسفة الجمال / أبو ريان ص ٨٥.

(٣) مصور فرنسي (١٨١٩-١٨٧٧).

فساداً، فإن «كوربيه» نفسه لم يكن كذلك حين صنعها، وقد كانت فنيته تسيطر عليه، ونسي نية السوء من حوله، وانتقل مباشرة إلى الإمكانيات الفنية».

وحين ننظر إلى (جزيرة العشق) لـ«يسبوس» لا نرى فيها إلا التوافق العظيم المتكامل بين الألوان وبين الخطوط، أما ما يوحيه الموضوع من تفكير سيء لأصحاب الغرائز الرخيصة، فشيء كان يعزب عن بال صاحب اللوحة ومن أراد معه أن يتذوق فيها روعة الجمال[1].

وذهب بعضهم إلى أبعد من هذا ـــ كما يقول هيغل ـــ فحامى عن التمثيلات الفنية والأعمال الأدبية الأكثر نأياً عن الأخلاق وأوجد الأعذار والمبررات لها بحجة أن المرء بحاجة، لكي يكون أخلاقياً، إلى أن يعرف الشر والخطيئة أيضاً[2].

ذلك هو واقع الفنانين، وتلك حجج المدافعين عنهم.

ولا بد لنا من وقفة يسيرة نتأمل فيها تلك الحجج.. ونبادر فنقول: ليت لأمر وقف ـــ لدى هؤلاء ـــ عند الدفاع عن أخلاقية الأعمال الفنية، وذلك بأن يطلب إلى المشاهد أن يلبسها ثوب الفضيلة. ولكن الاندفاع في الدفاع جعلهم يتهمون المتأمل بخبث طويته إذا أوحت له تلك المشاهد بهاجس سيء.. ذلك أن الفنان لم يقصد ذلك؟!

من حقنا أن نسأل: كيف يستطيع المشاهد رؤية العمل الفني من خلال التذوق الفني الذي يؤكدون عليه؟

إن على المشاهد ـــ في رأيهم ـــ أن يستمتع بالخطوط والألوان فقط دون اللجوء إلى فهم ما يوحي به المشهد... وإذا غلبه ذلك الإيحاء الذي أكد عليه الفنان فهو إنسان لم يربَّ تربية فنية صحيحة، ولم يتقن عملية التذوق الجمالي!! فمشهد المرأة العارية يجب أن تقف أمامه في حدود الخطوط والألوان ولا يتبادر لذهنك شيء

---

(١) فصول في علم الجمال، برجاوي ص ١٦٤.

(٢) المدخل إلى علم الجمال. هيغل ص ٥٤.

آخر.. ولا يمكن أن تكون ذا رؤية صحيحة إلا حينما تستطيع التفريق بين المرأة العارية والمرأة التي تخلع ثيابها(١)؟!

حاول إذن أن تكون ذا ذوق سليم!!

إنه لأمر بدهي أن يربط المشاهد بين المنظر وما يوحي به، وما الخطوط والألوان إلا الوسيلة لأداء المعنى وتسجيله، فمن غير المعقول أن تقف أمام لوحة تصور مشهد معركة ثم يطلب إليك أن تبقى في حدود الخط واللون لتظن نفسك أمام مشهد من مشاهد الطبيعة أيام الربيع.

وإن القصة التي تتحدث عن العاصفة.. لا يمكن أن نسمع من خلالها اللحن الهادىء.. وإلا فقدت الألفاظ معانيها، وفقدت الأدوات مدلولاتها، ولم يعد الفن وسيلة تفاهم ونقل أحاسيس وإيصال مشاعر.

ما الذي يريده الفنان الذي مثل امرأة عارية مبرزاً مفاتن أنوثتها؟ هل يريد إبراز الطهر والفضيلة؟ أم يريد من المشاهد أن يخلع عليها ثوباً يستر به مفاتنها فيتعلم بذلك الفضيلة وفعل الخير؟

إنه ما من شك في أن كل فنان يحدد موضوعه قبل أن يمسك ريشته أو إزميله وهو حينما يبرز جانباً ما، فإنما يبرزه عن قصد. «فليس من قبيل الصدفة البحتة مثلاً أن يختار «رمبراندت» شخصية المسيح موضوعاً لأكثر لوحاته، أو يختار «بيكاسو» مدينة «جورنيكا» موضوعاً لرسمه، أو أن يجعل «رودان» المرأة موضوعاً لأكثر تماثيله أو يتجه «بودلير» إلى مواضيع الرذيلة والانحلال في قصائده..(٢)».

إنه من الأفضل أن يقال: إن بعض الفنانين قد طرحوا أمر الأخلاق من حسابهم، بدلاً من أن يتهم المشاهد بعدم الذوق الفني لأنه لم يستطع رؤية الأشياء على غير حقيقتها.

---

(١) هذا المثل الذي أورده برجاوي ــ فيما نقلناه عنه قبل قليل ــ نقلاً عن برتليمي.. ربما كان القصد منه هو أن المرأة العارية تعبر عن الفضيلة لأنها لم تجد ما تستر به جسمها فعريها ناتج عن الضرورة. أما التي تخلع ثيابها فليست كذلك، إنها واجدة لأسباب الفضيلة، ولكنها لا تريد التمسك بها.

(٢) فلسفة الجمال / أبو ريان ص ٩٦ ومشكلة الفن ص ٤١.

الفن للفن[1]:

استمر التباعد بين الفن والأخلاق، ورفض أصحاب الاتجاه الثالث أي خضوع لقواعد الأخلاق والفضيلة، وبات الأكثر بعداً عن الأخلاق هو الأكثر فنية. يقول «برتليمي» في هذا الصدد: تتمتع اللا أخلاقية الجمالية في أيامنا هذه بإقبال شديد، ولقد كان هذا أثراً من أسوأ الآثار التي تركتها نظرية الفن للفن، ما دامت تعتبر احتقار الناحية الأخلاقية علامة من علامات العبقرية. ودون أن نذهب إلى هذا الحد، يعتبرها الكثيرون أساساً من أسس النجاح الفني[2].

و يوضح «كروتشه» هذا المذهب — كما يراه — حينما يقرر أن الفن للفن لا يعني سوى استقلال الفن عن كل من العلم والمنفعة والأخلاق. والفنان — في رأيه — لا يمكن أن يكون عبداً للأخلاق أو خادماً للسياسة أو ترجماناً للعلم[3].

وفي ظل هذا المذهب أغرق «إميل زولا»[4] في أسلوبه في الأدب المكشوف فأخذ يصف بدقة حياة شخصياته معبراً عن نزعاته الداعرة ونزواتها الجنسية... ومن قبله الشاعر الفرنسي «بودلير» (١٨٢١-١٨٦٧) ذلك الذي فاق كل من كتبوا في الأدب المكشوف بما ساقه في ديوانه «أزهار الشر» من وصف جنسي لنزوات المرأة وحياتها الشهوانية وأجزاء جسمها[5]...

وقد عارض هذه النظرية كثيرون، وفندوا آراءها وسلوكها.

فهذا «سانتيانا» يرى أن هذا المذهب يفصل الفن تماماً عن الحياة بدعوى أن الفن للفن، وأن النشاط الفني نشاط غير مشروط، وبالتالي أنه نشاط مستقل

---

(١) عرف هذا المذهب أولاً باسم «مذهب الطبيعيين» وقد جاء كرد فعل معاكس للرأي الذي يربط بين الخير والجمال. وقد أنشأه «بلزاك» وتبعه «إميل زولا» وكان من المشايعين له الشاعر الفرنسي الداعر «بودلير» (عن فلسفة الجمال أبو ريان ص ١١٧).

(٢) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٥١٥.

(٣) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٥٩.

(٤) أميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) روائي فرنسي من المدافعين عن المذهب الطبيعي في الأدب.

(٥) فلسفة الجمال. أبو ريان ص ١١٧.

استقلالاً تاماً عن شتى مظاهر الحياة البشرية الأخرى، ولا شك أن هذا الموقف هو الذي عمل على نشأة «عبادة الجمال»(١).

و يرى «كاسيرر» ضرورة إعادة ارتباط الفن بالحياة إذ يقول: قد وقع في ظن كثير من القائلين بأن «الفن للفن» أن الظاهرة الجمالية سر محجب هيهات للشخص العادي أن ينفذ إليه. وإن من واجبنا ـــ على العكس من ذلك ـــ أن نعيد إلى الفن إرتباطه بالحياة البشرية العادية(٢).

ولعل كلمات «برتليمي» في هذا الصدد هي القول الفصل. إذ قال: ... فالفن الذي يدرك تجريدياً فن لا وجود له، كما أن الفنان الذي لن يكون إلا فناناً فحسب غير موجود في هذه الدنيا، والموجود هو العمل الفني الذي خلفه رجل فنان(٣).

و بعد:

ما من شك في أن كلاً من الحق والخير والجمال، له مقوماته الخاصة، وذلك لا يعني أننا ننفي اللقاء بينها، ولكننا ننفي التعارض.

إنما يلتقي بعضها مع بعض باعتبارها «قيماً» يُسعى إليها، كما أنها تتداخل في كثير من الأحيان، فحيث وجد الحق نلمح وجود الجمال يتراءى من خلاله، وحيث وجد الخير فإننا نلمح إشراقة الجمال فيه، ومع هذا فإنه يبقى لكلٍ مفهومه الخاص به، ومدلوله الذي يعرف به.

وهذا ما دفع كثيراً من الفلاسفة إلى عقد المقارنات بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية، وإنه ليتضح من خلال تلك المقارنات، أنه مع ما بينها من فوارق فهي أقرب إلى اللقاء منها إلى التنافر.

أما ما رأيناه في الآراء السابقة، من بعد الشقة بينها فهو يرجع إلى عوامل نستطيع الإشارة إلى بعضها باقتضاب:

---

(١) فلسفة الفن، زكريا ابراهيم ص ٩٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠١.

(٣) بحث في علم الجمال ص ٤٦٨ برتليمي.

أ ــ إن الجمال المتحدَّث عنه، كان جمال الفن، لا الجمال بمفهومه المطلق، ولذا رأينا اختلافاً في موقف بعض الفلاسفة ــ كأفلاطون مثلاً ــ فهم حين يكون الحديث عن الجمال المطلق فإنه يلتقي ــ في رأيهم ــ مع الأخلاق، أما حين يكون الحديث عن جمال الفن.. فلا لقاء.

ب ــ إن سلوك كثير من الفنانين، كان الدافع وراء الآراء التي فصلت الجمال عن الأخلاق، فكان الفيلسوف يتحدث عن الموضوع وفي ذهنه سلوك كثير من هؤلاء الفنانين فلا يجد مندوحة من الإقرار بالواقع وهو أن الجمال (الفن) بعيد كل البعد عن الأخلاق.

يقول «سانت بيف» عن «سان بيير» إنه أشد الأمثلة قدرة على بعث خيبة الأمل بسبب عدم التوافق بين حياته وعلمه.. وكم أريد أن أمحوه من مخيلتي. أ. هـ و يعلق «برتليمي» على ذلك بقوله: فإنه لم يكن متصفاً بالحساسية العاطفية التي صورها، بل كان مجازفاً، مليئاً بالشكوك والنفاق، محباً للعراك، متصفاً بخشونة الطبع[1].

ومن المعروف أن: المصور «جوجان» كان سكيراً، وأن «شومان» الموسيقار مات مجنوناً، وأن الشاعر «هيلدرلين» لقي نفس المصير، وأن الشاعر «رامبو» هجر الشعر تماماً ليتفرغ لكسب المال وأن «بول كلوديل» لم يكن يفهم حرفاً مما يكتب»[2].

و يبلغ الشاعر الفرنسي «رامبو» الغاية في الانحراف، فقد كانت فكرة الجريمة تبعث النشوة عنده، وقد صرح بذلك حين قال: لقد جففت نفسي في هواء الجريمة[3].

والأمثلة على هذا كثيرة، فإن أي إنسان له أدنى اطلاع على حياة الفنانين سيجد من الشواهد الشيء الكثير.. إبتداء من «ليوناردو دافنشي»[4] في عصر

(١) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٤٤٠.
(٢) علم الجمال. الديدي ص ٥٥.
(٣) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٥٩٧.
(٤) دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) فنان إيطالي نبغ بالبناء والهندسة والموسيقى واشتهر بالتصوير.

النهضة في أوربا وانتهاءً بـ«بكاسو»[1] ومن تلاه في العصر الحديث.

ج ـ إن مفهوم الأخلاق نفسه لدى الفلاسفة وعلماء الجمال، مفهوم رجراج غير ثابت. ذلك أنهم لا ينطلقون في حديثهم عنها من منطلق واحد، فبعضهم يعدها نتاجاً من الدين، و يبتعد بعضهم الآخر بها عن الدين...

«ويهاجم بعضهم فكرة الفضيلة التي ينطوي عليها الدين والتي تقوم على أساس الثواب والعقاب و يرون أن جمال الفضيلة في ذاتها[2]».

وبناءً على اختلاف المنطلق لا بد أن يختلف الرأي...

تلك بعض العوامل التي أدت إلى تعدد الآراء بصدد علاقة الجمال بالأخلاق، على أننا لا ينبغي أن نهمل عاملاً آخر له شأنه، وهو أن الفيلسوف الواحد قد يكون له أكثر من رأي، أو قد يعدل رأيه بين آونة وأخرى.

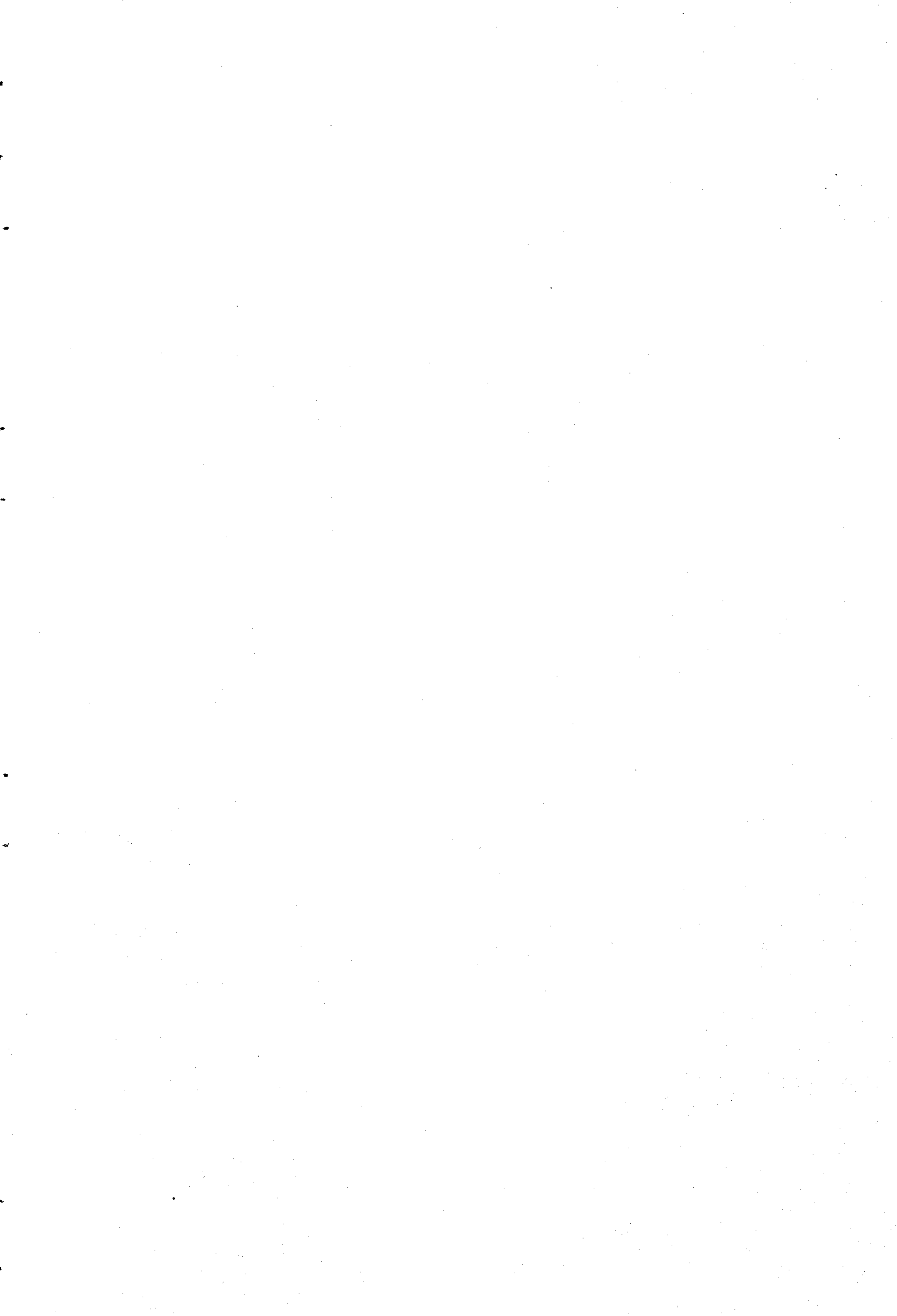


(١) بابلو بكاسو (١٨٨١-١٩٧٥) فنان اسباني عاش في فرنسا، اشتهر بالفن التكعيبي في الرسم.
(٢) فلسفة الجمال. أبو ريان ص ١١٦.

الفصل الخامس

الجمال والدين

- □ المسيحية والجمال .
  - ـــ التمرد على الكنيسة .
  - ـــ مفهوم الدين لدى الفنانين .
  - ـــ دين الفن .
  - ـــ الكنيسة المعاصرة والجمال .
  - ـــ تعارض الفن والدين .
- □ الإسلام والجمال .



لقد وجد الدين منذ وجد الإنسان، بل إن جبلته فطرت على ذلك حينما قال الله تعالى له «كن» فكان، فكانت استجابته تلك أول تعبير وتحقيق لمعنى «الدين».

ولذا «فالشعور الديني أصيل، يجده الإنسان غير المتمدن كما يجده أعلى الناس تفكيراً وأعظمهم حدساً» كما يقول الدكتور ماكس نوردوه[1]. ولم يبق هذا الشعور حبيس ذات الفرد، بل أضحى الظاهرة الاجتماعية البارزة التي اتسمت بها كل جماعة إنسانية، يقول هنري برغسون: «لقد وجدت، وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة[2]».

وإذا كان للدين هذا الالتصاق بالإنسان، ـــ سواء أطفا هذا الدين على السطح، أم صاحب هذا الطفو تغلغل في الأعماق.. أم بقي طي الكتمان تحت حجب ترقّ، تارة وتغلظ أخرى ـــ فلنا أن نتساءل عن طبيعة العلاقة بين الجمال وبين الدين؟

لقد كان الفن ـــ ميدان الجمال ـــ في الأمم الوثنية في خدمة الدين، فالأوثان تصنع بدافع ديني، والآلهة تنصب تعبيراً عن الدين، والقرابين والرقصات والأعياد.. كلها مرتبطة بالدين. «ولقد ظل الفن هكذا في خدمة الطقوس زمناً طويلاً في كثير من الحضارات، لدرجة لم يكن يوجد فن إلا وكان دينياً[3] ..». «.. ففن النحت والرسم والموسيقى والرقص وحتى العمارة طبعت كلها بالطابع الديني لدى الشعوب القديمة، وحتى في العصور الوسطى في أوربا كما في الشرق[4]».

---

(١)(٢) الإسلام والحضارة الإنسانية. للدكتور عبد المنعم خفاجي ص ٨٢.

(٣) بحث في علم الجمال / برتليمي ص ٥٧٣.

(٤) فصول في علم الجمال / برجاوي ص ١٧٩-١٨٠.

المسيحية والجمال

رأت الدولة الرومانية في النصرانية خطراً عليها، فتعقبت الحواريين وسائر أتباع النصرانية في كل مكان، مما أدى إلى فرارهم وترحالهم وتخفيهم، واختلاطهم بالوثنيين، واستمر هذا الوضع إلى عهد الإمبراطور قسطنطين الذي قرر سنة ٣١٢م التوقف عن ملاحقتهم والعفو عنهم... وتظاهر هو بالتزام الدين.. «ولكن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصراني والوثني ـ أن يوحدهما و يؤلف بينهما، حتى إن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها»[١] «ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء[٢]».

وهكذا تخلت المسيحية عن سماويتها وهبطت إلى الأرض لتتولى الكنيسة شؤونها ومن هنا بدأت علاقتها بالفن.

كان الرهبان في تلك المرحلة وما قبلها يرون في تعاليم المسيح الوسيلة لنقاء الروح وطهارتها ولذا «كانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأرغبهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب «لتهينس»: إن الراهب «أنتوني» لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره، وكان الراهب «إبراهام» لم يمسَّ وجهه ولا رجليه الماء خمسين سنة، وقد قال الراهب الاسكندري بعد زمن متلهفاً: وا أسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات[٣]».

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٦ نقلاً عن (درابر).

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ نقلاً عن (درابر).

(٣) المصدر السابق ص ١٨٧ نقلاً عن تاريخ أخلاق أوربا لـ(ليكي).

تلك كانت حالهم قبل تطعيم المسيحية بالوثنية، ولكنهم بعد ذلك عدلوا من طريقتهم لتتناسب مع المزيج الجديد، فبدأت الأوثان والصور تدخل الكنيسة.. ولا شك أن بعضهم لم يكن راضياً عن ذلك، وقد رأينا في البحث السابق ــ الجمال والأخلاق ــ موقف كل من «فاسيلي» و«برونيم»، ولكنهما وأمثالهما لم يستطيعا مقاومة التيار الطاغي.

يقول «سل» العالم الانكليزي عن نصارى القرن السادس الميلادي: أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية[1].

وفي القرون الوسطى استطاعت الكنيسة احتواء الفن والسيطرة على الفنانين، يقول أبو ريان: «وعندما توطدت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى بدأ الفن يتخلى عن المسحة الدنيوية. وعاد ليرتبط بالحياة الآخرة، وحياة الفضيلة، ويصور النزعات السامية في الإنسان، والفضائل الدينية، كالاستشهاد والتضحية والصبر، وَالأمل في حياة خالدة، وتمجيد الله وإعلاء كلمة المسيح، والترنّم بسيرة العذراء، وصدق إيمان الحواريين، وروعة مآثر الصديقين، وتصوير المواقف المسيحية بأسلوب يتضح بالإيمان الدافق[2]».

وجاء عصر النهضة في أوربا حيث بلغ الفن الكنسي ذروته على أيدي رافائيل[3]، وما يكل انجلو[4]، وليوناردو دافنشي... وظهرت صور صلب المسيح، والعشاء الأخير، ويوحنا المعمدان، والقربان...

ونلاحظ أن مطلع القرن السادس عشر كان حافلاً بالأحداث الفنية، فقد أنجز رافائيل الصورة الجدارية (تحت الأفرسك) التي زين بها إحدى قاعات الاستقبال الكبرى بالفاتيكان والمسماة (ستانزا ديلا سيجناتورا) وتمثل هذه الصورة الإله

---

(١) منهج القرآن في تربية المجتمع ص ٦٢ عبد الفتاح عاشور ط ١ (نقلاً عن المجتمع الإسلامي د. أحمد شلبي).
(٢) فلسفة الجمال ص ٢١٣. أبو ريان.
(٣) رافائيل (١٤٨٤-١٥٢٠) مصور إيطالي. من عباقرة النهضة في أوربا. أسهم في زخرفة الفاتيكان.
(٤) مايكل انجلو (١٤٧٥-١٥٦٤) مصور ونحات إيطالي يعد في طليعة عباقرة النهضة في أوربا.

«أبولو» في وسط آلهة الشعر والموسيقى والفنون فوق البارناسوس ــ جبل في اليونان ــ [1].

وأنجز «أنجلو» صورة سقف إحدى القاعات في الفاتيكان، حيث قسمه إلى تسعة أقسام، استوعبت ثلاث مجموعات من التاريخ، وقد تناول في المجموعة الأولى خلق العالم وتتكون من اللوحات التالية:

١ ــ الإله الأعظم رب الوجود وسيد الأسياد يفصل النور عن الظلام.
٢ ــ الإله وهو يخلق الكواكب.
٣ ــ الإله يبارك الأرض بمياهها ونباتها.

أما المجموعة الثانية فقد خصصها:
١ ــ خلق آدم من تراب الأرض.
٢ ــ خلق حواء من ضلع آدم.
٣ ــ الإغراء والخطيئة.

وخصص المجموعة الثالثة بموضوعات لنوح عليه السلام:
١ ــ نصيحة نوح.
٢ ــ الطوفان.
٣ ــ نشوة نوح [2].

وفي روما ــ مقر البابوية ــ الكثير الكثير... وليست روما وحدها التي تهتم بالفن وتعنى به...

فهذه صورة «العشاء الأخير» التي تعدّ من أهم أعمال «ليوناردو دافنشي» قد أنجزها بمدينة ميلانو، وهي الصورة التي زين بها حائط (دير سانتا ماريا ديلا جراتسيا) للرهبان الدومينيكانيين. وتعد واحدة من أشهر أعمال التصوير في العالم [3].

---

(١) ليوناردو دافنشي، أحمد أحمد يوسف ص ١٣٤-١٣٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٠.
(٣) المصدر السابق ص ٨٤.

وقد بلغ من اهتمام الكنيسة بالفن أن تحول بعضها إلى «مرسم». فها هو «ليوناردو» قد اتخذ غرفة البابا نفسه (بسانتا ماريا نوفيلا) مرسماً له لممارسة عمله في إنجاز صورة معركة انجياري[1].

وحرصاً على مصلحة الفن تدخل البابا شخصياً في محاولة الإصلاح بين انجلو ودافنشي[2].

ولم يكن الاهتمام قاصراً على فن الرسم، فالموسيقى الكنسية إحدى مقومات الاحتفالات والمناسبات،... «في دير سولسمس انصرف ثلاثة أجيال من الرهبان خلال فترة مداها حوالي ٥٥ سنة إلى إعادة إنشاء الموسيقى الجريجورية[3]».

وقد أصبح للفن أنظمة وقوانين يحرم على الفنان مخالفتها ونذكر على سبيل المثال «ما جرت عليه الكاثوليكية من تحريم ارتفاع رأس البشر على رأس المسيح في التصوير. الأمر الذي سبب لـ(جويا)[4] مشكلات أثارتها عليه محاكم التفتيش حين خالف هذه القاعدة في لوحته التي صور المسيح فيها بعد نزوله من الصليب ورؤوس الناس حوله في وضع يعلوها[5]».

إن قضية الفن أخذت من رجال الكنيسة كل وقتهم وكل اهتماماتهم، فهذا هو البابا (ليو العاشر) يحيط مجلسه بأهل العلم والأدب والفن من كبار العلماء والشعراء والموسيقيين والفنانين... وكان أصحاب الحاجات من المواطنين، عليهم أن يطلبوا الإذن بالمثول بين يدي البابا... وكانت تمضي على بعضهم الأسابيع بل الشهور في انتظار الإذن بالمثول دون أن ينال أحد منهم هذا الشرف الكبير[6].

---

(١) المصدر السابق ص ١١١.
(٢) أنظر المصدر السابق ص ١٣٥-١٣٧.
(٣) الإنسان ذلك المجهول ص ٦٧.
(٤) جويا (١٧٤٦-١٨٢٦) مصور إسباني.
(٥) مقدمة في علم الجمال ص ٦٥. د. أميرة مطر.
(٦) ليوناردو / أحمد أحمد يوسف ص ١٣٤.

وإذا كان هذا وضع الكنيسة في أعلى مستوياتها. فلا شك أن عدواها سوف تسري إلى الناس فهي القدوة، وهكذا هام الناس بالجمال، وقدسوه وعدّوا حامله قديساً ولو كان عاهراً. «وأضحى المرء في ذلك العصر ــ كما قال رفائيل سيتني ــ عاجزاً عن التميز بين القديسين في المعبد والعاهرات في المدينة، فسوى بينهما في التبجيل والتعظيم، بل لقد بلغ من افتتان الناس بالفوضى الجنسية أن احتفلت روما المسيحية عام ١٥١١ احتفالاً مهيباً حفظه التاريخ. وتحدث عن جنازة إحدى العاهرات، وصمم شعب روما على أن يدفن فقيدته الغالية في كنيسة القديسة (جرجريا) ونقش على قبرها: هنا جثة العاهرة الرومانية العظيمة التي نالت ما تستحقه من الشهرة الواسعة لأنها كانت مثالاً للجمال قل أن يوجد له نظير[1]».

وهكذا أضحت الكنيسة معرضاً للوحات العظيمة، كما أضحت اللوحات العظيمةِ هي التي تصور المعاني الكنسية، وأخيراً... مدفناً للجمال بغض النظر عن هويته.

التمرد على سلطة الكنيسة:

بدأ التمرد من بعض الفنانين على سلطة الكنيسة مع ابتداء عصر النهضة في أوربا الذي يمتد من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر، فاتجه الفنان إلى التحرر من طابع الحزن، وإلى الحياة الفكرية والفنية عند اليونان والرومان...

ويفسر بعضهم تأثر فناني عصر النهضة الإيطاليين الكبار بالنزعة الدينية، إنما يرجع إلى قربهم من المقر البابوي في روما.

على أنه لا ينبغي لنا أن نهمل عاملين اثنين ربما كان لهما أكبر الأثر في استمرار هيمنة الكنيسة على الإنتاج الفني.

أ ــ سلطانها على الحياة كلها من خلال محاكم التفتيش التي تأتمر بأمر البابا والإكليروس الديني في روما، والتي كانت تشيع الرعب في نفوس العلماء والفنانين والمفكرين على حد سواء.

---

(١) الإسلام والفن، الإستانبولي ص ٣٠ نقلاً عن كتاب: هذا أو الطوفان ص ٢٢.

ب ــ كونها ــ الكنيسة ــ تمثل الطبقة الأرستقراطية التي تستطيع تلبية مطالب الفنان المادية والحصول على رضاه، فقد كان رجال الإكليروس في مقدمة الأثرياء في هذا العهد، وبهذا كانت المصالح متبادلة بين الفريقين[1].

وهناك عامل آخر يمكن تسجيله هو مفهوم الدين لدى الفنان، الذي يختلف عن مفهوم الكنيسة، ولكنه يستطيع تحت هذه اللافتة أن يلتقي معها وإن كانت هي بدورها لم تهتم بما تعنيه تلك اللافتة لديه ــ كما سوف نرى ذلك بوضوح ــ.

لم يكن التمرد على الكنيسة مما انفرد به الفنانون، بل شاركهم في ذلك العلماء، كما شاركهم أيضاً بعض رجال الكنيسة أنفسهم، وهو ما أطلق عليه فيما بعد اسم «حركة الإصلاح».

ومن أوائل الذين تزعموا هذه الحركة:

١ ــ «جون وكلف» الذي كان مدرساً للعلوم الدينية في جامعة أكسفورد في القرن الرابع عشر الميلادي وقد انتقد الديانة النصرانية المعاصرة بشدة، ولذلك أبعد وفصل من عمله.

٢ ــ «ايرتسمس» (ت ١٥٣٦) وهو الذي كشف مساوىء الكنيسة وألف كتاباً باسم «مدح الحماقة» هاجم فيه النظام الديني[2]..».

ولكن الذي استطاع أن يواجه الكنيسة بالفعل ويجعل من حركة الإصلاح واقعاً، تحس الكنيسة حرارة وقعه هو «مارتن لوثر» (١٤٨٣-١٥٤٦) وهو من مواليد ألمانيا، درس القانون، ثم اللاهوت، وبتوجيه من الكنيسة درس الفلسفة، وكان شديد الورع يجل الكنيسة، فأحب أن يحج إلى روما لتحل عليه بركات الكنيسة وذلك سنة ١٥١٠م، ولكنه فوجىء بالمدينة العابثة، رجال الدين فيها قد دنستهم المفاسد، وأحاطت بهم الريب واستهانوا بأحكام الدين وتجرؤوا على الخطايا.. كل ذلك من الذين تخيلهم قديسين.. ويزعمون وهم على حالهم تلك أن بيدهم ملكوت السماوات وسر التوبة وأبواب الغفران[3]...

---

(١) انظر فلسفة الجمال / أبو ريان ٢١٣-٢١٤.

(٢) الإسلام تشكيل جديد للحضارة. الأميني ص ٢٧-٢٨.

(٣) الموسوعة العربية الميسرة، مادة: لوثر. بإشراف محمد شفيق غربال.

وعاد لوثر إلى ألمانيا مستنكراً.. فرجال الكنيسة لم يهبطوا روحياً فحسب، بل انغمسوا في ملاذ الدنيا، وأحاطت بهم الرذائل.. ولعل هذا هو ما دفع «ليكي» إلى القول: «لعله لم يوجد في تاريخ الأخلاق قصة مؤلمة مؤثرة أكثر من مرض الرهبانية[1]».

على أن الذي أشعل نار الثورة، هو أن البابا أراد إعادة بناء كنيسة بطرس في روما فأرسل راهباً إلى ألمانيا عام ١٥١٧ ومعه صكوك الغفران ليبيعها.. وهنا أعلن لوثر بطلان هذه الصكوك.. وكان في جملة ما نادى به.. منع الصور والتماثيل.

هذه الصور والتماثيل، قد حولت الكنيسة إلى معبد وثني، فالتطور الذي حدث بالنسبة للشعب الروماني هو أنه بعد موت الاسكندر تحول صانعو الآلهة إلى صانعي تماثيل ـ على حد قول برتليمي[2] ـ ولكن التماثيل ما لبثت أن عادت إلى مكانتها كآلهة.

إن هذه الصور والتماثيل التي كانت عاملاً من عوامل وثنية الكنيسة، كانت تكاليفها باهظة من الناحية المادية، إضافة إلى تكاليف عيشة الترف التي درج عليها رجال الكنيسة. يقول الراهب جروم: «إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً.. وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا (أنوسنت) الثامن أن يرهن تاج البابوية، ويذكر عن ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال وأنفق نصيبه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المرتقب سلفاً وأنفقه، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم[3]».

ومن المعروف أن ليو العاشر هذا، هو الذي عاصر الفنانين الكبار، انجلو، ورفائيل، ودافنشي،.. وقد لقب براعي الفنون والعلوم.

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين هؤلاء الفنانين وبين الكنيسة، فانها لم تكن قادرة على السيطرة عليهم وإخضاعهم لها. «فهذا ميكائيل انجلو صور يوماً في لوحته

---

(١) الإسلام تشكيل جديد للحضارة ص ٢٥.

(٢) بحث في علم الجمال ص ٥٧٩.

(٣) ماذا أخسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٩١.

المسماة باسم (الجحيم) أحد الكرادلة الذين كرههم، فاحتج الناس لدى البابا على هذا العمل. ولم يملك البابا سوى أن يجيب على هذا الاحتجاج بقوله: إنني أستطيع كل شيء في مملكة السماء، وأما في مملكة الجحيم فليس لي ــ مع الأسف ــ أي سلطان[1] ». ولم تكن هذه الإجابة سوى اعتراف من جانب البابا بعجزه عن السيطرة على تسيير هؤلاء الفنانين فيما يريد...

مفهوم «الدين» لدى الفنانين:

ونتساءل بعد هذا، هل كان مفهوم الدين الذي استقر في نفوس هؤلاء الفنانين ــ الذين أسهموا في إنتاج الفن الكنسي ــ هو المفهوم نفسه الذي تأخذ به الكنيسة[2]؟ لم يكن الأمر فيما يبدو كذلك، فقد كان لكل فنان مفهومه الخاص عن الدين. ونترك الحديث لـ«برتليمي» ينقل لنا طائفة من آرائهم:

قال انجلو: فن التصوير نبيل وتقي بطبيعته.

وقال فان جوخ[3]: حاول أن تفهم الكلمة الأخيرة مما يقوله كبار الفنانين عن أعمالهم الفنية الكبرى تجد الله موجوداً فيها.

وقال روان: إن الفنان الحق أشد الناس تديناً، ولطالما خلطت بين الفن الديني والفن فحسب، فعندما يضيع الدين يضيع كل شيء.

وقال راموز[4]: إن كل شعر لا بد أن يكون دينياً، وإن كل شعر ضرب من الدين.

و يعلق برتليمي على هذه الآراء بقوله: فكلمة (الدين) حين تصدر في الحقيقة عن قلم كثير من الفنانين تحمل معنى غامضاً يشتد غموضه لدرجة أنه يخلق أسوأ ما يمكن أن يكون من سوء الفهم. فالدين عند (روان) مثلاً، معناه الشعور

---

(١) فلسفة الفن زكريا ابراهيم ص ١٤٠.

(٢) إن الكنيسة نفسها غير متفقة على ذلك، فإن رأي مارتن لوثر هو غير رأي كنيسة روما...

(٣) فان جوخ (١٨٥٣-١٨٩٠) مصور هولندي. عاش في آخر حياته في فرنسا ومات فيها.

(٤) شارل راموز (١٨٧٨-١٩٤٧) روائي سويسري. كتب بالفرنسية، تصور رواياته الصراع من أجل البقاء.

بالمجهول، وكل ما لم يفسر تفسيراً واضحاً.. وتبعاً لراموز يصبح كل ما هو شعري دينياً في إجماله، و يصدق هذا على كل شيء... لأن القدسية موجودة في كل مكان..

ثم يقول: ها نحن أولاء بعيدون عن الله، أو عن الآلهة، عن كل مذهب وعقيدة أو طقوس، وبالاختصار: نحن بعيدون عما يفهم عادة من كلمة الدين[1].

لقد كان لكل فنان دينه الخاص، أو لنقل مفهومه الخاص عن الدين، الأمر الذي لم يغيّر من سلوك الفنان شيئاً، وهكذا كانت «روائع انجلو ورفائيل من الناحية الجمالية، وثنية اغريقية وإن كانت مسيحية من الناحية المنطقية فقط[2]» ولعل هذا هو الذي دفع «آموز وايلدر» ليقرر في وضوح: «أنه لا يوجد حقيقة ما يطلق عليه القيم الجمالية المسيحية[3]».

وهذا أيضاً ما يفسر لنا كثيراً من اللوحات الكنسية التي تعرت فيها الفضيلة وما زالت تنضوي ضمن إطار الفن الكنسي، ومن ذلك لوحتان في متحف «البرادو» في مدريد صور في إحداها آدم، وفي الثانية حواء وقد تعريا إلا غصن نبات صغير يستر جزءاً من سوء تيهما المغلظة. وهناك لوحة أخرى تمثل لوطاً وابنتيه وهما تسقيانه الخمر وقد تعرت إحداهما تماماً وعلى وسط الثانية غلالة رقيقة لا تستر شيئاً.. ولوحات ولوحات كلها تمثل صراخ الجسد[4].. وهكذا بقي الطابع الروماني ــ وهو الاهتمام بالجسد ــ تحت غلالة مسيحية، هذه الغلالة هي «موضوع» اللوحة الذي ينتسب إلى المسيحية.

وبهذا استطاع الفنان أن «يفنن» الدين، ولم يرد أن يخضع الفن للدين، الأمر الذي قاد إلى ظهور «دين الفن» حيث أريد من الفن أن يصبح ديناً.

دين الفن:

يعدُّ «مالرو» هو الذي جعل من هذه الفكرة نظرية، وذلك كرد فعل على

---

(١) بحث في علم الجمال ص ٥٧٣-٥٧٤.

(٢)(٣) من بحث بعنوان: التوحيد والفن. للدكتور اسماعيل فاروقي نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٤ سنة ١٩٨٠ م.

(٤) ومن ذلك تمثالان عاريان لداود صنع أحدهما (دوناتلو) والآخر (انجلو)... وانظر أمثلة كثيرة أخرى في تاريخ العالم. السيرجون. أ. هامرتن ٥/٦٨٩-٧٠٥ ترجمة وزارة التعليم بمصر.

الدين الذي لم يهتم بخدمة الفن في يوم من الأ يام، على الرغم من أن الفن خدم الدين طو يلاً، ونتيجة لعدم اعتراف الدين بالجميل الذي قدمه له الفن فإنه لا بد من الاستغناء عنه وإنشاء دين خاص بالفن.

يقول مالرو: «لقد كان الفن في الماضي في خدمة الأديان، واتضح لنا اليوم أن هذه الأديان لم توجد إلا لخدمة قضيتها، ولذا لم يعد الفن تعبيراً عن إيمان ما، بل أصبح هو ديناً في ذاته لدى إنسان لم يعد يؤمن[١]».

على أن هذه الفكرة ـــ كما يقول برتليمي ـــ قد أشار إليها راموز خفية وأكد عليها كل من «رودان» و«سيزان»[٢] وعشرون غيرهما. وليست هي بالفكرة الجديدة، فقد كانت تطفو في الهواء منذ عصر النهضة على الأقل. كما كانت مبعث الإغراء في العصر الحديث لدى أولئك الذين يشعرون بأهمية الفن وضرورته، و يبتعدون في الوقت نفسه عن أي دين أو إيمان إيجابي[٣].

وبهذا يظهر دين جديد على مسرح الحياة، جديد، لا من حيث زمنه فحسب، ولكنه جديد بمعناه أيضاً، إنه يهدف إلى تخليص الناس من الضجر وإيصالهم إلى الطمأنينة، وبما أن الأديان التقليدية لم تؤد إلى ذلك، يضاف إلى ذلك ما أثبتته المذاهب العلمانية من عجز.. تعين على الإنسان أن يعتمد على نفسه، ما دامت الحضارة الحديثة تنكر وجود الآلهة... وقد حاول مالرو أن يوجد الطقوس لهذا الدين التي تؤدي الغرض من وجوده وكان أول هذه الطقوس: الهروب والنسيان، وكلاهما يأتي بها الأفيون عند الشرقيين، والعشق الجنسي عند أهل الغرب[٤].. يا له من دين؟؟!!

الكنيسة المعاصرة والجمال:

إذا ألقينا نظرة سريعة على وضع الكنيسة في الوقت الحاضر وصلتها بالفنون والجمال، نجد أنها ما زالت في التيار الذي جرفها في عصر النهضة ولكن الشيء

---

(١) بحث في علم الجمال ص ٥٨٤.

(٢) بول سيزان (١٨٣٩-١٩٠٦) رسام فرنسي من المدرسة الانطباعية.

(٣) المصدر السابق ص ٥٧٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧٥-٥٧٦.

الجديد، هو تفلت الناس من ربقة هذا الدين أكثر فأكثر، الأمر الذي استتبع تسامحاً!! من قبل الكنيسة أكثر فأكثر، رغبة منها في استمرار ارتباط الناس بها، وهي إذ فعلت ذلك لم تعط الجمهور إلا بعض ما كان مسموحاً به ضمن الكنيسة مما شاهده لوثر في روما، ولعل ما قاله الكسيس كاريل يوضح لنا ما آلت إليه حال الكنيسة.

قال: «لقد جعل القساوسة الدين شبيهاً بالتموين، لكل فرد منه قسط معين، وحطموا الأسس الغامضة، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين، ومن ثم فإنهم يعظون عبثاً أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع... إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذي يؤدونه، فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة [١]».

إنه لا بد من تلبية شهوات الجمهور، وإلا ابتعد عن الكنيسة، وفاتت بذلك مصالحها الدينوية.. وهكذا فتحت أبواب الفاتيكان للفنانين وللفن وتحولت قاعات القديسين إلى مسارح...

ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة:

- نشرت مجلة الوطن العربي [٢] تحت عنوان: دب في الفاتيكان، ما يلي: في قاعة القديس بطرس في العاصمة الإيطالية، حضر البابا يوحنا بولس الثاني مشهداً استعراضياً قدمه فنانو سيرك موسكو في روما... وقد حضر الحفل أكثر من ثلاثة آلاف مشاهد اجتمعوا لمشاركة البابا الاحتفال.. أبرز ما قدمه سيرك موسكو كان مشهد الدب الراقص وقد صفق له البابا طويلاً. أ.هـ وقد نشرت المجلة صورة للمشهد.

- كما نشرت المجلة في عدد آخر [٣] تحت عنوان: (ساعة معهن) ما يلي:
البابا يوحنا بولس الثاني أقام قداساً لأهل الفن، وكانت مناسبة للنجوم ليكونوا

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٧٧.

(٢) العدد ٢٦٩ نيسان ١٩٨٢.

(٣) الوطن العربي العدد ٣٥٤ ك١ ١٩٨٣.

إلى جانب الحبر الأعظم. «أورسولا أندروس» الممثلة السويسرية ذات الأصل الأميركي و«ميراي ماتيو» المغنية الفرنسية، و«أدامو» المغني البلجيكي، وغيرهم كثيرون كانوا هناك في ساحة القديس بطرس في روما. الفاتيكان(١) شهد في الأسبوع الماضي تظاهرة فنية...

وإلى جانب هذا الكلام نشرت صورة البابا وسط الفنانات وهو يصافح إحداهن وتحت الصورة التعليق التالي: أورسولا والبابا يداً في يد وميراي شاهدة على الواقعة.

وهكذا تابع الفاتيكان رسالة الكنيسة الكاثوليكية في رعاية الفن والاهتمام بالفنانين فهم إحدى وسائل جذب الجمهور.

ونتساءل في نهاية المطاف، هل أثمرت تلك الجهود الفنية في التأثير على نفسية الفرد المسيحي، سواء أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر.. ويجيبنا هيغل بقوله: ومهما تكن الرفعة الجودة اللتين بهما مُثل الله الأب والمسيح ومريم العذراء، فإن الإعجاب الذي يخامرنا لمرأى هذه التماثيل والصور يعجز عن حملنا على الركوع(٢).

أما رجال الكنيسة أنفسهم فما هو مدى الأثر الفني في نفوسهم؟ وهل عمل الجمال على تهذيب نفوسهم ومشاعرهم؟

وإذا كان من الصعب علينا ــ في هذه العجالة ــ إعطاء الجواب الكافي فلا

---

(١) الفاتيكان: مدينة الفاتيكان أو دولة الفاتيكان: دولة صغيرة جداً، لا تتجاوز مساحتها ٤٤ هكتاراً ولا يتجاوز عدد رعاياها ألف إنسان يقيم أكثرهم في روما. تقوم هذه الدولة في قلب روما عاصمة إيطاليا، وتضم كنيسة القديس بطرس وقصور البابا والطريق الممتدة بينهما. وقد احيطت كلها بسور ولها باب وحيد.

كانت روما دائماً تحت سيطرة البابوات، ولكن ملك إيطاليا ضم روما إلى مملكته عام ١٨٧٠م فاعتكف البابا في قصر الفاتيكان ولم يخرج منه، وهكذا فعل خلفاؤه حتى كانت سنة ١٩٢٩م فعقد موسوليني مع البابا معاهدة (ليتران) واعترف له بالسيادة على دولة الفاتيكان، كما اعترف له بملكية عدد من المباني خارج الفاتيكان وأهمها كنيسة القديس بولس التي تقع خارج أسوار الفاتيكان (عز المجلة العربية، التي تصدر في الرياض. العدد الأول شعبان ١٣٩٥هـ آب ١٩٧٥م) وانظر الموسوعة الميسرة.

(٢) فكرة الجمال ص ٢٤ هيغل.

بد من لفت النظر إلى أمرين مهمين فيهما بعض الجواب:

١ ــ محاكم التفتيش.. وكل ما جرى من مآس إنسانية تحت هذه اللافتة.

٢ ــ آثار المسلمين في الأندلس وطمس معالمها أو إزالتها. ونكتفي هنا بقول شارلكان (كارلوس الخامس) الذي وافق على إقامة الهيكل الكنسي وسط حرم المسجد الجامع في قرطبة، وذلك بعد ما رأى ما أصابه من تشو يه فقال مخاطباً رجال الكنيسة: (لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر وقد قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً في العالم[١]).

تعارض الفن والدين:

مع كل ما سبق الحديث عنه من تميع في مفهوم كلمة الدين لدى الفنانين، ومع كل التسامح من الكنيسة في التنازل شيئاً فشيئاً عن مفهوم الكلمة أيضاً... فإنه ما زال بعضهم لا يجد مجالاً لاجتماع الفن والدين، لأنهما على طرفي نقيض.

فهذا «مورياك» بتأوه قائلا: ولا بد أن تكون قديساً، لكنك في هذه الحالة لن تكتب قصصاً[٢].

و يعد بعضهم العناصر غير الجمالية التي تعيق تنظيم الفنون.. فيكون الدين واحداً منها[٣].

تلك بعض قصة الجمال ــ الفني ــ مع الدين الكنسي.



(١) مع الأندلس د. عبد الرحمن الحجي ص ٥٥.

(٢) بحث في علم الجمال ص ٦٢٦.

(٣) فصول في علم الجمال ص ١٧٩.

الإسلام والجمال

ذلك هو موضوع بحثنا الذي سنعالجه إن شاء الله في الفصول القادمة، ولكنا هنا في هذا الفصل (الدين والجمال) وقد توقفنا عند المسيحية، نحب أن نلفت النظر بشأن الإسلام إلى الملاحظات التالية:

□ قليلة هي الكتب التي عرجت على الإسلام وتحدثت عنه في هذا الميدان.

□ وغالبية هذه القلة، هي التي تناول مؤلفوها الموضوع بشكل مقتضب وقد استقر في وعيهم أن الإسلام قد أغلق باب الفن بتحريم التصوير والنحت.. وبالتالي فلا فن ولا جمال، ولننظر إلى قول أحدهم حين بدأ حديثه عن المسيحية بعد حديثه عن الإسلام (... فإذا انتقلنا إلى المسيحية نجد تمجيداً لا تحريماً، وترحيباً لا منعاً... وتفنن الرسامون في تزيين الكنائس والمعابد ورسم الصور...).

□ وذهب بعض هذه القلة إلى أن الإسلام لا يحرم الإحساس بالجمال... وينحى باللائمة على رجال الشرع الذين حرموا الرسم والنحت.. حيث لم يرد في القرآن شيء من هذا؟!

□ وذهب بعضهم الآخر إلى أن المسلمين لم يلتزموا بالإسلام، وأن التصوير ظهر في وقت مبكر..؟!

وكلها أقوالٍ ــ مع الأسف ــ يجانبها الصواب، ولم يتحر قائلوها الدقة، بل إنها تحمل ــ في كثير من الأحيان ــ طابع التحامل على الإسلام والعداء له. ولعلها مقتبسة من مواقف الغربيين الذين كان هذا موقفهم دائماً، إلا في النادر الذي لا حكم له.

ولننظر إلى بعض آراء هؤلاء الغربيين:

□ يرى «هارتز فيلد» في صدد مناقشته لفن الزخرفة: أن الإسلام لم يترك في نفس المسلم مكاناً للفن على الإطلاق، فيقول: «إن نظرة المسلم للحياة حين تقارن بالنظرة التقليدية السابقة ـــ يعني الإغريقية والرومانية ـــ وحتى المسيحية، لم تترك مكاناً للفن على الاطلاق..».

□ و يرى «م. س. ديماند» أن الفن الإسلامي هو أساساً فن زخرفي، فن بلا مضمون.

□ و يرى «ك. أ. كرسول» أنه ليس هناك شيء ما يمكن أن يطلق عليه «الفن المعماري الإسلامي» ولكن هناك فقط ما يمكن أن يسمى «فن معماري عند المسلمين».

□ و يرى «ج. أ. فون جرونباوم» أن الإسلام يحط من شأن الفنون جميعاً بتحريمه للخلاقية من جانب الإنسان، وأنه يحقر أي ابتكار ذاتي من جانب الفنان (١).

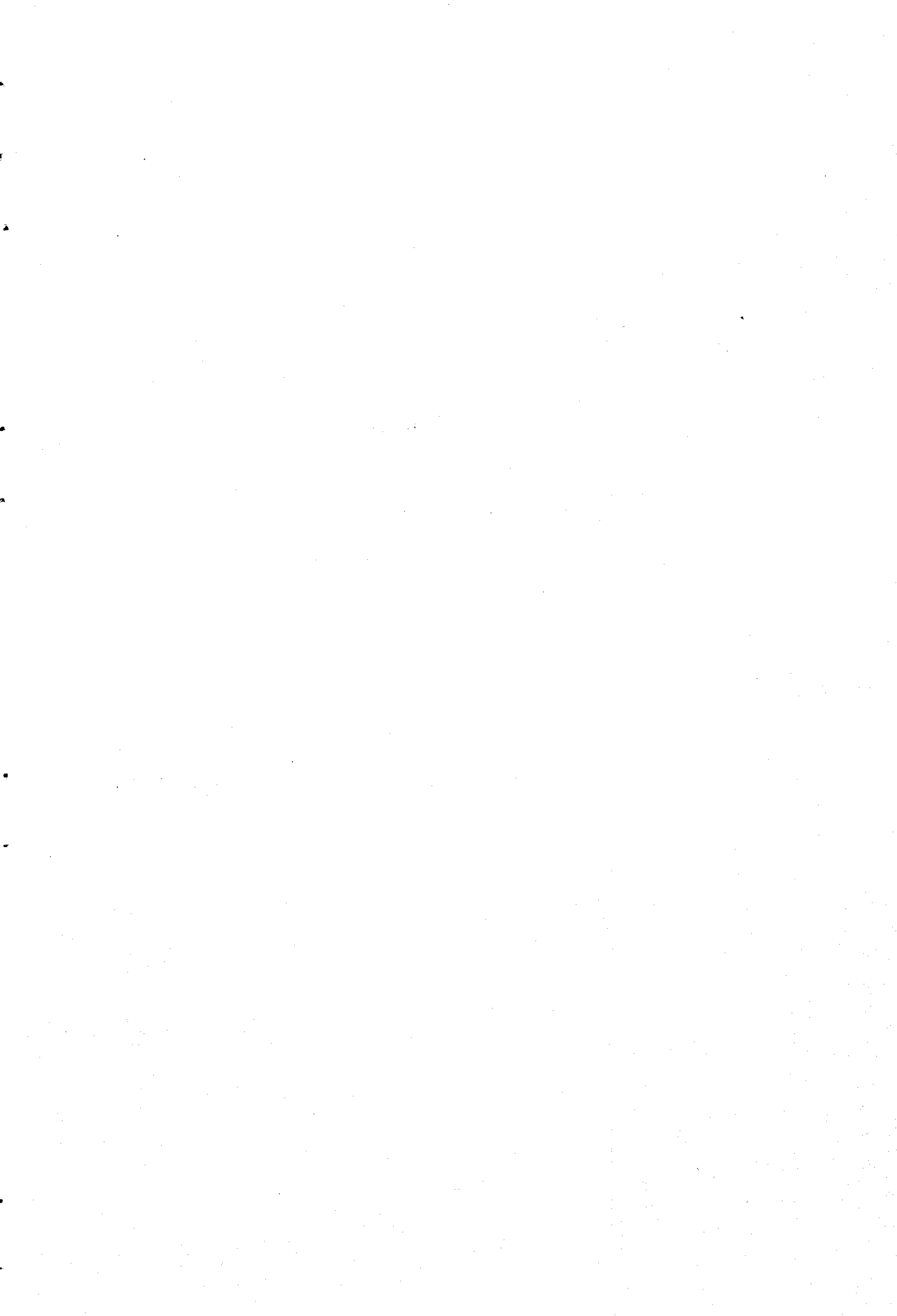
ولسنا بصدد مناقشة هذه الأقوال ـــ فليس هذا مكانها ـــ وإنما نقول إن الكثيرين ممن كتبوا بالعربية في علم الجمال. تأثروا بهذه الأقوال، حتى استقرت في نفوس بعضهم وكأنها مسلّمات.



(١) انظر هذه الآراء وغيرها ومناقشتها في موضوع «التوحيد والفن» للدكتور اسماعيل فاروقي والمنشور في مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٣ سنة ١٤٠٠هـ.

الفصل السادس

الشكل والمضمون



يعد هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي تناولها علم الجمال. وكان له أثره في فلسفة هذا العلم، بل تجاوز ذلك ليصل إلى الفنون الجميلة نفسها، وقد تزايد هذا الأثر في الآونة الأخيرة حيث سيطرت الفلسفات المادية على أجواء الفكر الغربي، وأضحت المادة كل شيء في بناء المدنية الحديثة.

و«الشكل والمضمون» هما قوام كل عمل فني جميل، سواء أكان لوحة أم تمثالاً أم قصيدة.. فالعمل من الناحية المعنوية، فكرة وعاطفة وإحساس، جُسِّد في هذا المنظر أو ذلك التمثال أو هاتيك القصيدة. فاللوحة والتمثال والقصيدة إن هي إلا المظهر الخارجي أو الشكل الذي من خلاله أمكننا أن نتعرف على تلك الأحاسيس والعواطف. وكلما كان العمل أكثر تعبيراً وتجسيداً لهذه الأحاسيس كلما كان العمل أكثر فنيةً وجمالاً.

وإذن: فنحن في العمل الفني أمام ظاهر هو «الشكل» الذي نرى به العمل وأمام فكرة نستشعرها من خلال الخطوط والألوان. أو النتوءات والتعرجات والانحناءات، أو اللفظ والقافية.

وعلى هذا يمكن القول بأن:

«الشكل: هو الصورة الخارجية، أو هو الفن الخالص المجرد من المضمون والذي تتمثل فيه الشروط الفنية.

والمضمون: هو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو أخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين[1]..».

إنه ما من شك في أن كلاً من «الشكل» و«المضمون» يؤدي دوره في إنتاج العمل الفني، والصلة بينهما وثيقة جداً، فهما وجهان لأمر واحد، ولا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر.

---

(١) فلسفة الجمال في الفكر المعاصر. العشماوي ص ١٥٢-١٥٣.

ولكن بعض النقاد ذهب في إعطاء الأولوية للفكرة والعاطفة والإحساس وذهب بعضهم الآخر إلى تقديم الشكل والصورة. إذ بهما يظهر العمل الفني ويوجد. وانقسم النقاد إلى مدرستين:

«مدرسة الشكل: وهم الذين لا يرون في المضمون أية قيمة فنية.. ويحصرون أحكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال.

ومدرسة المضمون: وهم يرون الفن كله مضموناً. وحددوا المضمون تارة بما يلذ، وتارة بما يتفق مع الأخلاق، وتارة بما يسمو بالإنسان إلى سماوات الفلسفة والدين، وتارة بما هو صادق في الواقع، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية[1] ».

ويبدو أن هذا البحث كان في بدء طرحه أقرب إلى البحث الفلسفي منه إلى الواقع التطبيقي، كالكثير من بحوث الفلسفة في علم الجمال.. ولكنه بعد ذلك بدأ يأخذ أبعاده شيئاً فشيئاً.. حتى كاد يسيطر على ساحة الفن في الآونة الأخيرة.

على أن كثيراً من الفلاسفة والنقاد لم يروا في هذا التقسيم إلا وسيلة لدراسة العمل وبيان قيمته الفنية، ومدى التناسق بين الشكل والمضمون أو الصورة والمادة. إذ لا يمكن لأحدهما أن يستقل بنفسه، فالفكرة غير قادرة على القيام وحدها دون صورة تبرز من خلالها. كما أن الشكل الظاهر لا قيمة له إذا خلا من المعنى.

وهذا ما نتبينه واضحاً في قول «كانت» (١٧٢٤-١٨٠٤م):
«إن العاطفة بدون الصورة عمياء، والصورة بدون العاطفة جوفاء[2] ».

ويذهب «هيغل» (١٧٧٠-١٨٣١) إلى قريب من هذا: «فالجمال عنده هو التجلي المحسوس للفكرة، إذ أن مضمون الفن ليس شيئاً سوى الأفكار، أما الصورة التي يظهر عليها الأثر الفني فإنها تستمد بنيتها من المحسوسات والخياليات، ولا بد من أن يلتقي المضمون مع الصورة في الأثر الفني. أو بمعنى آخر: لا بد أن يتحول

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٣.
(٢) فلسفة الفن في الفكر المعاصر. زكريا ابراهيم ص ٥٠.

المضمون إلى موضوع، ولكي يتم هذا التحويل أو التشكيل يتعين أن يكون المضمون قابلاً لأن يظهر في صورة موضوع.. وإذن فالفن في مذهب هيغل هو وضع الفكرة أو المضمون في مادة أو صورة، وتشكيل هذه المادة على مثال لها[1] ..).

فإذا انتقلنا إلى «كروتشه» (١٨٦٦-١٩٥٢) فإنا نجده لا يبعد من هذا الرأي. ففي رأيه «أن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني. لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية[2] ». وبتعبير آخر: «إن الروح الفنية لا ترى الصورة على حدة، ولا تستقر العاطفة على حدة، بل هي تمزج الأثنتين في وحدة فنية متسقة هي ما تسميه باسم: العمل الفني. وهنا يستوي أن يقال: إن الفن مضمون، أو إن الفن صورة، ما دام العمل الفني إنما يعني أن المضمون قد اتخذ صورة، وأن الصورة قد امتلأت بالمضمون. ومعنى هذا أنه لا بد للعاطفة ـ في العمل الفني ـ من أن تتخذ طابع صورة، كما أنه لا بد للصورة من أن تتسم بصبغة العاطفة[3] ».

ويرى «ألبير كامي» (١٩١٣-١٩٦٠) «أن الإبداع الفني يستلزم توتراً غير منقطع بين الصورة والمادة... وكل عمل فني يطغى فيه المضمون على الصورة، أو تطغى فيه الصورة على المضمون إنما هو عمل فاشل لا ينطوي إلا على وحدة زائفة أو وحدة ساقطة[4] ».

تلك نماذج من آراء الذين يرون العمل الفني وحدة قائمة بين «الشكل» وبين «المضمون»، وهي الفكرة التي سادت فيما مضى.

وواضح من هذا أن «الموضوع» احتفظ بكيانه كركن أساسي في العمل الفني طوال القرون الماضية. وما الآراء السابقة وغيرها كثير.. إلا البيان لهذه الحقيقة.

وشهد القرن التاسع عشر اهتماماً متزايداً بالشكل وتحولاً عن المضمون إلى الصورة، وذلك في أعمال كثير من الفنانين، الذين كان من أبرزهم «إدوار

---

(١) فلسفة الجمال. أبوريان ص ٣٨.
(٢) فلسفة الجمال. العشماوي ص ١٦٤.
(٣) فلسفة الفن. زكريا ابراهيم ص ٥٠.
(٤) المصدر السابق ص ٢٢٤.

مانيه» (١٨٣٢-١٨٨٣) المصور الفرنسي المشهور الذي آلت إليه الريادة في المدرسة التأثيرية أو الانطباعية.

وكان أول معارض «التأثيرية» قد أقيم بباريس عام (١٨٧٤) وكان من جملة معروضاته لوحة لـ«كلود مونيه» (١٨٤٠-١٩٢٦) باسم «أثر: شروق الشمس» ومن كلمة «الأثر» أطلق اسم التأثيرين على رواد هذه المدرسة، كما أن أحد الصحيفين أطلق اسم «الانطباعيين» على مصوري هذا المعرض.

«وتعنى الانطباعية ــ كما يشير اسمها ــ إلى إشباع العين من الطبيعة، أو رؤية وقتية للعالم، أو لمحة عن الأشياء الخارجية. أو بعبارة أخرى هي: تسجيل حسي للمظاهر، وتضع فعل الرؤية البسيط فوق الخيال، كما تضع الأبصار في مكانة أعلى من المعرفة[1]...».

وهذا يعني أن الفنان في هذه المدرسة أو المصور إنما يُعنى بتسجيل ما يرى لا ما يعرف، وذلك تطبيقاً للحكمة التي وضعتها هذه المدرسة وهي: «سجل الانطباع البصري تماماً على نحو ما ترى[2]».

وبذلك يكون للشكل الأثر الكبير في إنتاج أي عمل فني، حيث بدأ الموضوع يغيب عن الساحة تحت طغيان الشكل.. وكان لهذا أثره البعيد في تطور الفن الحديث.

وكان من آثار «التأثيرية» في مطلع القرن العشرين في فرنسا ظهور ما عرف بـ«التكعيبية» على يد المصورين: جورج براك (١٨٨٢-١٩٦٣) وبابلو بيكاسو (١٨٨١-١٩٧٥).

و«التكعيبية» هي إبراز الأشكال جميعها ــ سواء أكانت لأشخاص أم لأشياء ــ على هيئة مكعبات صغيرة تغطي سطح اللوحة، متراصة فوق بعضها، أو متداخلة، تظهر فيها الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والارتفاع.. عن طريق اللون والظل..

---

(١) علم الجمال. الديدي ص ١٠٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢.

وكانت لوحة بيكاسو (فتيات افينيون) عام ١٩٠٧ بداية لهذا الفن الذي أصبح بيكاسو رائده الذي يشار إليه بالبنان.

وظهرت بعد ذلك التكعيبية التحليلية والتكعيبية التركيبية...

وغاب «الموضوع» أكثر وأكثر في اللوحات التكعيبية وسيطر الشكل على اللوحة سيطرة كاملة، وهذا ما جعل التكعيبية بداية لما عرف بعد ذلك بـ(الفن التجريدي).

والتجريدية مدرسة قلبت موازين الفن رأساً على عقب، فهي تعنى بالشكل لوناً وخطاً، ولا تهتم بالموضوع أبداً، فقد استغنت عنه نهائياً.

وهكذا تحرر الفن من الموضوع وأصبح الشكل كل شيء. سواء أكان يعني شيئاً، أم لا يعني شيئاً.

يقول «برتليمي»: «الفن التجريدي هو الاستغناء عن الموضوع في اللوحة[1]». ثم تحدث بعد ذلك عن اللوحة التجريدية فقال: «إنها لوحة.. عبارة عن قطعة تصويرية فحسب، وما دامت لا تعبر عن موضوع ما، فإنها تصبح هي في ذاتها موضوعاً، قيمته في بنائه الداخلي وفي تنظيم عناصره وتماسك أجزائه، وهي تشبه في هذا قطعة موسيقية ليست في حاجة لكي تبرر وجودها إلى أن تعني شيئاً[2]».

ونتيجة لهذا عرف الفن التجريدي بأنه: فن بلا مضمون.

ونستطيع أن نميز في التجريدية مذهبين:

(١) التجريدية اللونية: وقد تزعمها المصور الروسي «فاسيلي كاندينسكي» (١٨٨٦-١٩٤٤)، الذي جعل الموسيقى مثله الأعلى في التصوير.

(٢) التجريدية الهندسية: وقد تزعمها ــ أيضاً ــ المصور الروسي «كازيمير مالفيتش» (١٨٧٨-١٩٣٥) وتعتمد على التركيز على الأشكال الهندسية، وهو صاحب اللوحة المشهورة والتي هي عبارة عن مربع أسود فوق خلفية بيضاء.

---

(١) بحث في علم الجمال، برتليمي ص ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٨.

وبعد المصور الهولندي «موندريان» (١٨٧٢-١٩٤٤) من البارزين في هذه المدرسة. يقول عنه برتليمي: «إنه ذهب إلى حد استبعاد كل عنصر تشكيلي غير الخط المستقيم والزاوية القائمة، واعتبار الخط المائل سراباً لا لزوم له[١]».

ولئن تحرر الشكل من مضمونه في التجريدية ومقدماتها، فإن مذاهب أخرى اتجهت وجهة ثانية، حيث أرادت من الفنان أن يفرغ من الواقع فيرتقي فوقه، كما أرادت له أن يتحرر من الوعي ليبحث عن اللاوعي، وأصبح «الوهم» هو المطلوب. إذ هو المضمون الذي يبحث عنه الفنان ليلبسه الرداء المناسب من خزانة عقله الباطن...

هذه المذاهب هي ما عرف بـ«الرمزية» و«السريالية»...

«فالرمزيون لا يهتمون بالموضوع كما هو في الخارج، بل يحاول الفنان الرمزي أن يستبطن مشاعره وأن يعبر عنها دون التزام بحقيقة الموضوع الخارجي، فالفن تعبير شخصي. يقول سيزان: لم أحاول أن أكرر الطبيعة في عملي. ــ أي أن أقدم نسخة مطابقة لها ــ بل إني أعبر عنها. أ.هـ. أي أنه لا ينقل عن الموضوع أو الإحساس المرتبط بالموضوع بل يلجأ إلى نفسه وإلى مشاعره الباطنية[٢]».

وفي السريالية نجد «طرازاً من الفنانين السرياليين (فوق الواقعيين) يبلغ من اكتمال صفة الانطوائية ألا تداخله أية رغبة أخرى عدا التعبير ــ من خلال الآلية الذاتية الحركة لوجداناته ــ عن الصور الكامنة عنده في اللا شعور...

ويحاول الشخص السريالي إسقاط طاقته النفسية اللاشعورية على الأشياء الخارجية[٣]».

وهكذا لم يعد الشكل يُرى كما هو في واقع الحال، ولم يعد المضمون يدرك من خلال العقل الواعي.. بل من خلال اللاوعي.. وضاعت هوية الشكل كما ضاعت هوية المضمون.

---

(١) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٢٥٧.

(٢) فلسفة الجمال الهامش، أبو ريان ص ٢١٦ نقلاً عن (الفن المعاصر هربرت ريد ٥١).

(٣) التربية عن طريق الفن. هربرت ريد ص ١٣٧-١٣٨.

تلك كانت إلمامة سريعة بالخطوط العريضة لبحث «الشكل والمضمون». ويحسن بنا أن نقف وقفة تأمل نستطلع فيها الأسباب التي كانت وراء ذلك:

(١) إن الفن لم يكن في عزلة عن المجتمع في يوم من الأيام، ولذا فهو متأثر به ومتفاعل معه، رضيت بذلك المذاهب التي ترتفع بالفنان فوق البشر أم لم ترض.

وإذا كانت هذه حقيقة مقررة، فما لا شك فيه أن الفن الحديث تأثر إلى مدى بعيد بالنظريات الفلسفية التي سادت الحياة الأوربية، وفي مقدمتها: نظريات المادة وفلسفات العبث. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن «بيكاسو» رائد التكعيبية كان صديقاً لـ«سارتر» (١٩٠٥-١٩٨٠) أحد أعلام الوجودية، وكذلك لعذرائه «سيمون دي بفوار» ـ الوجودية الكبيرة ـ وواضح في الكثير من لوحات بيكاسو تأثره بعبث الوجودية وفلسفتها.

(٢) إن كل فن له خصائصه التي تميزه، وميدانه الذي يعمل فيه، ولغته التي يعبر بها، وحينما نطلب من فن ما أن يؤدي مهمة فن آخر فإننا لن نصل إلى الإبداع إن لم نصب بالفشل.

وهذا ما حدث لفن التصوير أو الرسم إذ جعل بعض الفنانين هدفهم أن يصلوا به إلى مستوى فن الموسيقى، وجعل بعضهم الآخر هدفه الوصول به إلى مستوى فن المعمار، ومن المعلوم أن كلا الفنين (الموسيقى والمعمار) يتحد فيها الشكل والمضمون، أو لنقل إن الشكل هو المضمون. والرسم فن آخر غير الموسقى وغير العمارة.

وقد أدى هذا الاتجاه إلى ظهور أعمال فنية نترك للقارىء الحكم على مقدار فنيتها كلوحة «مالفيتش» التي كانت مربعاً أسود فوق خلفية بيضاء، وكان من دفاعه عنها تجاه النقد الذي وجه إليه: «بأن المربع كان مليئاً بكل المشاهد المرئية المرفوضة التي لم تظهر في اللوحة، فالمربع هو الغياب التام لكل شيء، وكان هذا المربع في حالة حمل لأنه كان مفعماً بالمعاني، فهو ذروة التجريد الذاتي[١]..».

---

(١) علم الجمال. الديدي ص ١٣٢.

ولكن «مالفيتش» الذي أتقن فلسفة الهندسة التي أعجب بها، غابت عنه فلسفة الألوان، فقد جعل مربعه باللون الأسود، واعتبره مليئاً بكل المشاهد.. وأنه الغياب التام لكل شيء.. ولكن «الأسود» ليس لوناً في رأي الفقيه ابن حزم الأندلسي[1] (٣٨٤-٤٥٦هـ) (١٠٦٦م). كما أكد ذلك فيما بعد بزمن طويل «أوجين شيفرول» عام (١٨٣٩م) في كتابه (في قانون التزامن المتغاير لألوان الأشياء وعلاقة ذلك بالرسم) حيث برهن على أن «الأسود» غير موجود وأن لون الليل هو البنفسجي الغامق[2].

وإذا كان «الأسود» ليس لوناً فلن يُغيب شيئاً.

(٣) إن الخروج على سلطان الكنيسة علَّم الأوربيين الخروج على كل شيء وأصبح التحلل من كل سلطان سمة العصر الحديث. وما المدارس الفنية المتعاقبة إلا البيان العملي لهذا التحلل، فكل مدرسة تريد التحلل من القيود التي فرضتها مدرسة قبلها.. حتى وصلنا إلى الدادية والسريالية والتجريدية... وما كان عيباً فنياً في يوم من الأيام أضحى غاية وهدفاً وجمالاً...

(٤) كما كان للثورة الأدبية في فرنسا أثرها الكبير في سير المدارس الفنية حتى بانت تسمية المدارس الأدبية نفسها تسمية لبعض المدارس الفنية...

إن هذه الأسباب وغيرها كانت عوامل في تداعي الفن وهبوط مستواه وفقدانه الكثير من مقوماته. ولعل ما قاله «جوته»[3] عن آثار الثورة الأدبية في فرنسا على الأدب ينطبق تماماً على الفن. قال جوته:

«لا يمكن تجنب التطرف في أية ثورة، فالثورة السياسية في مبتداها لا تبتغي غير إزالة الفساد، ولكنها توغل بعد في الإرهاب وسفك الدماء، وهذا شأن الثورة الأدبية الفرنسية اليوم، فهي لم تكن تبتغي في مبتداها شيئاً غير أن تظفر بقدر أكبر من الحرية في الشكل، ولكنها لم تتوقف عند تلك الطلبة بل تجاوزتها إلى رفض المضامين الموروثة ورفض الشكل معاً. لقد أخذوا يعدون تمثيل العواطف السامية

---

(١) انظر الملل والنحل لابن حزم ١٣٧/٥ حيث تجد البحث مفصلاً في ذلك.

(٢) مجلة الفيصل عدد ٥٣ عام ١٤٠١هـ ص ٤٦ موضوع أعده د. فوزي الأحدب.

(٣) جوته (١٧٤٩-١٨٣٢) شاعر وكاتب ومسرحي وروائي ألماني. يعدونه أعظم أدباء ألمانيا.

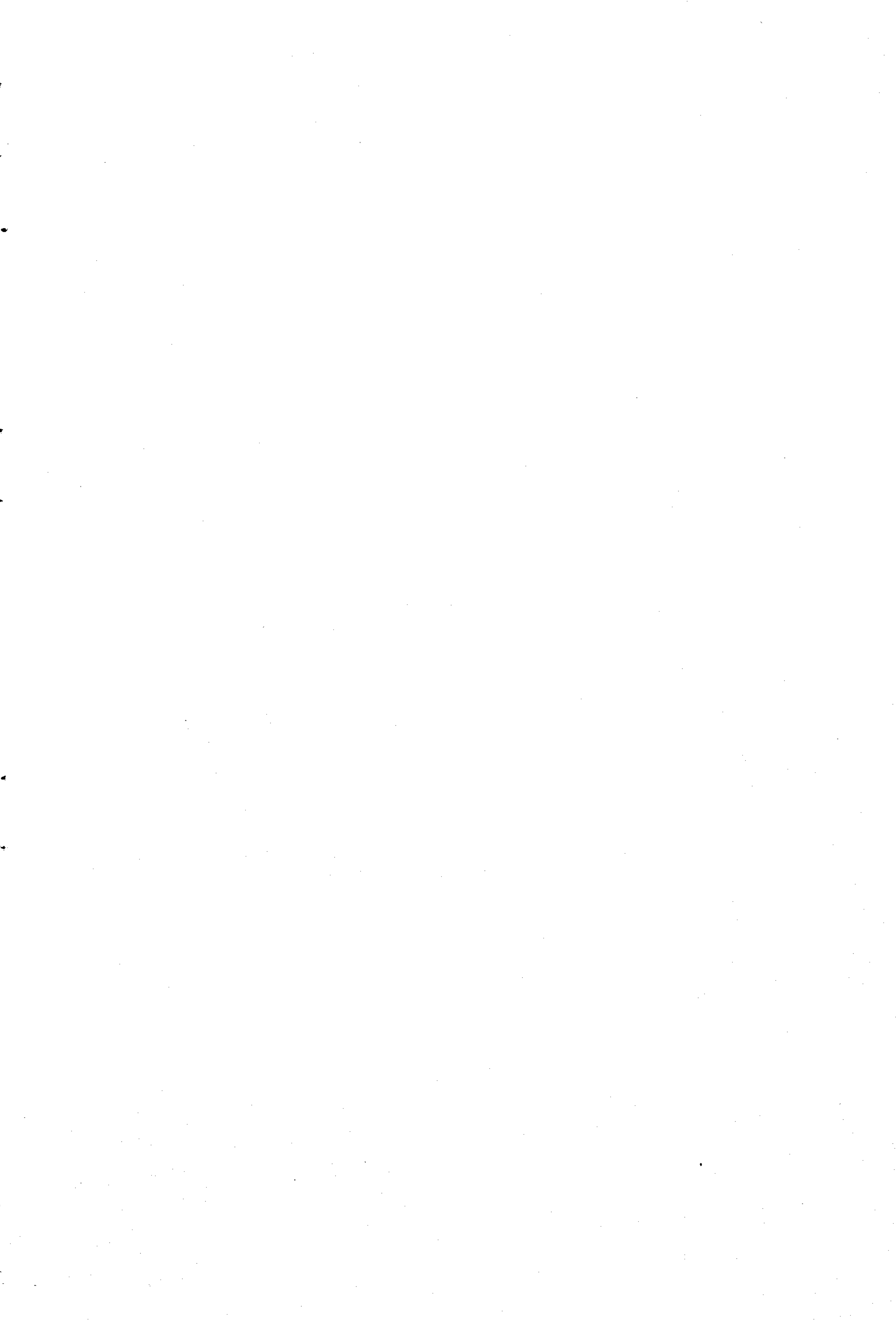
والأعمال النبيلة ثقيلة على النفس وباعثة على التقزز فأبدلوا الموضوعات الجميلة.. وأتوا بموضوعات عن الشياطين والسواحر والجن. وأحلوا المشعبذين وعبيد البحر محلة أبطال القديم العظماء[1]..».

و يبدي «برتليمي» حزنه الشديد لما آلت إليه حال الفن فيقول: «ما من شيء يبعث فينا الاكتئاب أكثر من بعض معارض فن يدعي أنه تجريدي، حيث لا نرى لوحة إلا نادراً، ولا نرى فيها أية صورة، هذه تجربة عدم الكيان التشكيلي، وهي تجربة لا تعويض فيها[2]».



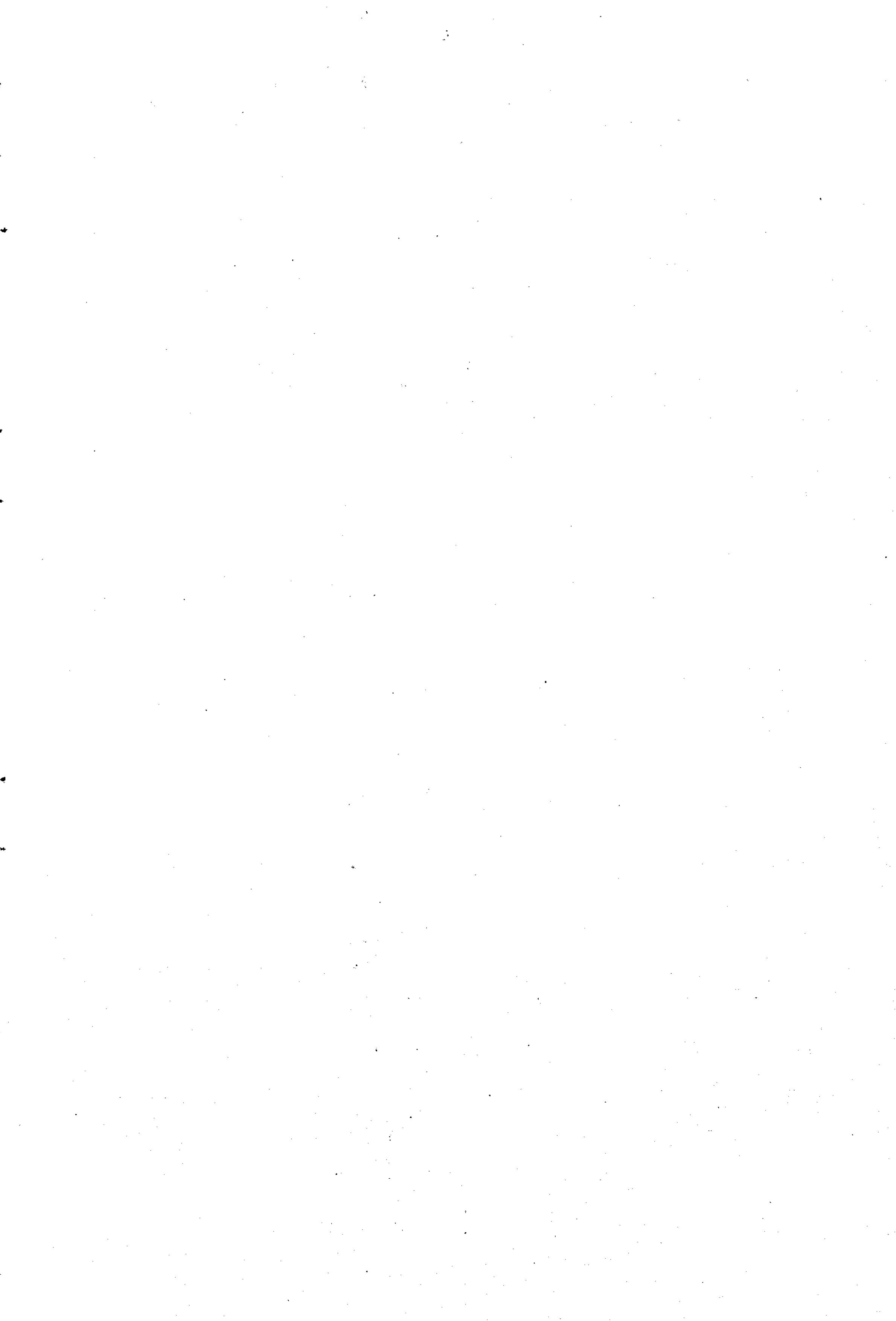
(١) في النقد الحديث. د. نصرت عبد الرحمن ص ١٣٦. مكتبة الأقصى عمان ط ١.

(٢) بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٢٥٨.



الباب الثاني

الظاهرة الجمالية في الإسلام



إن علماء الجمال حينما بحثوا في أمر العلاقة بين «الجمال» و«الدين» لم يكن لآرائهم جامع يضم بعضها إلى بعض أو ينسق فيما بينها، بحيث تبدو موضوعية إلى حد ما، وإنما نجد هذه الآراء منتشرة على ساحة البحث في غير تنسيق أو ترتيب، شاغلة تلك الساحة من أقصاها إلى أقصاها، ففي أحد الطرفين نجد الذين ينادون بأن الجمال منبثق عن الدين، كما نجد في الطرف الآخر من ينكر أي علاقة بينهما، وفي مقدمة هؤلاء بعض رجال الكنيسة، وبين هذين الطرفين آراء كثيرة..

والمهم في الأمر، أن الذين رأوا الصلة وثيقة بين الجمال والدين لم يقدموا دليلاً على دعواهم، فضلاً عن أن يقدموا نظرية ما بهذا الصدد.

ولكنا ونحن نتحدث عن الإسلام نجد أنفسنا أمام ظاهرة جمالية مترامية الأطراف استقرت قاعدتها في جذر شجرة الإسلام لتحوط السوق بروائها وتنساب بعد ذلك من خلال الأغصان مغذية الأوراق والثمار، وإذا الحيوية والرونق هما الظاهر البادي للعين ومن ورائه الحقيقة الجمالية.. إنها الصبغة الإلهية لهذا الدين.

إن الجمال هنا حقيقة تأخذ أبعادها كعنصر له من الأصالة والأهمية والرعاية ما لغيره من الحقائق الأخرى، إنه عنصر قد روعي اعتباره ووجوده في أصل التصميم، ولذا فهو ليس في «بناء الإسلام» من باب النوافل والتحسينات التي يمكن الاستغناء عنها[(١)] إنه عنصر يدخل في تكوين المادة التي تصنع البناء نفسه.

وإذا كان الإسلام في نظرته الشاملة للكون والإنسان والحياة، قد وضع بين يدي المسلم التصور الشامل للألوهية وللوجود الكوني وللحياة والإنسان، فإنه بذلك يضع حجر الأساس في بنائه الجمالي القائم على التناسق الرائع في هذا التصور الكلي الذي خلت منه، وقصّرت عنه، كل المعتقدات والنظريات الأخرى.

---

(١) حديثنا هنا عن الجمال كعنصر في أصل الخلق، وكصفة لصنعة الخالق سبحانه وتعالى، أما شأن الجمال ومكانته في أمور الحياة من حيث ترتيبها وأهميتها بالنسبة للإنسان، فهو من باب التحسينات التي تلي الضروريات والحاجيات، كما سيأتي بحثه إن شاء الله.

فالعلاقة ــ هنا ــ بين الإنسان والكون علاقة ودٍّ وتفاهم، وكذلك هي بين الألوهية والعبودية، علاقة رحمة وهداية، والأيام التي يقضيها الإنسان في هذه الحياة على ظهر هذا الكوكب ليست نهاية المطاف.. بل هناك حياة أخرى.. فالغاية موجودة.. وليس العبث هو كل ما في الوجود، وليست الغربة هي طابع الحياة.. وليس الصراع مع القدر هو التعبير عن الوجود(١).

وغدت نظرة المسلم نتيجة لهذا التصور نظرةً شاملةً كلية، لا تنطلق من زوايا ضيقة، ولا تحدها أطر مادية كثيفة تمنعها من أداء مهمتها، ونفاذها إلى حقائق الوجود.

إن حديثنا عن الجمال في الإسلام. لن يكون حديثاً عن الجمال في الفن، ــ كما هو الشأن في كتب علم الجمال ــ ولكننا نتحدث عن الجمال في مجالاته الكبرى في الكون... والإنسان.

والإنسان... وما أدراك ما الإنسان؟ لن نكتفي بالوقوف معه كظاهرة جمالية أبدعها الله، كما أبدع كل شيء خلقه، بل سنتحدث عنه مخلوقاً حُمِّل الأمانة ووضِعَت بين يديه تربية غايتها الوصول به إلى الجمال. جمال المظهر، وجمال المعنى، الجمال الإيجابي والجمال السلبي.. وإذا تحقق له ذلك.. فحينئذ يكون قد وصل إلى تطابق الجمال الخلقي ــ الذي صنعه الله ــ مع الجمال الكسبي الإرادي ــ الذي أريد منه تحقيقه ــ وبهذا تتحقق إنسانيته التي أرادها الله له(٢).

ونقف مع الإنسان مرة ثالثة، في إنتاجه الجمالي «الفن»(٣)، لننظر إلى الفنان المسلم وهو ريشة في يد هذا الدين يخط بها التزام العقيدة ــ لا إلزامها ــ فإذا به جزء من حركة هذا الدين تنشىء لوحة الفن في كمالها وبهائها بعيداً عن سفاسف الأمور وترهاتها، صورة الفن وقد التقى عالم الأرض بعالم السماء فإذا بالراية راية هذه العقيـدة «جبريل تحت لوائها ومحمد(٤)».

---

(١) تلك نظرة تشترك فيها الكثير من الفلسفات المادية كالوجودية والماركسية.

(٢) هذا البحث سيكون تحت عنوان التربية الجمالية في الإسلام.

(٣) هذا البحث سيكون في صدد حديثنا عن ميادين الجمال.

(٤) هذا عجز بيت من شعر حسان رضي الله عنه «جبريل تحت لوائنا ومحمد».

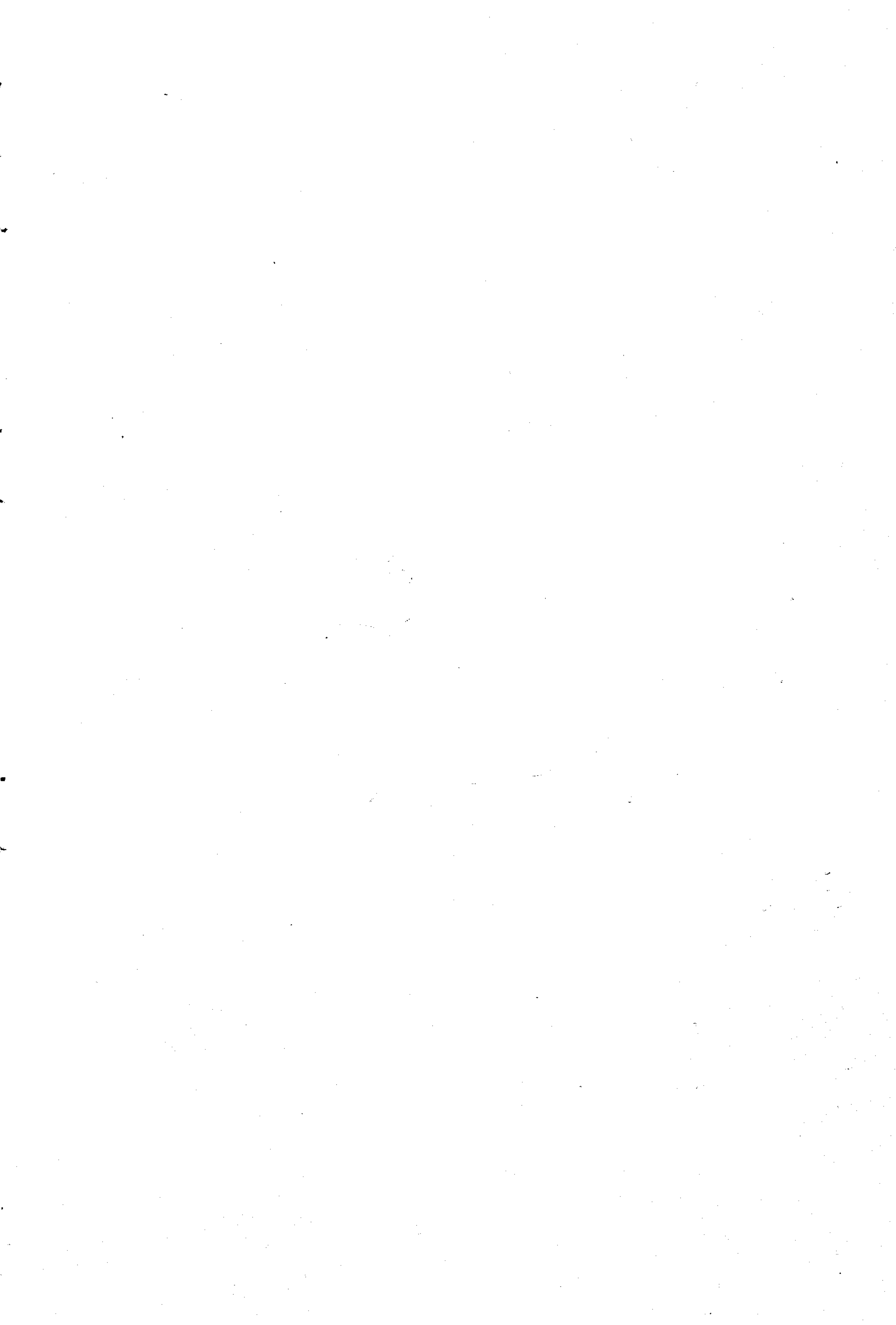
وحديثنا في هذا الباب عن «الظاهرة الجمالية في الإسلام» سنبين فيه أصالة الجمال في المنهج الإلهي. إذ هو مقصد من المقاصد التي أمر الإنسان بالسعي إلى تحقيقها في ذاته وفيما يحيط به. كما نبين فعّالية الجمال وارتباطه بالعقيدة وبلوازمها كذلك... بحيث تكون القناعة كاملة، إن شاء الله، بأننا ننطلق من أساس متين لا يقوم بنيانه على التجميع من هنا وهناك وإنما عناصر البنيان من مادة الأساس ذاتها، فلا تعارض إذن ولا تنافر.. إنه من تلك الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإنه لكذلك لأن النصّ القرآني هو المادة والدليل...

وسيكون بحثنا ضمن فصول يسبقها تمهيد عام للتعريف بالجمال ومكانته.. وأما موضوعات الفصول فهي:

الفصل الأول : الجمال مقصود في أصل الخلق.
الفصل الثاني : تأثير الجمال في النفس الإنسانية.
الفصل الثالث : الجمال والقضية الكبرى.
الفصل الرابع : العموم والشمول.
الفصل الخامس : الظاهر والباطن.
الفصل السادس : سمات الجمال.
الفصل السابع : التصور الكلي للظاهرة الجمالية.







(١) الألفاظ الجمالية .

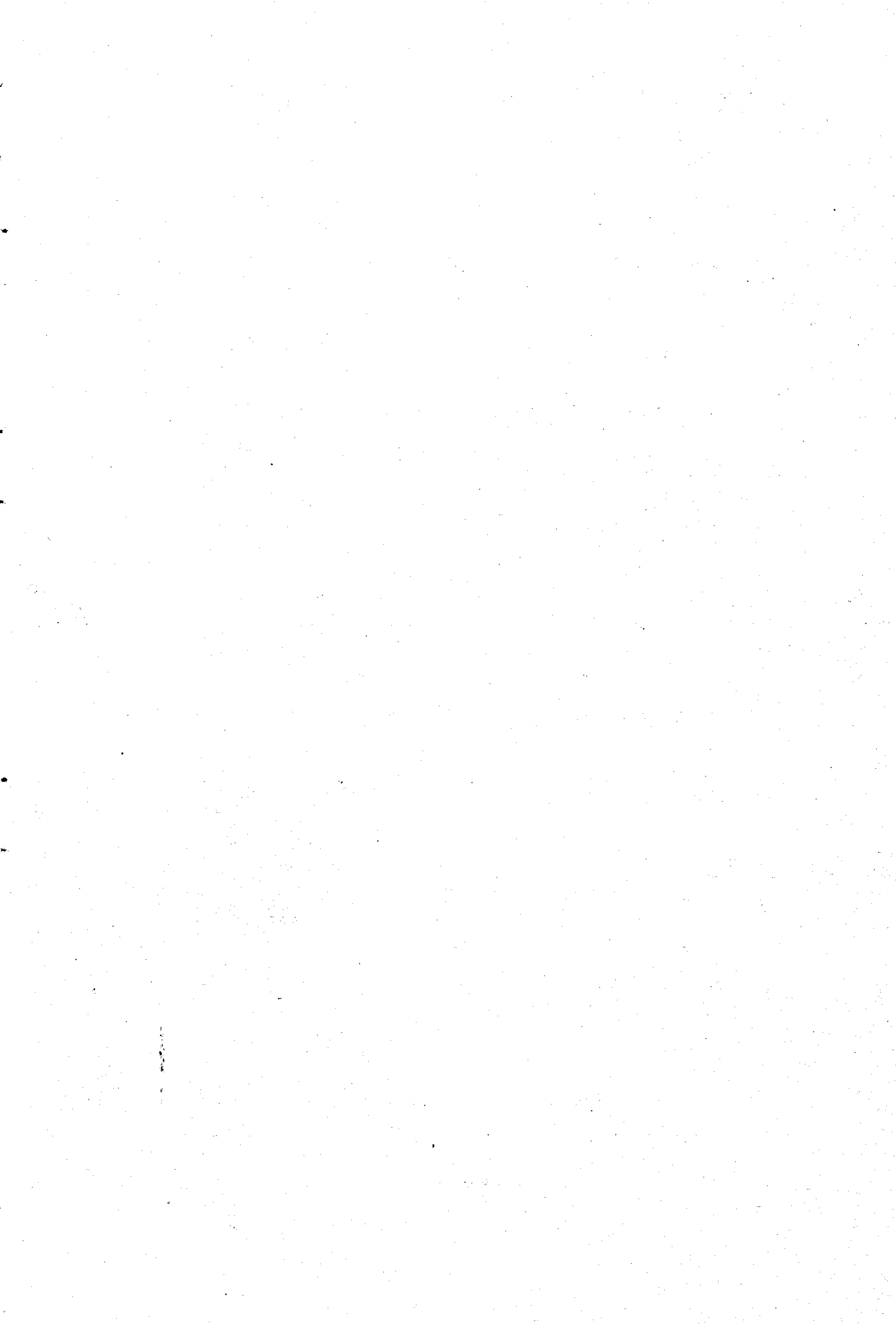
(٢) التعريف بالجمال .

(٣) حقيقة الجمال .

(٤) الجمال والقيم .

(٥) الجمال والمنفعة .

(٦) مكانة الجمال .



تحدثنا في الباب الأول عن مفهوم الجمال من وجهة نظر «علم الجمال» الحديث، ونتحدث عنه هنا من وجهة نظر الفكر الإسلامي.

وفي هذا التمهيد نحاول التعرف على رأي اللغة وكذلك بعض الآراء التي تناولت تعريف الجمال، وبعدها نتحدث عن حقيقته. فإذا تم لنا ذلك استطعنا أن ننتقل إلى علاقات الجمال، علاقته بالحق والخير، ثم علاقته بالمنفعة. والتعرُّف على مكانته بعد ذلك.

(١) الألفاظ الجمالية:

استعملت اللغة العربية الكثير من الكلمات للتعبير عن الجمال. بعضها في المجال العام وبعضها الآخر في مجالات خاصة.

في كتاب «فقه اللغة» للثعالبي نجد فصلاً تحت عنوان: في تقسيم الحسن. حدد فيه لكل كلمة مجال استعمالها، فقال:

الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والظِرف في اللسان، والرشاقة في القد واللباقة في الشمائل، وكمال الحسن في الشعر.أ.هـ.

واستعمل القرآن الكريم الكثير من الألفاظ للتعبير عن الجمال ومن ذلك: الجمال والحسن، والبهجة، والنضرة، والزينة. كما أشار إلى بعض وسائل التجميل كالحلية والريش والزخرف... كما استعمل ألفاظاً أخرى للتعبير عن آثار الجمال منها: السرور والعجب ولذة الأعين...

على أن المرجع في هذا الموضوع يؤول إلى كلمتين رئيسيتين هما: الجمال والحسن، وسنقف على بعض ما ورد بشأنها في «لسان العرب» وغيره:

الجمال:

مصدر الجميل، والفعل: جَمُل.

قال ابن سيده: الجمال: الحسن يكون في الفعل والخَلْق.

قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني. ومنه الحديث (إن الله جميل يحب الجمال) أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف. أ.هـ. لسان.

وجاء في الصحاح: جمَّله: زينه.

الحسن:

الحسن: ضد القبح ونقيضه.

حسنت الشيء: زينته.

والحسنة: ضد السيئة. والإحسان: ضد الإساءة.

و(أحسن كل شيء خلقه) يعني حسَّن. يقول: حسَّن خلق كل شيء. أ.هـ. لسان. وجاء في القاموس المحيط وكذلك في الصحاح: الحُسْنُ: الجمال.

و يوضح لنا أبو هلال العسكري في كتابه «الفروق في اللغة» الفرق بين الكلمتين فيقول:

«والحسن في الأصل للصورة، ثم استعمل في الأفعال والأخلاق،
والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استعمل في الصور».

و يلاحظ أن القرآن الكريم استعمل لفظ «الجمال» في نطاق ضيق لم يتجاوز ثماني مرات. واحدة منها بصيغة المصدر، والباقي كانت صفة. وكلها في مجال الأخلاق باستثناء قوله تعالى ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾، يعني الخيل والإبل. وحتى في هذه الآية فإن أبا هلال العسكري يراه من باب الوصف المعنوي حيث يقول: في صدد الفرق بين الحسن والجمال أيضاً: «إن الجمال هو ما يشتهر و يرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحسن في شيء، ألا ترى أنه يقال لك: في هذا الأمر جمال، ولا

يقال لك فيه حسن، وفي القرآن ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾[1]».

أما لفظ «الحسن» فقد ورد في القرآن الكريم كثيراً، في صيغه المختلفة. وقد استعمل في الصور كما استعمل في المعاني.

ونستطيع القول: إن الفرق الذي بينه أبو هلال بين الكلمتين غاية في الدقة، وإن كان الاستعمال العام قائماً على مساواة الكلمتين مع بعضهما كما جنح إليه صاحبا القاموس والصحاح حيث فسرا الحسن بالجمال.

(٢) التعريف بالجمال:

لفت القرآن الكريم النظر إلى الجمال عن طريق الحديث عن آثاره، التي قد تكون آثاراً على العين أو على النفس، وقد جاء في الآيات الكريمة ما يوضح ذلك:
قال تعالى: ﴿...إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾[2] فالسرور أثر من آثار رؤية الجمال. قال صاحب الظلال[3] في تفسير الآية الكريمة: وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة.

وقال تعالى في صدد الحديث عن الجنة: ﴿... وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين﴾[4]. ولذة العين أثر من آثار رؤية الجمال.

وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾[5]. فالإعجاب[6] تعبير النفس عن تأثرها بالحسن.

---

(١) الفروق في اللغة ص ٨١.
(٢) سورة البقرة. الآية ٦٩.
(٣) تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب رحمه الله.
(٤) سورة الزخرف. الآية ٧١.
(٥) سورة الأحزاب. الآية ٥٢.
(٦) عجب ــ في اللغة ــ: رأى شيئاً لم يكن يعرفه فاستحسنه.

وهكذا تهتم الآيات الكريمة بتسجيل أثر الجمال على النفس، إذ به يعرف، وبمدى قوته يعرف مقدار الجمال(١).

وقد حاول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله (المتوفى ٥٠٥هـ، ١١١٣م) أن يضع تعريفاً للجمال فقال في صدد حديثه عن معنى الحسن والجمال:
«حسن كل شيء في كماله الذي يليق به».

و يوضح ذلك بقوله: «كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال. وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن: هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرٍّ وفرٍّ عليه. والخط الحسن: كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به... فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء»(٢).

وهذا كلام جيد يتناول الجمال الظاهر والجمال الباطن، وإن كانت الأمثلة التي ضربها كلها من الجمال الظاهر.

وقال ابن القيم رحمه الله (المتوفى ٧٥١هـ، ١٣٥٢م):
«إعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر و باطن:

---

(١) لم يجد كبار الفلاسفة، من بعد، أفضل من هذه الطريقة ــ تعريف الجمال بآثاره ــ فلجؤوا إليها يُبيّنون مفهوم الجمال:
قال «كانت»: إن الجميل هو الذي يبعث السرور بصورة كلية و بدون تصور محدد. (بحث في علم الجمال. برتليمي ص ٣٨٢).
وقال «برادين»: نحن نسمي ما يخطف لُبّنا حقاً، شيئاً جميلا، وليس لدينا مبدأ آخر للجمال غير هذا (المصدر السابق ص ٣٨٣).
و يذهب جورج سنتايانا إلى أن الجمال قيمة إيجابية باطنية ذات وضع محسوس، أو بعبارة أخرى: هو المتعة النابعة من صفة شيء من الأشياء. (علم الجمال الديدي. ص ٤٠).

(٢) إحياء علوم الدين ٢٩٩/٤. طبقة دار المعرفة. بيروت.

فالجمال الباطن: هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة..

وأما الجمال الظاهر فزينة خصَّ الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة»[1].

ويلاحظ أن الإمام الغزالي اعتمد على بيان الحالة التي ينبغي أن تتوفر في الشيء حتى يكون جميلاً. فلا بد أن يكون سليماً من العيوب ثم يرتقي بعد ذلك في سلم الكمال، ودرجة جماله مرتبطة بمقدار ارتفاعه في ذلك السلم.

ويكتفي الإمام ابن القيم ببيان مجالي الجمال وهما: الباطن والظاهر. موضحاً ذلك بالأمثلة.

وعلى هذا فلا تعارض بين الرأيين إذ كل منهما تناول الموضوع من جانب غير الجانب الذي اهتم به الآخر. والإمامان لم يصرحا بأنهما يعرّفان الجمال، وإنما كانا يتحدثان عن مفهوم الجمال. ذلك أن التعريف أمر غير ممكن لما ذكرنا في الباب الأول. ومع ذلك نستطيع أن نقول إن ما توصل إليه الإمام الغزالي يكاد يكون تعريفاً.

(٣) حقيقة الجمال:

هل للجمال حقيقة قائمة موجودة؟ أم هو مجرد شعور نفسي تجاه شيء ما. وهذا الشيء لا يوصف بجمال ولا قبح، وإنما شعورنا هو الذي جعله كذلك. وعلى هذا لا يوجد شيء جميل أو قبيح لذاته.

وما كانت القضية تحتاج كبير اهتمام لولا أن بعضهم ذهب إلى الرأي الثاني. الأمر الذي يفضي إلى عدم استقرار المفاهيم، فما كان في نظرك حسناء ربما كان في نظر غيرك قبيحاً. ذلك أن الشيء أو الفعل ـ حسب رأيهم ـ ليس فيه قبح ولا حسن لذاته.

---

(١) روضة المحبين. فسر غريبه وراجعه: صابر يوسف ص ٢٢١.

والقرآن الكريم ـــ كما رأينا ـــ رتب الآثار على رؤية الجمال وجعلها عامة، فقال في وصف البقرة ﴿تسر الناظرين﴾ و«الناظرين» تشمل كل ناظر. فلو لم يكن الجمال قائماً موجوداً فيها لما كان السرور عاماً يتناول كل من رآها.

وفي وصف الجنة ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ جعل اللذة لكل عين يتاح لها تلك الرؤية.. وهكذا فلو لم يكن الجمال مستقراً فيها لكانت هي وغيرها سواء ولكانت اللذة لبعض الأعين.

وقد تكلم الإمام الغزالي في هذه القضية، ولم يستوقفه وجود الجمال في المحسوسات فتلك بدهية لا تحتاج إلى برهان ولكنه انصرف إلى تقرير وجود الجمال في غير المحسوسات أيضاً فقال: «فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة.. [1]».

ولنستمع إلى ابن القيم يدلي برأيه في هذه القضية: قال رحمه الله:
«وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هي؟ وهذا أمر لا يدرك إلا بالوصف... وقيل: الحسن معنى لا تناله العبارة ولا يحيط به الوصف [2]».

إنه يقرر وجود الحسن، وهذا أمر لا شك فيه، ولكنه يلفت النظر إلى وسيلة إدراكه.. وهذا الإدارك قد يكون الوصف وسيلة له، وقد يدق بعض الأحيان فيستعصي على العبارة.. ولكنه موجود.

وقد اهتم علماء المسلمين في وقت مبكر بهذه المسألة، والتي عرفت في علم أصول الفقه باسم «مسألة التحسين والتقبيح»، ونحن هنا لسنا أمام أراء فردية وإنما أمام آراء مدرسية. ويحسن بنا أن نلخص هذه المسألة بقول موجز [3].

والمسألة هنا تتعلق بالأفعال فقط، ولا تتناول الأشياء، ولكنها مع ذلك تناقش أصل المسألة وهي قضية الحسن الذاتي والقبح الذاتي.

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٩/٤.

(٢) روضة المحبين: ص ٢٣٢.

(٣) نلخص هذا الموضوع من كتاب: «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله. ٢٣٠/١ وما بعدها. الكتاب بتحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت.

ومحور المسألة هو:

هل الأفعال منقسمة في الأصل إلى: حسن وقبيح. أي أن الحسن والقبح ذاتي فيها؟ أم أنها غير منقسمة إلى حسن وقبيح، وأن الحسن والقبح جاءها من الأمر والنهي الوارد بالشرع، وفي الأصل هي سواء؟

ونستطيع أن نقول: هناك ثلاثة مذاهب:

□ ذهب «القدرية» إلى أن الأفعال كلها سواء، ولا أثر للعقل في التحسين والتقبيح ومرجع ذلك إلى الشرع.

قال ابن القيم: «وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً.. فإن هذا المذهب، بعد تصوره وتصور لوازمه، يجزم العقل ببطلانه. وقد دل القرآن على فساده في غير موضع. والفطرة وصريح العقل».

ونقتطف فقرة من كلامه في مناقشة هذا الرأي:

«إن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها، ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامّهم وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم، وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره».

□ وذهب المعتزلة إلى أن قبح الأفعال والعقاب عليها ثابتان بالعقل.

وقد بين ابن القيم غلط المعتزلة في قولهم بتلازم الأمرين أي القبح والعقاب وبرهن على غلطهم بأدلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾[1].

□ وذهب الكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع[2] إلى القول بأن حسن الأفعال وقبحها ثابت بالعقل، والثواب والعقاب متوقف على ورود الشرع.

---

(١) سورة الأسراء. الآية ١٥.

(٢) هم أتباع المذاهب الفقهية: المالكية، والشافعية، والحنفية، والحنابلة.

و يؤيد ابن القيم هذا القول و يبين حججه وأدلته...

ونخلص من هذا كله إلى أن الغالبية العظمى من أهل السنة وكذلك المعتزلة متفقون على أن الحسن والقبح يثبتان بالعقل. وهذا يعني أن الحسن حقيقة قائمة في ذات الشيء، ولهذا استطاع العقل الاهتداء إليها.

وإذن فالجمال له حقيقة، وهذه الحقيقة تظهر من خلالَ «موجود» تكون صفة له، قد يكون هذا الموجود شيئاً وقد يكون فعلاً. وعلى هذا لن يختلف المشاهدون على وجود الجمال في أمر جميل، وإن كانوا قد يختلفون تبعاً لشعورهم على درجة ذلك الجمال. فيكون استشعاره وقوة تأثيره لدى إنسان أكبر منها لدى إنسان آخر. قال الإمام ابن حزم «إن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة»[1]. فأكد بذلك أن الشعور يرفع درجة الحسن ولكنه لا يوجده إذا كان معدوماً.

وإذا كان الجمال حقيقة، فما هي وسيلة إدراك هذه الحقيقة؟ وكيف يمكننا التعرُّف عليها:

ونكتفي في إيضاح هذا الجانب بنقل رأي الإمام الغزالي حيث قال:
«والصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما.
وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر.
والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة[2]».

و يعطينا أمثلة لمدركات الحواس فيقول: «فلذّة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة..، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة[3]».

«وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار[4]».

وهكذا يبين أن إدراك المحسوسات بالحواس، وإدراك المعاني بالعقل.

---

(١) نوادر الإمام ابن حزم. خرجها أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري. السفر الأول. ص ١٤٢.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/٣٠٠.
(٣) المصدر نفسه ٤/٢٩٦.
(٤) المصدر نفسه ٤/٢٩٧.

(٤) الجمال و «القيم»:

الحق والخير والجمال،... إنها حقائق في هذا الوجود.. وإنها قيم.

وهذا لا يعني أنها في لقاء دائم وأن بعضها لا يفارق بعضها الآخر. وإنما يعني بيان مستوى أهميتها في هذه الحياة.

فالجمال له شخصيته المستقلة في التصور الإسلامي. وهذا لا ينفي لقاءه مع الحق والخير، ولكنه أيضاً لا ينفي وجوده في مجالات لاحق فيها ولا خير.

وبناء على خاصية الشمول ـــ التي سيأتي الحديث عنها ـــ فإن الحق والخير هما من الميادين التي للجمال فيها كلمة ورأي.

فالخير خير، ولكنه إذا زيّن بالجمال كان أقرب إلى الكمال.

والحق حق ولكنه إذا زيّن بالجمال كان أدق في تحقيق العدل.

فالأمر بالمعروف خير، ولكنه إذا كان بأسلوب مهذب، بعيداً عن الفظاظة والغلظة، أي كان بالمعروف،... كان أقرب إلى تحقيق الجدوى.. لأنه في هذه الحالة أجمل.

والصدقة على الفقير والمحتاج خير ولكنها إذا كانت على طريقة علي زين العابدين[١] رحمه الله كانت خيراً وجمالاً.

وقد يوجد الجمال حيث لا يوجد الخير وقد أشار القرآن الكريم إلى مثال على ذلك بقوله ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾[٢]، فقد وجد الجمال هنا لدى المشركة ولكنه لم يوجد الخير.

وهكذا.. فللجمال كيانه المستقل وصداقاته الحميمة..

(٥) الجمال والمنفعة:

يظن بعضهم أن الجمال يُسعى إليه على اعتباره وسيلة لما وراءه من منفعة أو لذة، فهو وسيلة والمقصود ما وراءه... وليس الأمر كذلك.

---

(١) يروى عنه أنه كان يكرم السائل و يقول له: أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة.

(٢) سورة البقرة. الآية ٢٢١.

إن الجمال من الأشياء التي تحب لذاتها لا لشيء آخر وراءها. فمنفعة الإنسان من الجمال هي متعة نظره أو سمعه أو شمه أو عقله، وليس هناك شيء آخر. وأي شيء أكثر نفعاً من أن تُلبّى حاجة من حاجات النفس الفطرية، فرؤية الجمال تلبية لحاجة النفس في هذا الجانب. وإذن فمنفعة الإنسان من الجمال حاصلة في الجمال ذاته.

و يفرق الإمام الغزالي تفريقاً دقيقاً بين لذة الجمال ذاته ولذة المنفعة الحاصلة من ورائه إن وجدت، وهنا يكون الإنسان أمام لذتين.. فيقول:

«إن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة... ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ، فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية... حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر[١]..».

وواضح من هذا أن للجمال استقلاله الكامل عن المنفعة، إذ منفعته فيه ذاته، وهذا لا يعني أن الجمال لا وجود له حيث توجد المنفعة، وإنما المقصود أن له اعتباره الخاص، فقد يلتقي معها تارة و يبتعد عنها أخرى.

(٦) مكانة الجمال:

نستطيع التعرّف على مكانة الجمال من خلال التعرف على منزلته ضمن اهتمامات الناس، كما نستطيع معرفة ذلك من أوامر الشريعة التي جاءت لحفظ مصالح الخلق ورعايتها، وتصنيف هذه الأوامر، وترتيبها بحسب أهميتها ومعرفة موقع ما يتعلق بالجمال منها. وقد كفانا علماء الأصول مؤنه البحث حيث قاموا بعمليات استقرائية استطاعوا بعدها أن يضعوا النقاط على الحروف.

وقد قرر هؤلاء العلماء: أن الشريعة جاءت لحفظ مقاصد بها قوام الخلق

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٨/٤.

وتحقيق مصالحهم. وتنقسم هذه المقاصد إلى ثلاثة أقسام مرتَّبة الأهم فالمهم:

الضروريات.

الحاجيات.

التحسينات.

ويعدُّ كل قسم فيها كالمكمل والمتمم لما سبقه[1].

ونتساءل بالنسبة «للجمال» أين مكانه؟ وإلي أي قسم ينتمي؟

ولنترك الكلام للإمام الغزالي يحدد لنا ذلك، بأسلوبه البليغ إذ اعتمد على الأمثلة باعتبارها أكثر بياناً من القواعد. فقال:

«ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد.

ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل.

ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم ــ الخارجة عن بدن الإنسان ــ: الماء والغذاء.

ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه.

ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة[2]».

---

(١) فصل الإمام الشاطبي (المتوفى ٧٩٠هـ) هذا البحث في كتابه «الموافقات» ج ٢ ص ٣ وما بعدها. ونلخص الخطوط العريضة بإيجاز:

قال ــ رحمه الله ــ: «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام، أحدها: أن تكون ضرورية، والثاني: أن تكون حاجية، والثالث: أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية: فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة.. وفي الأخرى فوت النجاة..

ومجموع الضروريات خمسة هي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة.. وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات...

وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات... وهي جارية فيما جرت فيه الأوليان من العبادات والعادات والمعاملات..».

(٢) إحياء علوم الدين ٣٠٣/٤.

يتضح من هذا أن الجمال من قسم التحسينات، وهذا يعني أن الأشياء تصل إلى كمالها به، على أن هذا التقسيم يلفت نظرنا إلى أمرين:

أولها: أن الجمال في شيء فَقَدَ ضرورياته أو حاجياته جمال مآله إلى الفساد (١).

ثانيها: أن التحسينات لا بد أن تكون مأخوذة بالاعتبار ابتداء من تعاملنا مع الضروري، حتى تكون متناسقة معه ومع الحاجي.. وحينئذٍ نصل إلى الجمال (٢).

وإذن فالجمال عنصر في تركيب الشيء، وهو مع ذلك في مكان الذروة منه وهو في الوقت نفسه غير ضروري ولا حاجي.

إن العين ضرورية لعملية الرؤية، وسلامتها من الأمراض حاجة مهمة لإتمام تلك العملية بشكل كامل، ولكن سعة العين ولونها أمر جمالي، ومع هذا فالسعة واللون داخلان في بناء العين ولكن عملية الإبصار لا تتوقف عليهما.

نخلص من هذا إلى أن الجمال من فئة الكماليات، أو كما قلنا من قسم التحسينات، هذا القسم الذي هو دائماً مهوى أفئدة الناس في قضاياهم المادية والمعنوية وهو الذي حث الإسلام على الوصول إليه في عملتي «الإتقان» و«الإحسان» اللتين سيأتي الحديث عنهما. والإسلام في تشريعه يريد دائماً من الملتزمين به أن يصلوا إلى هذا المستوى الكمالي أو التحسيني، إذ به يتمّزون صورة وسلوكاً.

إن قولنا ــ بهذا المعنى ــ «تحسيني» لا تعني أنه شيء لا قيمة له، أو لا ينبغي الحرص عليه، بل تعني أنه مهم وضروري لأن الدعوة إلى الوصول إليه تعني أن نتجاوز المرحلة الأولى والثانية لنصل إليه.

نكتفي بهذا القدر من هذه الجولة في التعرّف على الجمال معرفة أولية كي نستطيع التعامل معه في الفصول القادمة...

---

(١) وذلك كمن زين أو زخرف جداراً قبل تسوية سطحه مع علمه بأنه بني على غير أساس.

(٢) إن هندسة المظهر أو الشكل لا بد أن يحسب حسابها قبل البدء بالبناء ذاته.

الفصل الأول

الجمال مقصود في أصل الخلق

- الجمال مقصود.
- الجمال في الكون.
- الجمال في الإنسان.
- وسائل جمالية.



الجمال مقصود:

الجمال سمة واضحة في الصنعة الإلهية. فحيثما اتجهت ببصرك فثمة هناك ما يجذبك. بلونه الأخّاذ، أو بصنعته المحكمة ودقته المتناهية أو بتناسق أبعاده وتوازنها، أو بتآلف الألوان وتداخلها...

وإذا غفلت عن ذلك، فما هو إلا الإلف للأشياء والتعامل معها، قد جعلها عادية، أو لم تعد تلفت الانتباه.

تأمل في ليلك الهادىء، صفاء السماء وتلألؤ النجوم، واسبح بفكرك وراء تلك المسافات الشاسعة التي لم تعد تقاس بالأميال بل بالضوء..

تأمل القمر وقد أطل من علياء سمائه يبدد بنوره ظلمة الليل الحالك، فإذا بالأرض يغمرها ضياء فضي ينساب في كل جنباتها يضفي عليها الحب والحنان.

ومع أشراقة الشمس حيث تلامس خيوطها الذهبية تلك اللآلي البراقة من الندى وقد توّجت أوراق الشجر وبراعم الورد.. يحكى الجمال قصته..

وتلك الوردة.. وتلك الفراشة. تعانقت فيهما الألوان تعبيراً عن وحدة الصانع.

وتلك النبتة وقد تسلّقت ذلك الجدار وألقت بنفسها عليه فإذا به وقد اكتسى غلالة سندسية من أوراقها تدفع عنه برد الشتاء.

ومشهد الغروب وقد ودعت الشمس الكون مصافحة قمم الجبال ورؤوس البواسق من الأشجار، على أمل اللقاء..

وتلك اللحظات التي يتم فيها انسحاب النهار ليحل محله الليل، ذلك الانسحاب الهادىء، وكأنه النسيم وقد مر على وجه الحياة فأنعشها برقته ثم تركها فعادت مخلدة للراحة.

وهاتيك الرمال.. أطربتها الرياح بصفيرها فاستثارتها.. فإذا بها وقد استخفها الطرب تترك مكانها بعد هيام صاخب لتأوي بعد ذلك التعب إلى الراحة وقد تناسقت ذراتها في أوضاع هندسية تعجز عنها كل يد صناع.

وهذا الخيط الذي ينسج العنكبوت منه بيته، تأمل نعومته وليونته، وتأمل دقته.. ومع ذلك لو أتيح لك أن تراه تحت المجهر لعلمت أن هذا الخيط هو حزمة فيها مئات الخيوط.. إنه جمال الدقة اللامتناهي..

وتأمل خيط الحرير..

وتأمل تلك الصخور بألوانها المختلفة.

وتأمل الإنسان...

تلك كلها أمثلة من الصنعة الإلهية. ينشر الجمال فيها حديثه، دون أن يخل بالمهمة الملقاة على عاتقها فلا تعارض بين المهمة والشكل.

والقرآن يسجل هذه السمة بكلمات يسيرة فيها من جمال الإعجاز والإيجاز ما يتناسب مع عظمة المعنى وشموله. وذلك بقوله:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[1].

أجل: أحسن كل شيء.. والإحسان بلوغ الغاية في أداء المهمة التي أعدّ لها ذلك الشيء. وهو في الوقت نفسه تأكيد على مراعاة جانب الحسن والجمال.

واللفظ البارز هنا في الآية هو «أحسن» أي جعله حسناً وجميلاً يؤكد أن الجمال مقصود منه سبحانه وتعالى. إذ لو لم يكن الأمر كذلك لكان في قوله تعالى ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[2] ما يفي بالمقصود، وهو أن كل شيء خلقه الله تعالى قد استوفى عناصر أداء مهمته، وذلك بعض غايات الإتقان.

على أنا لا نستطيع أن نقول إن الإتقان لا يعني الجمال، وخاصة إذا كان الأمر متعلقاً بصنعة الله تعالى. فالإتقان هنا وصف بالجمال. وكل إتقان حق فلا بد أن يصل إلى الجمال.

---

(١) سورة السجدة. الآية ٧.

(٢) سورة النمل، الآية ٨٨.

ومع ذلك فإن القرآن لا يكتفي بهذا بل ينص على الأمر صراحة بحيث لا يبقى للشك مجال، وتأتي كلمة «أحسن» لتسجل «الحسن» مقصداً مهماً في مخلوقات الله.

وفي قوله تعالى «كل شيء» تأكيد على عموم هذا الأمر، واستقراره حقيقة في صنعة الله تعالى، كاستقرار الإتقان الذي تسجله آية النمل.

هل هناك ما هو أوضح وأصرح من هذا للدلالة على قصد الحسن والجمال في صنعة هذا الوجود من قِبَله سبحانه وتعالى؟؟

ومن باب تثبيت هذا المعنى مضافاً إليه التحدي والإعجاز يؤكد القرآن ذلك بقوله: ﴿هذا خلق الله. فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾[١]؟ إنهم لم يخلقوا شيئاً.

وإذا كان «الجمال» هو السمة التي يهمنا الحديث عنها، فلنستمع قول تفسير الظلال في بعض شرحه للآية الكريمة﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: «اللهم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين و يراه القلب و يراه العقل. الحق المتمثل في أشكال الأشياء ووظائفها. وفي طبيعتها منفردة وفي تناسقها مجتمعة، وفي هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو بعيد».

«سبحانه... كل شيء مقدر، لا يزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص. ولا يتقدم عن موعده ولا يتأخر، ولا يتجاوز مداه ولا يقصر.. كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام. كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان..».

«كل شيء... هذه السمكة، هذا الطائر.. ثم هذا الإنسان... وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت. وهذه الأفلاك والعوالم.. كل شيء.. كل شيء، حيثما امتد البصر متقن الصنع، بديع التكوين. يتجلى فيه الإحسان والإتقان».

---

(١) سورة لقمان. الآية ١١.

«والعين المفتوحة والحس المتوفر والقلب البصير، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه، وتراه في كل أجزائه وأفراده، والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن، يمنح الإنسان رصيداً ضخماً من ذخائر الحسن والجمال ومن إيقاعات التناسق والكمال، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق وتسكبها في القلب البشري، وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن. يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه في رحلته على هذا الكوكب. و يتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة».

«إن هذا الوجود جميل، وإن جماله لا ينفد، وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ما حدود، قدر ما يريد، وفق ما يريده له مبدع الوجود».

«إن عنصر الجمال لمقصود قصداً في هذا الوجود. فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء، يصل إلى حد الجمال..».

* * *

وإذا كانت المشاهدة هي البرهان فيما يُنظر، فإن هنالك من العوالم ما لا يقع تحت بصرنا، إما لأن آلية إبصارنا غير معدة لرؤيته أصلاً، وإما لأنه من الدقة بحيث لم تهيأ الوسائل بعد لإمكانية رؤيته. وسواء أكان ما غاب عنا من هذا الصنف أم من ذاك فإن عنصر الجمال أصيل فيه أصالة عنصر الجمال فيما يقع تحت حواسنا.

أنظر إلى ذرة من الثلج تحت المجهر، تر بناءً هندسياً هو الجمال بعينه. إن عيننا المجردة لم تكن قادرة على التعرف على هذا الجمال قبل وجود الوسيلة. ولكن الوسيلة ليست هي التي أوجدت الجمال، إنه موجود قبلها ووجوده في أصل التكوين.

إن الإنسان ليمتلكه خشوع شديد وهو يسمع قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[1]. إنه جلال القسم ورهبته. والمقسم هو الله تعالى... إن ما نبصر وما لا نبصر كلاهما من صنع الله وإذن فالصنعة واحدة والأسلوب واحد. وهكذا تكون آية القسم هذه تأكيداً آخر لقوله تعالى «كل شيء» في الآية السابقة.

الجمال في الكون:

﴿... ذلك عالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسن كل شيء خلقه﴾.

كانت الآية الكريمة موضوع حديثنا ونحن نتكلم عن قاعدة كلية في نظام الخلق، وهي إدخال عنصر الجمال في إنشاء كل شيء، هذه القاعدة التي لا يُذكر لها استثناء. والآية إذ تقرر ذلك ـــ البيان والإيضاح لحقيقة من حقائق الوجود ـــ فإنها في الوقت نفسه تلفت النظر إلى أهمية هذا العنصر من بين العناصر الأخرى.

وإن أهميته لتبدو أكثر وأكثر من خلال التأكيد عليه مرات ومرات. تطبيقاً للقاعدة الكبرى في الجزئيات. والجزئيات هنا، في خلق الله تعالى، قد تكون الواحدة منها عالماً هائلاً في ضخامته وعظمه.. قد تكون «كوناً» من الأكوان.. وقد تكون جزئية صغيرة، لا تراها العين المجردة. والإعجاز في الاتساع هو الطرف المقابل للإعجاز في الصغر وكلاهما إعجاز.

وفي هذه الفقرة نتحدث عن الجمال في الكون. حيث نتناول بعض كبريات الأشياء، التي تستطيع العين إبصارها، وحيث يمكن أن يلمح ذلك الجمال فيها كل إنسان، سواء قلّت ثقافته أم عظمت.. فكل يغرف من ذلك المعين بحسب ما أتيح له من إدراك.

ونقف عند عالم السماء.

هذا العالم الذي كثيراً ما تحدث القرآن عنه ولفت النظر إليه.

---

(١) سورة الحاقة. الآية ٣٩.

إن من أوليات الجمال ــ وقيل الحديث عن مظاهره ــ أن يكون الشيء خلواً من العيوب، بعيداً عن الخلل والتنافر. فإذا سلم من ذلك كانت تلك الخطوة الأولى في تصنيفه الجمالي.

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن السماء، لا ينفي الخلل عنها وحسب، وإنما يتحدى الناظرين، أن يكرروا النظر في محاولة لرؤية شيء من ذلك إن وجد؟! ثم زيادة في التحدي يعطي النتيجة سلفاً... ولنستمع إلى الآيات الكريمة:

﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت[1] فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[2].

إنه الخلق الهائل الذي قال القرآن في حقه: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[3] ومع هذا الاتساع الذي لا يصل النظر إلى مداه.. فإن البصر سيرجع بعد رحلته وقد أصابه الإعياء ولم يجد عيباً. فلا فروج ولا خروق ولا فطور.. وكذلك لا تفاوت فلا خلل ولا تناقض ولا تنافر.

والدعوة إلى النظر ثم تكراره مرة بعد مرة... ذلك لتأكيد الحقيقة التي لا شك فيها. هذه الحقيقة التي أكدتها مرة أخرى سورة ق﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾[4].

---

(١) نذكر معاني الكلمات في الآية الكريمة نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه. قال:

(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).. ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل.

(هل ترى من فطور) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم: أي شقوق وعن السدى: أي خروق. وقال قتادة: هل ترى خللاً؟

(خاسئاً) قال ابن عباس: ذابلاً. وقال مجاهد وقتادة: صاغراً.

(وهو حسير) قال ابن عباس: يعني كليل. وقال مجاهد وقتاده والسدي. الحسير: المنقطع من الإعياء.

قال ابن كثير: ومعنى الآية: أنك لو كررت البصر مهما كررت لا نقلب إليك البصر (خاسئاً) عن أن يرى عيباً أو خللا (وهو حسير) كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً. أ.هـ.

(٢) سورة الملك [٣-٤].

(٣) سورة الذاريات [٤٧].

(٤) سورة ق [٦].

و يستوقفنا في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ فلم تقل الآية: ما ترى في خلقها من تفاوت. إذ الحديث عن السماوات، ولكن الآية تقرر مبدأ عاماً هو سمة لخلق الله تعالى، فليس ذلك خاصاً بالسماء. إن الخلل والتناقض منفي أصلاً عن صنع الله الذي أتقن كل شيء.

وإذا كانت الآيات الكريمة قد نفت عن السماء الخلل والعيب، فذلك في حد ذاته جمال لا يدانيه جمال. إذ هو الإتقان، ولكنها لا تقف عند هذا الحد بل تسير شوطاً آخر لتسجيل عملية التزيين الإلهية فتقول:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾(١).

والزينة مقصودة ــ هنا ــ يوحي بها كل ما في الآية الكريمة. يوحي بها الحرف «قد» الذي يعني التحقيق. والتأكيد بـ«اللام» قبله، كما يوحي بها نسبة الفعل إلى ضمير المتكلم «نا» الذي هو الله تعالى بقوله (زينا).

ولقد تكرر هذا التأكيد على قصد تزيين السماء في آيات أخرى منها:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾(٢).

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾(٣).

إن غاية الزينة هي استمتاع العين برؤيتها، وتنص الآية على ذلك صراحة ﴿وزيناها للناظرين﴾.

إن القصد الجمالي لا يحتاج إلى إيضاح أو تأكيد أكثر من هذا. ومع ذلك تأتي آيات سورة فصلت لتروي لنا جانباً من قصة الخلق ﴿.. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾(٤).

---

(١) سورة الملك [٥].

(٢) سورة ق [٦].

(٣) سورة الحجر [١٦].

(٤) سورة فصلت [١١-١٢].

إنه سبحانه وتعالى ﴿أوحى في كل سماء أمرها﴾ قال ابن كثير: «أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو».

والسماء الدنيا واحدة من هذه السماوات أوحي فيها أمرها. ولكنها تُخصُّ بعد الحديث الإجمالي العام بقوله تعالى ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً﴾..

إن جميع تلك الآيات الكريمة لتؤكد أن الجمال ليس أمراً عرضاً في بناء الكون، ــ والسماء جزء منه ــ بل هو أمر مقصود.

* * *

وبعد فما هي هذه المصابيح؟

إن القرآن لا يتركنا في حيرة من أمرنا في تفسير المقصود من كلمة «المصابيح» فنعيش على التخمين والظنّ بل يجيبنا على السؤال إجابة لا لبس فيها ولا غموض:

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد﴾[1].

إن الزينة هي الكواكب... وعالم الكواكب كبير كبير، إن بعض هذه الكواكب يكبر الأرض بعشرات المرات وبعضها يكبرها بمئات المرات.. إنه عالم المجرات حيث تضم الواحدة منها مئات الملايين من الكواكب.. العالم الذي وحدة القياس فيه هي السنة الضوئية.. إنه العالم الذي يدير الرؤوس و يكل الطرف بعد تجواله فيه...

هذه الكواكب زينة..

الجمال في صنع الله مقصد من المقاصد تخلق أكوان عظيمة.. مجرات.. من أجله، لتكون الوسيلة في إعداد هذا الجمال..

---

(١) سورة الصافات [٦-٧].

وأما مهمة الحفظ التي أوكلت إلى هذه الكواكب، فإنا إن لم نقل هي المهمة الثانية لها، فإنا نقول إنه لا تعارض بين الأمرين. على أن مهمة الحفظ تلك إنما ذكرت في جميع تلك الآيات بعد ذكر الزينة. وفي بعضها لم تذكر أصلاً.

سبحانك يا رب. إن نظرة واحدة إلى السماء لتترك الإنسان مع عالم الجمال هذا حيث لا تشبع العين ولا يصل الإدراك إلى نهاية.

* * *

وبعد هذه الجولة في عالم السماء نحب أن نعود إلى الأرض نلقي النظرة المتأملة على ما خصَّها الله به من هذا العنصر..

والأرض عالم قريب بالنسبة للإنسان، عليها يولد، وفيها ينمو ويدرج وبين جنباتها يغدو ويروح... ثم إليها يعود مرة أخرى، إن علاقته بها وثيقة.. فأين الجمال فيها؟

إن القرآن الكريم أيضاحاً منه للقاعدة الكلية ـ السالفة الذكر ـ يعطينا بعض المشاهد من باب لفت النظر والتنبيه على ما يحيط بنا من جمال هذه الأرض.

وعالم النبات ميدان من هذه الميادين التي يأخذ الجمال فيها حظه، سواء في المشهد الكلي للحديقة أو الحدائق.. أم في المشهد الجزئي، مشهد وردة أو غصن.. حيث تأخذ الألوان مكانها في النفس سواء من حيث التنوع أم من حيث التدرج. إن زهرة واحدة من بعض أنواع الزهور لتحوي من التدرج في التلوين ما تعجز عنه ريشة أكبر الفنانين.

وفي عالم النبات، جانب آخر من الجمال. ذاك الذي ينشر الروائح الزكية والعطر الفواح.. وهو مهوى أفئدة الطيور المغرّدة والفراشات الباحثة عن الزهر..

إن الجمال لينساب إلى النفس من كل منافذها من خلال العين والأذن والأنف.

ولنستمع إلى القرآن الكريم يتحدث عن هذا الجانب:

﴿... وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها...﴾[1].

إن أسلوب الإلتفات الذي استعمله القرآن الكريم هنا على غاية من الأهمية في التأكيد على المقصد.. قصد الجمال. فبعد أن كان الكلام بصيغة الغيبة (وأنزل) انتقل حين الحديث عن الجمال إلى صيغة المتكلم (فأنبتنا به حدائق..) والوصف هنا بقوله: (ذات بهجة) مقصود، حتى لكأنه جزء من كلمة الحدائق وكان من تأثير القرآن في هذا الاستعمال. وملاصقة الوصف للموصوف أن أضحت كلمة (الحدائق) إذا ذكرت وحدها يستقر في الذهن معناها مع وصفها الذي ذكره القرآن.

إن البهجة مقصودة، إذ هي الوصف المخصص هنا. فالإنبات لم يكن للحدائق وحسب، وإنما للحدائق ذات البهجة.

وفي جانب آخر من الأرض أجرد، حيث لا ترتفع الأشجار، ولكن الأرض نفسها ترتفع.. و يصبح اسمها الجبال.

إن اللون الذي هو بعض مادة الجمال ليس قاصراً على الزهر أو الشجر، ولكن الصخور.. نعم الصخور.. لها فيه نصيب وأي نصيب.

إن تنوع اللون قائم بين جبل وآخر، فهذا جبل ذو لون أبيض إذ مادته من الصخور الكلسية، وهذا يضرب إلى الحمرة، وهذا جبل آخر آثر السواد، على أن هذا التنوع قد يكون في الحجر الواحد، وهو كذلك في كثير من الأحيان، إن الأحجار البيضاء قد توشحها عروق سوداء، والحمراء منها قد يوشحها البياض والسوداء منها قد تنساب على صفحتها عروق رمادية أو بيضاء.. والخضراء كذلك.. إن بعض الأحجار يحمل من التدرج في الألوان ما تحمله الزهرة.

هذا ما تراه العين المجردة، ولكن لو أتيح لنا رؤية أدق من خلال المجهر فماذا نرى؟ نترك الحديث إلى لغة العلم التجريبي تحدثنا عن ذلك: «إن الفحص

---

(١) سورة النمل [٦١].

المجهري لعدة ميليمترات مربعة من أية قطعة صخرية تظهر أمام عيوننا عوالم من الأشكال والتراكيب والألوان التي لا يمكن تخيلها. هنا تتخطى الحقيقةُ الخيال، وصفيحة رقيقة من صخرة، تحت الضوء المستقطب تعطينا الفرصة لنقوم بنزهة، أو سفرة طويلة، تكاد أعيننا لا تصدق ما تشاهد خلالها: هنا جغرافية جديدة، مناظر خلابة، أنهار، جبال، بحيرات، عوالم هندسية مليئة بنماذج من النحت، عالم تسوده قوانين فيزيائية وهندسية، دقيقة رصينة هادئة..» (١).

وهكذا ما نراه بواسطة المجهر يطلعنا على تلوين وتناسق قد يكون أعظم مما تراه العين المجردة، وهذا ما يؤكد ما سبق وقلناه إن مادة الجمال عنصر في أصل عملية الخلق.

ولنعد بعد ذلك إلى القرآن الكريم نصغي إليه في بيان هذا الجانب أيضاً:
﴿ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ أن الله عزيز غفور﴾(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿... مختلف ألوانها﴾ ما يلفت النظر إلى التنوع والتدرج في اللون الواحد.. فالأبيض مختلف ألوانه.. والأحمر مختلف ألوانه..

* * *

نكتفي بهذين الجانبين في صدد الحديث عن جمال الأرض.

كما نكتفي بما تحدثنا عنها وعن السماء كنموذج للقصد الجمالي في خلق الكون. وننتقل في حديثنا إلى الإنسان.

---

(١) من مقال للدكتور رفيق الفرا. المجلة العربية. السنة الثانية. العدد الثاني.

(٢) سورة فاطر [٢٧-٢٨].

ومعنى كلمة جدد: هي جمع جدة ومعناها: الطريق. ومعنى غرابيب: متناهية في السواد كالأغربة (جمع غراب). ولون الطريق هو عبارة عن لون الصخور والتربة التي فتح الطريق فيها.

الجمال في الإنسان:

الإنسان...

ذلك المخلوق الذي سواه الله تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه.. وأسجد له ملائكته..

إنه عالم من العوالم، وكون من الأكوان.. ما زال العلم يبحث في أرجائه المادية فلم يصل إلى غاية ففي كل يوم كشف جديد، ومعلومات جديدة وكلما تقدم العلم في هذا كشفت له جوانب لم يكن يعلمها.. وأما أرجاؤه النفسية فذلك عالم لم يزل العلم على عتبة لم يلج الباب(١)..

وفي هذه الفقرة، لن نتحدث عن الإنسان تفصيلاً.. وأنى لنا بذلك؟ فهذا يحتاج إلى الكثير الكثير. ولكنا ضمن إطار البحث نقف عند إثبات قصد الجمال في خلق الإنسان. وندع الجوانب الأخرى في الحديث عنه إلى أبوابها...

إن النظرة السريعة في هذا المخلوق ــ فضلاً عن النظرة الفاحصة ــ لتقرر جمال هذا المخلوق دون تحفظ.

هذا القوام الفريد، هذا التناسق بين الأعضاء، هذه المرونة في حركة كل عضو... المرونة والتكيّف في حركة الأعضاء بعضها مع بعض.. هذا التناسق في العمل بين العقل والجسد.. والروح.. إنها مؤكدات لا تنتهي..

---

(١) يقول الكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): «.. وبتعلمنا سرّ تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء، موجود على ظهر البسيطة فيما عدا أنفسنا».

«وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكوّن من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا.. فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة... وواقع الأمر إن جهلنا مطبق».

«... فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كافٍ وإن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب» ص ١٦-١٩.

والقرآن الكريم يتناول الحديث بشأن جمال الإنسان من أكثر من جانب، وما ذاك إلا للدلالة على أهمية هذا المخلوق وللتنويه بتكريمه.

والمرحلة الأولى التي ينطلق منها الجمال هي التسوية التامة للشيء، فعدم الخلل وعدم النقص هو الحد الأدنى في الجمال. ويلفت القرآن النظر إلى هذا بلغة هادئة توقظ الحس وتحفز المشاعر ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك.﴾[1]. قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: «أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصباً على أحسن الهيئات والأشكال».

والتسوية: الوصول بالشيء إلى مرحلة الكمال. ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[2] أي أكملت خلقه. ومنه قوله تعالى ﴿الذي خلق فسوى﴾[3]. قال في صفوة التفاسير: أي خلق المخلوقات جميعها فأتقن خلقها وأبدع صنعها في أجمل الأشكال وأحسن الهيئات.

وإذا كانت هذه التسوية من قِبَل الله فلا بدّ أن تصل إلى الجمال..

على أن القرآن لا يقف عند هذا الحد في تقرير جمال الإنسان بل يصرح بذلك بما لا يدع مجالاً للريب. وهو هنا ــ عند الحديث عن الإنسان ــ لا يكتفي باستعمال لفظ الزينة وما كان في مستواه، كما جرى ذلك إبان الحديث عن جمال السماء... بل يستعمل اللفظ الذي استعمله في القاعدة الكلية[4] «أحسن» ويستعمله في تعبيرين مختلفين:

﴿خلق السماوات والأرض بالحق، وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[5].

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[6].

ونقف عند التعبير الأول ﴿صوركم فأحسن صوركم﴾:

---

(١) سورة الإنفطار [٦-٧].
(٢) سورة الحجر [٢٩].
(٣) سورة الأعلى [٢].
(٤) المقصود بها قوله تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه).
(٥) سورة التغابن [٣].
(٦) سورة التين [٤].

ذهب كثير من المفسرين[1] إلى أن الصورة هي الشكل. قال ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ: أي: أحسن أشكالكم. وقال القرطبي ـــ رحمه الله ـــ: خلقكم في أحسن صورة وقال في تفسير سورة الحشر؛ ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. خلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلق، جعله علقة ثم مضغة ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها و يتميز عن غيره بسمتها. أ.هـ.

نلاحظ من هذا أن الآية تهتم بالشكل الظاهر وهو ما نعبر عنه بالجمال الحسي الذي تكون العين حاسة الإدراك له.

ونلاحظ أيضاً أن الفعل «صوَّر» لم يستعمل في القرآن الكريم إلا في صدد الحديث عن الإنسان، وبأسلوب الخطاب له، من باب المنِّ عليه في هذا الجانب المهم من حياته، في شؤون نفسه وفي تعامله مع ما يحيط به، وهذا مما يؤيد أهمية «الجمال» الذي أحسنه الله في صورة هذا الإنسان ولا أدل على ذلك من تخصيص الله تعالى لهذا الإنسان بأسلوب من الخلق وهو «التصوير»[2].

وأما التعبير الثاني وهو قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فإن آراء المفسرين لم تتفق على مفهوم التقويم في الآية. على الرغم من عدم الاختلاف

---

(1) ذهب سيد قطب رحمه الله إلى توسيع كلمة صوركم حتى شملت الجانب المعنوي فقال: «(وصوركم..) تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية» الظلال ص [٣٥٨٥] سورة التغابن.

(2) كل ما ورد في القرآن الكريم في مادة «صور» هو: كلمة (المصور) اسما من إسمائه تعالى ﴿هو الله الخالق البارىء المصور..﴾ سورة الحشر [٢٤].

وودرت خطاباً للإنسان في الآيات التالية كما ألمحت إليه أعلاه:

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم﴾ غافر [٦٤].

﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾ التغابن [٣].

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..﴾ الأعراف [١١].

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آل عمران [٦].

﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ الإنفطار [٨].

وهكذا لم تستعمل كلمة «التصوير» في حق أي مخلوق آخر في آيات القرآن الكريم.

في معناها اللغوي: فالتقويم: التعديل والتثقيف[1]. ولكن هذا التعديل والتثقيف متعلق بظاهر الإنسان أم بباطنه؟

قال القرطبي ـــ رحمه الله ـــ: ﴿في أحسن تقويم﴾ في اعتداله واستواء شبابه كذا قال عامة المفسرين. أ.هـ.

وهكذا يذهب في تفسير الآية الكريمة إلى الحسن الظاهر الذي يتناول قوام الإنسان وشكله الظاهر.

و يؤيده في هذا الاتجاه ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ حيث قال: «وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سويّ الأعضاء حسنها».

وقال مجاهد ـــ رحمه الله ـــ: «﴿أحسن تقويم﴾: أحسن صورة وأبدع خلق»[2].

وذهب آخرون إلى أن حسن التقويم هنا يتعلق بالجانب المعنوي للإنسان: و ينقل القرطبي بعض هذه الأقوال:

«وقال أبو بكر بن طاهر: مزيناً بالعقل مؤدياً للأمر مهدياً بالتميز.. [وقال] ابن عربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان. فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مديراً حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه..».

وإلى هذا المنحى ذهب سيد قطب رحمه الله حين قال: «﴿في أحسن تقويم﴾ فطرة واستعدادا».

وذهب فريق ثالث من المفسرين إلى الجمع بين الإتجاهين السابقين.

جاء في تفسير الثعالبي «وحسن التقويم يشمل جميع محاسن الإنسان الظاهرة والباطنة من حسن صورته وانتصاب قامته وكمال عقله وحسن تمييزه».

وإلى هذا الاتجاه ذهب المتأخرون من المفسرين:

---

(١) انظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية. محمد اسماعيل ابراهيم.

(٢) عن تفسير الطبري.

جاء في تفسير القاسمي: «في أحسن تعديل خلقاً وشكلاً وصورة ومعنى» وفي صفوة التفاسير: «أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات، من حسن الصورة وانتصاب القامة وتناسب الأعضاء، مزيناً بالعلم والفهم والعقل والتميز، والمنطق والأدب».

* * *

نلاحظ مما سبق من أقوال المفسرين في الآيتين الكريمتين، أن معنى الحسن والجمال مقصود في خلق هذا الإنسان، في ظاهره وباطنه، وإن كانت الأولى أقرب إلى الحديث عن الظاهر، والثانية يتسع فيها جانب الحديث عن المعنى.

وإذا كان القرآن قد نص على جمال التصوير وجمال الخلق وجمال التقويم فيه فقد كانت التعاليم الواردة في هذا القرآن هي الوسيلة لإنجاز جمال السلوك فيه، وبهذا يصل الإنسان إلى المستوى الكريم المقصود من وجوده حيث يتناسق الجمال فيه بكل معانيه في جانبه الخلقي وجانبه الإرادي.

وسائل جمالية:

إن الله تعالى خلق الكون، والجمالُ عنصر أصيل في تكوينه، وكذلك كان الأمر بالنسبة للإنسان، فقد أبدع الله صورته وأحسنها كما أحسن فطرته واستعداداته فجعلها، محبَّةً للجمال ميالةً إليه وحريصة عليه، كما جعلها قابلة مستعدة لتقدير الجمال، وكذلك لإنتاجه.

وإذا كان هذا الاستعداد من صنع الله تعالى، في فطرة الإنسان، فإنه هيأ له من الوسائل ما يجمِّل به حياته الخاصة، وهذه الوسائل من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها والقرآن الكريم يتحدث عن بعضها على سبيل ضرب المثل.

والزينة مطلوبة من هذا الإنسان.

وهو إذ يسعى إلى ذلك فإنما يلبي نداء الفطرة ونداء الدين معاً...

ولعل من التكريم للزينة ــ وهي وسيلة التجميل ــ أن ينسبها الله إليه ﴿زينة الله﴾ فالإضافة هنا للتشريف أي الزينة التي هي من صنع الله تعالى.

وهذه الزينة معدة ليستفيد منها «عباد الله» بتجميل أنفسهم أو بتجميل بيوتهم وكل ما يتصل بهم.

ولنستمع إلى القرآن الكريم مبيّناً موقفه منها منكراً على الذين وقفوا منها موقفاً سلبياً:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟..﴾(١).

وبهذا يتقرر أن الزينة واتخاذ الوسائل لصنع الجمال في هذه الحياة أمر مطلوب ومرغوب فيه، ويهيء الله تعالى لنا من الأشياء ما يساعدنا به على إنجاز هذه المهمة... فيسخّر لنا البحر ـ في جملة ما سخره لنا ـ لنستخرج منه الحلية اللازمة لهذه المهمة:

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها..﴾(٢).

وهكذا يلفت القرآن النظر إلى إعداد هذه الحلية و يدلنا على أماكن وجودها، مساعدةً منه في إنتاج الجمال.

ولا نريد الحديث هنا عن كل الوسائل، فالذهب والفضة وسيلة وأي وسيلة في عمليات التجميل والزينة. ولكن أنيطت بهما مهمة أخرى، وهي كونها يؤديان دور النقد في إطار التعامل المالي بين الناس...

إنما مقصودنا ذكر الأشياء التي مهمتها الأصيلة هي كونها وسائل جمالية فهي مصادر اشعاع للحسن حيث وجدت...

إنها: اللؤلؤ والمرجان والياقوت والرياش...

فالله تعالى يمنّ على عباده بهذه الأشياء، قال تعالى:﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، يخرج منها اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف [٣٢].

(٢) سورة النحل [١٤].

(٣) سورة الرحمن [١٩-٢٣].

وقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا..﴾(١).

قال ابن كثير: والرياش ما يتجمل به ظاهراً.

إن اللؤلؤ والمرجان والياقوت.. وسائل أصيلة في هذا الميدان. إذ كان المقصود الأول من إيجادها هو تغطية هذا الجانب الجمالي في حياة الإنسان، ولشدة أصالتها في ذلك جعلها الله المقياس الذي يضرب به المثل، فإذا أريد التعبير عن جمال شيء، قيل كأنه الياقوت والمرجان.. وهو الأسلوب الذي انتهجه القرآن الكريم. ولنستمع إليه في ذلك:

﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي آلاء ربكما تكذبان.. كأنهن الياقوت والمرجان..﴾(٢).

﴿وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾(٣).

﴿و يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾(٤).

نتبين بعد هذا بوضوح أن من الأشياء ما كان خلقه إبتداء تعبيراً عن الحسن والجمال، فهذه هي الغاية منه، وتلك هي مهمته في الحياة.

* * *

نستطيع بعد هذه الجولة السريعة في الكون والإنسان وبعض الأشياء، أن نقرر بأن الحسن مقصود في هذا الخلق الذي أوجده الله تعالى، ولا غرو في ذلك، فإن الصنعة تدل على الصانع.. وصنعة الله تعالى لا بد أن تكون تعبيراً عن الكمال بل والجمال.. وليس هذا من باب الصدفة فلا صدفة في هذا الوجود ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف [٢٦].

(٢) سورة الرحمن [٥٦-٥٨].

(٣) سورة الواقعة [٢٢-٢٣].

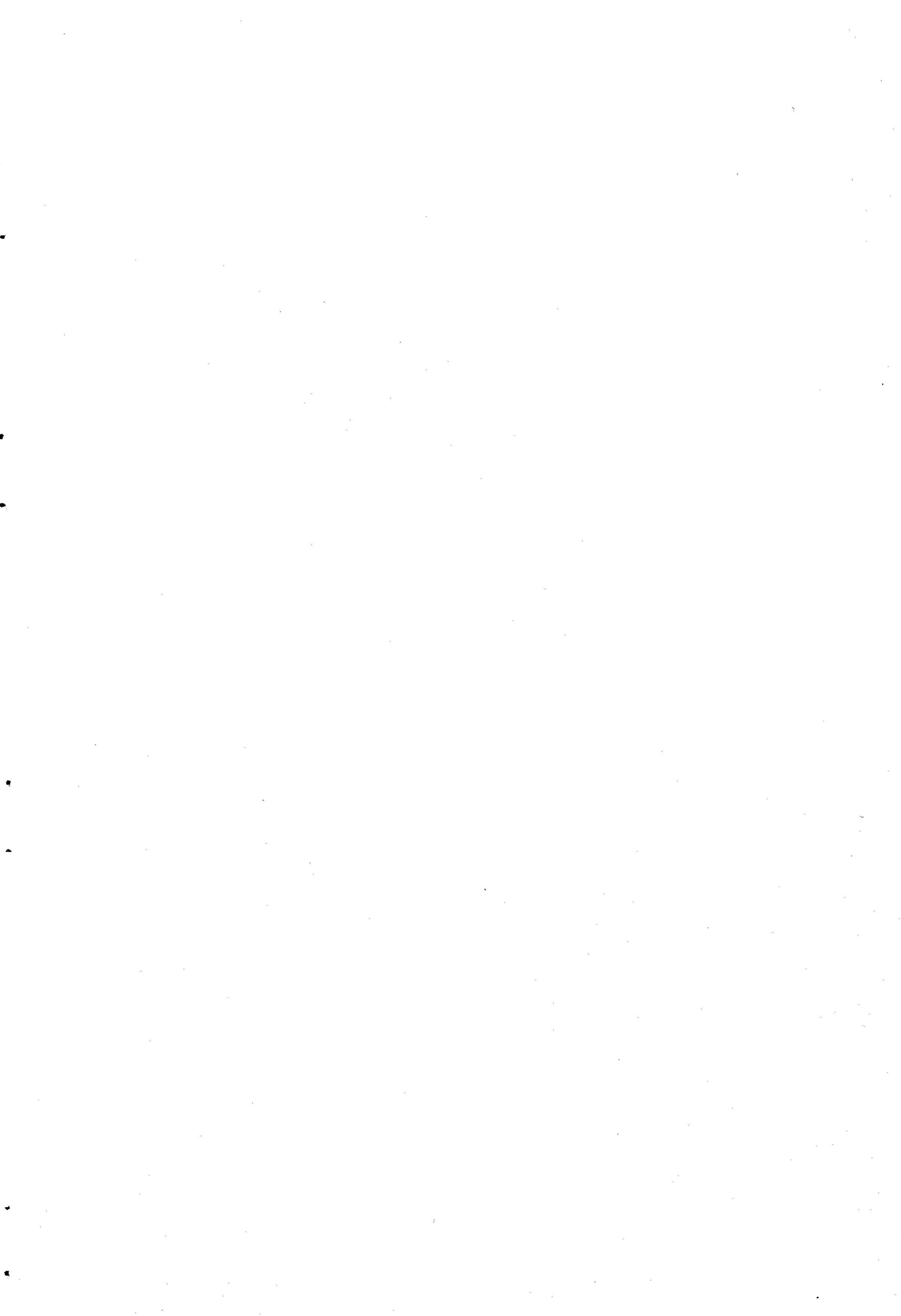
(٤) سورة الإنسان [١٩].

(٥) سورة القمر [٤٩].

الفصل الثاني

أثر الجمال على النفس الإنسانية

- الفطرة والجمال.
- أثر الجمال في النفس.
- الجمال وسيلة اختبار.
- الجمال جزاء على العمل الصالح.



الفطرة.. والجمال:

الإحساس بالجمال أمر فطري، أصيل في جبلة الإنسان، فالإعجاب به دائم، والميل إليه طبيعة في النفس، تهفو إليه حيث وجد، وتشتاقه إذا غاب.

وفطرية هذا الإحساس في النفس الإنسانية لا مرية فيها، فالله سبحانه وتعالى ــ فضلاً منه وكرماً ــ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأقسم على ذلك، وهذا الإحسان في صنعة الله تعالى من صفاته العموم والشمول، فكان الحسن في الذات شكلاً، وفي الصفات النفسية قابلية، وفي الفطرة تطلعاً واستعداداً.

والآيات الكريمة تشير إلى هذا بما يقارب التصريح، حينما تتحدث عن امتنان الله تعالى على الإنسان بما يلبي حاجاته الضرورية، وحاجاته الجمالية، وذلك في أكثر من موضع في الكتاب الكريم.

ففي بيان الحقيقة والواقع يقول تعالى:﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها..﴾(١).

وإذا كان المتاع(٢) هو: ما يُتمتع به من ضروريات وحاجيات، فإن الزينة هي التعبير عن الجمال، إذ هي وسيلة صُنعِه، وما ذاك إلا تلبية لما استقر في النفس الإنسانية من مشاعر...

بل إن كثيراً من سعي الإنسان إنما يكون بقصد تلبية هذه الحاجة الفطرية، وعلى قدم المساواة مع تلبية الحاجات الضرورية. أو قريباً منها. وفي المثل الذي ضربه القرآن الكريم ما يشير إلى هذا:

---

(١) سورة القصص [٦٠].

(٢) المتاع في الأصل: كل شيء يُنتفع به و يُتبلغ به و يُتزود.

﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾أي بلغة يتبلغ به لا بقاء له.

المتعة: الزاد القليل، والمتاع: من أمتعة البيت ما يستمتع الإنسان به من حوائجه.

والمتاع: المال والأثاث (عن لسان العرب) ويتبين مما سبق أن الكلمة مستعملة لغة في الضروريات. ولذا كانت الزينة في مقابلها.

﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله..﴾[1].

فالحلية التي هي أحد مطلبي الإنسان فيما يوقد عليه، إنما هي وسيلة التجميل وصنع الجمال. والعمل الذي يقوم به هو بين ابتغاء للحلية أو ابتغاء للمتاع، وفي هذا ما فيه من الدلالة على أصالة التطلع إلى الجمال في النفس الإنسانية وتأثيره فيها.

وقد تحدث الأئمة من علماء المسلمين عن هذه الفطرية في النفس الإنسانية بكلمات مجملة ولكنها واضحة، وما ذاك إلا لأنها مسلَّمات لا تحتاج إلى البراهين والأدلة.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل... ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع»[2].

وهكذا فهي عنده مسلَّمة لا أحد ينكرها.. ووجودها لدى الإنسان دلالة على سلامة طبعه وصحة نفسه.

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «... إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيء القبيح مكروه مبغض» [3].

وقد جاء من بعده تلميذه ابن القيم رحمه الله ليؤكد قوله، وذلك في صدد حديثه عن الجمال الظاهر، حيث قال: «... والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه» [4].

إنها آراء صريحة لأئمة أعلام، تؤكد أن الإحساس بالجمال أمر فطري في جبلة الإنسان. وأن استحسانه وحبه كذلك مما طبعت عليه النفوس.

---

(١) سورة الرعد. الآية ١٧.

(٢) إحياء علوم الدين ٢٩٨/٤. طبعة دار المعرفة، بيروت.

(٣) الاستقامة لابن تيمية ٣٦٧/١ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط ١ ١٤٠٣هـ.

(٤) روضة المحبين. لابن القيم. الباب التاسع عشر.

وإذا عدنا ــ بعد هذا ــ إلى زمننا الحاضر، نتعرف آراء العصر الذي نعيشه، لاحظنا قلة الباحثين في هذا الميدان ممن يحملون العقيدة الإسلامية و يعيشون التصور الإسلامي. ومع ذلك فالآراء واضحة جلية.

يرى الأستاذ محمد قطب ــ في صدد حديثه عن القيم العليا ــ أن الإحساس بالجمال أمر فطري، وأن القضية في نظره أضحت مسلمة لا تحتاج إلى دليل، ولذا يكتفي بالكلمات التالية «وهو إحساس فطري، والدلالة واضحة..[1]».

وأما مؤلف «الظلال» رحمه الله فإنه ينتقل بنا نقلةً بعيدة. فهو لا يراه فطرة في الإنسان فحسب، بل يراه فطرة الوجود كله قال رحمه الله: «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة. ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي..[2]».

* * *

إن هذه الحقيقة ــ فطرية الإحساس بالجمال ــ التي عرفها المسلمون على امتداد عصورهم وكانت نتاجاً طبيعياً للتصور الإسلامي الشامل، حتى بانت مسلمة من المسلّمات لم تكن كذلك لدى غيرهم...

وفي العصر الحديث قليل أولئك الذين توصلوا إليها أو قالوا بها.. فكل أولئك الذين جعلوا من الفنان إنساناً آخر فوق البشر و غير البشر، لم يروا ذلك. وكذلك الذين نادوا باستبعاد الفن والجمال.. لأنهما يعرقلان مسير ثورتهم[3] لم يروا ذلك. وكل الذين قامت فلسفاتهم على العبث.. والتمرد.. لم يهتموا بذلك..

على أننا لا نعدم مفكرين نظروا من خلال فطرتهم لا من خلال الفلسفات التي أحاطت بهم فتوصلوا إلى الحقيقة أو قريباً منها.

نستطيع أن نلمح هذا من خلال رأي «كانت» وهو يتحدث عن إدراك

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية. فصل «القيم العليا».

(٢) في ظلال القرآن. تفسير سورة الصافات الآية ٦.

(٣) انظر في الباب الأول فصل: الجمال والفلسفة.

الجمال حيث يرى «إن إدراك الجمال في الأشياء يعتبر إدراكاً مباشراً مستقلاً عن تصورنا لما هو «جميل». وكذلك فنحن لا حاجة بنا إلى برهان للتدليل على جمال الأشياء. وإنما تتبدى في الشيء سمة الجمال التي ندركها فيه دون حاجة إلى تصور نموذج أو مثال للجمال نقيس بمقتضاه جمال الأشياء»[1].

ويرى «رسكن»[2] أن الشعور الجمالي غريزي في الإنسان، أي أنه سابق على التجربة...[3].

ويعبر «الكسيس كاريل» عن هذه الحقيقة بأسلوب آخر فيقول: «إن الإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس تمديناً...[4]».

وهذا يعني استقرار هذه الحقيقة في فطرة الإنسان بغض النظر عن بيئته وعصره وثقافته...

* * *

خلاصة لما سبق نستطيع أن نقول:

إن عمق الرصيد الذي يملكه الجمال في فطرة الإنسان، جعل تأثيره على النفس عظيماً، الأمر الذي سجله القرآن الكريم، وهو موضوعنا في الفقرة التالية:

أثر الجمال في النفس:

يعرض القرآن الكريم من خلال قصصه تأثير الجمال على النفس الإنسانية، الجمال الذي يبدو تارة من خلال الزينة.. وتارة من خلال الفن الهندسي المعماري.. وتارة من خلال الإنسان ذاته، صورة ومعنى..

كما يستعرض النفس الموضوعة تحت هذا التأثير في حالاتها المختلفة، فتارة تكون

---

(١) فلسفة الجمال. أبو ريان ص ٣٦.

(٢) جون رسكن (١٨١٩-١٩٠٠) كاتب انكليزي، وناقد فني واجتماعي، قرن النقد الجمالي بالوعظ الاخلاقي.

(٣) المصدر السابق ص ٥١.

(٤) الإنسان ذلك المجهول ص ١٥٤.

نفساً عادية تمثل نفوس عامة الناس، وتارة تكون نفس واحد من علية القوم.. وتارة تكون في صفة الذكورة وتارة في صفة الأنوثة..

وهكذا نكون أمام تنوع في أشكال المؤثرات، وتنوع آخر في النفوس المتلقية لتلك المؤثرات.. وتبقى القضية واحدة. وهي أثر الجمال في النفس الإنسانية، فالجمال هو الجمال، والنفس هي النفس.

ولنقف على نماذج من هذه المشاهد:

■ هذا مشهد تبدو فيه الزينة والجمال من خلال الثراء والرفاهية والإعجاب بالنفس.. إنه قارون، الذي كان من قوم موسى، والذي أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وقد اتخذ من مظاهر الزينة والرياش والزخارف ما يتناسب مع هذا الغنى.. ويخرج «ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى حشمه وخدمه..[1]» فإذا الناس من قومه أمام هذا المشهد فريقان:

ـ فريق أخذ المشهد بمجامع قلوبهم، فإذا بآثار ذلك تخرج من أفواههم تمنياً ورغبةً أن يكونوا مثله، وأن يكون لهم ماله..

ـ وفريق آخر، لم يؤثر فيهم المشهد، لا لأنه غير مؤثر، وإنما لسبب آخر، هو وجود الإيمان الذي يجعل الإنسان لا يقف عند ظواهر الأمور بل ينفذ إلى جوهرها، إن عدم تأثر هذا الفريق يرجع إلى علمه بأن هناك ما هو أعلى قدراً وأسمى مكانة.. وهو ثواب الله..

فالمشهد مؤثر في النفس ولكن وجود الإيمان هو العامل المضاد في النفوس المؤمنة. ولنستمع إلى النص القرآني الكريم الذي قص علينا ذلك:

﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم: و يلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾[2].

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) سورة القصص [٧٩-٨٠].

■ وفي مشهد آخر.. تختلف فيه المؤثرات، والنفس الواقعة تحت الإختبار ـ هنا ـ نفس تقلبت في مظاهر الترف والنعيم، وأوتيت الملك بكل مظاهره وحفاوته ورياشه وأثاثه..

إنها بلقيس، ملكة سبأ، التي أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم.. حينما دعيت لمقابلة سليمان عليه السلام، طلب إليها أن تدخل الصرح، وكان قصراً عظيماً من الزجاج بني فوق الماء الجاري، فلما رأته حسبته ماء غزيراً وخانها بصرها فلم تر الزجاج الذي فوقه والذي كان أرضاً للقصر فكشفت عن ساقيها تريد الخوض في تلك اللجة فقيل لها عندئذ إنه صرح مُمرّد من قوارير..

ولا شك أن دهشتها كانت عظيمة إزاء هذه المفاجأة غير المتوقعة ووجدت نفسها أمام فن وجمال ليس في مقدور البشر تصنيعه.. لقد أخذ المشهد بمجامع لبّها واستحوذ على تفكيرها. وهي صاحبة العرش الذي وصفه القرآن بالعظمة.. ولكن العظمة هنا من نوع آخر ومن طراز فريد. وإزاء هذا الجمال الذي بلغ المدى من نفسها.. أعلنت إسلامها لله مع سليمان.

وهكذا يأتي إسلامها أثراً مباشراً لهذه الرؤية ودليلاً على سلطان الجمال على النفوس [1].

ومرة أخرى مع القرآن نستمع قول الله في هذه الحادثة:
﴿قيل لها أدخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح ممرّد من قوارير، قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾ [2].

■ ومشهد ثالث...

كانت المؤثرات في المشهدين السابقين مؤثرات جمالية مادية، تنبع من الزينة

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن إسلامها كان بعد دخول الصرح بسبب دعوة سليمان لها.. وليس في النص القرآني الكريم ما يشير إلى ذلك. فالآية واضحة، في أن إسلامها كان عقب علمها بأن الصرح من قوارير. علماً بأن دعوة سليمان لها قد سبقت في كتابه الذي أرسله إليها.

(٢) سورة النمل. الآية ٤٤.

وبهرج المادة، ومن فن الهندسة وجمال التصميم.. ولكنا في هذا المشهد نقف على تأثير الجمال الإنساني في صورته الظاهرة على النفوس الإنسانية.

إنها قصة يوسف عليه السلام.. وهي قصة معروفة.

وليست القصة بكاملها هي محور حديثنا، فامرأة العزيز التي شغفها يوسف حباً، ليست هي المادة الموضوعة للدراسة، إذ إنها وقعت تحت مؤثرات عدة إضافة إلى الجمال.. فهي نتيجة لخلطتها الدائمة به كانت على معرفة بأخلاقه وفضائله. كما كانت على معرفة من حسن تصرفه.. فعرفت فيه الحسن ظاهراً ومعنى.

ولكنا نقف عند المأدبة التي أقامتها هذه المرأة بعد أن انتشر خبرها في الأوساط الراقية (!!) التي تصلها عادةً أخبار قصور السادة، هذه المأدبة التي أقامتها في عملية دفاع عن النفس وإبداء للعذر.

وحضرت المدعوّات، وقد أعدّت لهن وسائل الراحة الكاملة، بما يتناسب مع قدرهن ومع مكانة القصر المضيف.. وأخذت كل واحدة منهن مكانها من المجلس، وأمامهن من الطعام أو الفاكهة ما يحتاج إلى السكاكين.. وفي هذا الجو الفاره، وقد تجاذب النسوة أطراف الحديث،... وجاء دور الطعام حيث كل سكينة بيد امرأة تستعين بها على قطع ما يحتاج إلى قطع..

وفي جو من اللهو بالطعام واللهو بالحديث.. أمرت صاحبة القصر يوسف أن يخرج على النسوة، وكانت مفاجأة، مفاجأة غير متوقعة.. ولنترك الحديث لنشاهد هذه الجلسة من خلال التعبير القرآني الكريم.

﴿وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حباً. إنا لنراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وقالت: اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم. قالت: فذلكن الذي لمتنني فيه..﴾[١].

أكبرنه.. وقطعن أيديهن..

---

(١) سورة يوسف الآيات ٣٠-٣٢.

أجل، جرحنَّ أيديهن، فقد شغلهن حسن الطلعة عن أنفسهن وما في أيديهن، وكان هذا التأثير عاماً شمل الجميع.

ولئن كان حسن يوسف عليه السلام حسناً خاصاً، فإن الأمر الذي نحب أن نلفت النظر إليه هو أن القرآن سجل أثر ذلك الحسن على النفوس، وفي مشاهدة كانت هي المرة الأولى، وكان عدد المشاهدات كثيراً، وكان الأثر كبيراً على النفوس جميعاً.

■ ومشهد رابع..

نعيش فيه مع الجمال الإنساني، في صورته الباطنة.

فالجمال ليس مظهراً أو شكلاً مادياً فحسب، نستطيع رؤيته من خلال اللون والمادة.. ولكنه ــ أيضاً ــ هو المعنى الذي يقوم في النفس، فيبدو من الحركة والكلمة.. من السلوك والسمت..، من المعاني النفسية من صدق وإخلاص واستقامة...

إنه جمال لا يقل أثره ــ إن لم يغلب ــ عن أثر الجمال الظاهر.

والقرآن يسجل أثر هذا النوع من الجمال في نفس نبي من الأنبياء، وهم بشر من الناس لكنهم يمثلون استقامة الفطرة، وصدق الحس، ورهافة المشاعر، وصدق العاطفة... إنه زكريا عليه السلام.

ولنستمع إلى القصة من كلام الله تعالى:

﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.

فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾[1].

إن امرأة عمران نذرت حملها لخدمة المعبد، فلما كان الوضع، تبين أن المولود كان أنثى، وكانت هي تنتظر أن يكون ذكراً، فالنذر للمعابد لم يكن معهوداً إلا في الذكور ولذا توجهت إلى ربها قائلة: ﴿ رب إني وضعتها أنثى ﴾.

إنها تريد الوفاء بالنذر وهي جادّة في ذلك، ولكنها تشعر وكأن الوفاء لن يكون كاملاً فتترجم هذابقولها :﴿وليس الذكر كالأنثى﴾.

وتُنقل مريم إلى حيث يقوم برعايتها رئيس كهنة المعبد زكريا عليه السلام وهو زوج خالتها[2].

وتنشأ مريم في كفالة زكريا، وقد تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، فكانت من كرامة الله لها، يأتيها رزقها من عنده سبحانه. الأمر الذي لفت نظر زكريا فجعله يسأل﴿يا مريم أنى لك هذا﴾ و يكون جوابها ﴿هو من عند الله...﴾.

و يتعامل زكريا مع المعاني الجميلة، طهراً وحياء، عبادة وخشوعاً، صدقاً مع الله ولجوءاً إليه.. ثم.. المكانة عند الله والرضى منه سبحانه، يعبّر عنه هذا الرزق... وإذا بجمال الإنسانية يتمثل حياً شاخصاً أمام عينيه. وتتجسد المعاني فتصبح مادة يتعامل معها..

﴿ هنالك﴾ وفي تلك الحال ــ وقد ملك عليه هذا الجمال لبَّه ــ يمد يديه سائلاً الله تعالى أن يهب له ذرية طيبة، إنه يسأل... يسأل وهو على علم بأنه قد تقدمت به السن وأن زوجه عاقر.. ولعل الأثر الجمالي أنساه ذلك. إن الدافع له هو طيب المشهد ولذلك لا يسأل مجرد الذرية. بل الذرية الطيبة إنه يريد مثل الجمال الذي أحسَّه وعايشه..

---

(١) سورة آل عمران [٣٥-٣٨].

(٢) جاء في تفسير ابن كثير ــ رحمه الله ــ «كان زوج خالتها على ما ذكره ابن اسحاق وابن جرير وغيرهما. وقيل زوج أختها، كما ورد في الصحيح (فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة). وقد يطلق على ما ذكره ابن اسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها». أ.هـ.

ويلبي الله دعوته لا بالولد فحسب بل وبالمواصفات التي تمناها ورغب بها ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرُك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾(١).

* * *

وكما لمسنا الآثار من خلال المشاهد، فإننا نجدها أيضاً تقريراً بأساليب مختلفة، وفي مناسبات متعددة.

■ فها هو موسى عليه السلام يناجي ربه ويدعوه أن يطمس على أموال فرعون وأشياعه وأن يشدد على قلوبهم، فقد استعملوا ما أعطاهم الله من زينة ومتاع في الصدّ عن سبيل الله.

﴿وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يردا العذاب الأليم﴾(٢).

تذكر الآية بوضوح أثر الزينة، إضافة إلى الأموال، في التأثير على النفوس، بل وتذكر أن هذا التأثير له من القوة بحيث أمكن استعماله في الاتجاه المعاكس لفطرة الإنسان، إنه استعمل في الغواية والإضلال.

■ وفي خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن..﴾(٣) نلاحظ بوضوح تقرير هذا الأثر. إن الإعجاب أثر من آثار الحسن، وهو في شخصية الرسل مثله لدى غيرهم من الناس، بل إن الرسل لكمال عقولهم واستقامة فطرتهم أشد تأثراً بالحسن من غيرهم.

■ والقرآن حين يسجل أثر الجمال على النفس، لا يسجله من ميدان واحد، بل من ميادين متعددة.. ومن ذلك: حسن الحديث وجمال القول.

---

(١) سورة آل عمران. الآية ٣٩.

(٢) سورة يونس. الآية ٨٨.

(٣) سورة الاحزاب. الآية ٥٢.

ومن المعلوم أن الجمال في هذا المجال يطلق عليه لفظ «البلاغة» في قولنا: هذه كلمة بليغة. إنما نعني: أنها مؤثرة، ملائمة للموضوع الذي قيلت فيه، استعملت فيها الألفاظ الفصيحة.. واستبعدت منها الألفاظ الغريبة المتنافرة..

وقد خوطب الرسول ﷺ بالقرآن الكريم أن يكون قوله بليغاً وخاصة مع أولئك الذين لم يؤمنوا علّهم يهتدون إلى الصواب. ومن جملة هؤلاء المنافقون الذين ورد في حقهم قوله تعالى: ﴿.. فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾(١)، وإذا كانت بلاغة القول ـــ كما قلنا ـــ هي مناسبته للحال، وهذا جانب مهم من أوصاف الجمال فإن بلاغة القول هنا مع المنافقين قد تكون بالأسلوب القوي الرادع.

فالكلام البليغ.. كلام مؤثر.. ولا نعني بالبلاغة هنا جمال اللفظ الظاهر فحسب، فهذا جمال باهت قد لا يكون له تأثير، ولذا لم يعبر عنه القرآن بالبلاغة بل سماه: «زخرف القول» قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً..﴾(٢).

* * *

نخلص مما تقدم إلى تقرير حقيقة نفسية مهمة، وهي أن للجمال سلطانه الواسع في النفس الإنسانية، وله الأثر الكبير في قيادتها والأخذ بيدها.

وهذه الحقيقة ينبغي الاستفادة منها في ميدان التربية، الأمر الذي لسنا بصدد الحديث عنه الآن، ولكن الذي نريد تأكيده في هذا الفصل: أن القرآن الكريم رتب على هذه الحقيقة أموراً مهمة متعددة، حيث جعل من «الجمال» وسيلة مهمة استخدمها في عدد من الأغراض للتعامل مع هذا الإنسان من خلال المنهج الرباني، فكان من ذلك:

- أن جعله وسيلة لاختبار هذا الإنسان.
- كما جعله جزاء على العمل الصالح، للإغراء به والحث عليه.

---

(١) سورة النساء. الآية ٦٣.

(٢) سورة الأنعام. الآية ١١٢.

وبهذا يتعامل المنهج الكريم مع هذه النفس من خلال ما جبلت عليه. وبالمقدار الذي يأخذه الجمال من حيِّزٍ في مساحتها، وكما أن الجمال ليس هو كل الشيء الجميل، فكذلك «الجمال» هنا هو بعض وسائل الاختبار، وهو ــ أيضاً ــ بعض الجزاء الخيّر على العمل الصالح.

وبهذا يبدو التناسق العجيب في صنعة الله حيثما اتجهت.. في الخلق وفي الفطرة.. في الشريعة وفي المنهج.. والتناسق سمة هامة من سمات الجمال.

الجمال.. وسيلة اختبار:

هذه الحياة مرحلة.. وهي زمن اختبار.

اختبار نظري، واختبار عملي، اختبار يخضع له فكر الإنسان وعقله كما تخضع له عواطفه ومشاعره، ويخضع له ظاهره كما يخضع له باطنه.

والإنسان يؤدي هذا الاختبار بكل كيانه، والمدة المتاحة له هي الحياة التي كتبت له على ظهر هذا الكوكب.

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾(1).

ومواد الابتلاء منوعة، قد تكون في ميدان الخير كما تكون في ميدان الشر، ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾(2).

وفي إطار الابتلاء بالخير كانت الزينة.. والجمال..

قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾(3). فقد زينت الأرض بما عليها لتكون مادة في الاختبار..

جاء في الظلال «.. فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع.. جعلناه اختباراً وامتحاناً لأهلها ليتبين من يحسن منهم العمل في الدنيا..».

---

(1) سورة الملك. الآيتان ١ و ٢.
(2) سورة الأنبياء. الآية ٣٥.
(3) سورة الكهف. الآية ٧.

وفي تأكيد هذا المعنى يأتي قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾(١).

أي لا تمدن عينيك إلى زهرة الحياة الدنيا التي متعنا بها أصنافاً منهم، فإنما نمتعهم بها ابتلاء.

والتعبير بـ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ يوحي بالمظهر الجمالي، الذي أضحى مادة الاختبار. والاختبار في مادة الخير والجمال والزينة ليس أمراً سهلاً كما يبدو للوهلة الأولى بل ربما كان بحاجة إلى صبر أكبر وعزيمة أقوى.

قال سيد قطب ــ رحمه الله ــ: «إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر.. كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة. و يكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم. كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع..» (٢).

وهكذا ينوه القرآن الكريم باعتبار الزينة مادة إبتلاء لما لها من أثر على النفس، وضبط النفس تجاه هذه المؤثرات بدافع الإيمان يعني انتصار العقيدة والتزام جادة الحق.

وليس هذا «دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به» (٣).

* * *

وقد تكون الزينة هي المنزلق الذي يسبب الإخفاق في هذا الاختبار بما لها من سلطان على النفوس، هذا السلطان الذي اعتمد عليه إبليس اعتماداً كلياً في إغواء

---

(١) سورة طه. الآية ١٣١.
(٢) الظلال، في تفسير الآية ٣٥ من سورة الأنبياء.
(٣) الظلال، في تفسير الآية ١٣١ من سورة طه.

بني آدم، و يبدو أن هذا الأمر كان معروفاً لدى إبليس قبل إخراجه من الجنة وقبل هبوطه مع آدم إلى الأرض.

﴿قال يا إبليس ما لَكَ ألا تكون مع الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾(١).

(لأزينن لهم في الأرض) إنها مكان اللقاء الجديد.. بعد أن أخرجوا من الجنة، (ولأغوينهم).. فالزينة هي طريق الغواية.

«وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة، إنها الأرض.. وحدد عدته فيها، إنه التزيين، تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله وتظهره في غير حقيقته وردائه...(٢)».

وعمل الشيطان يتناول الجانب السلوكي للإنسان، فهو يزين العمل السيء و يلبسه لباس الحسن والجمال.. والعمل المزيَّن هو من صنع الإنسان نفسه.. إنه أسلوب واحد.. وطريقة واحدة.. للغواية.

﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾(٣).

﴿.. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾(٤).

---

(١) سورة الحجر [٣٢-٤٠].
(٢) في ظلال القرآن.
(٣) سورة العنكبوت [٣٨].
(٤) سورة النمل [٢٤].

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾(١).

إن الشيطان يمارس عمله الذي توعّد به بني آدم.

والتزيين ــ هنا ــ من باب الخداع والتمويه الذي هو صنعة الشيطان، وهناك عوامل أخرى ساهمت في انجاز مهمته:

منها: غرور الإنسان وإعجابه بنفسه وكل ما يصدر عنه... ولذا يجد الشيطان من هذا الباب مدخلاً، والولوج منه سهل ميسور.

ومنها: أن العيون لا تكون في الظلام قادرة على تبين الأشياء، والذي لم يهتد بهدي الله.. هو في الظلام، ولهذا لن يكون في رؤيته نفاذ إلى حقائق الأشياء، بل ستكون من خلف غشاوة الضلال التي سيطرت على عقله فأصبح يرى الأمور من خلالها.

وبهذه العوامل المساعدة تتم عملية التزييف تحت ستار من الزينة الخادعة. ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾(٢).

* * *

وإذا كانت الزينة وسيلة اختبار، وكانت هي الباب الذي يلج منه الشيطان فذلك دليل على رصيدها الكبير في التأثير على النفوس.

الجمال جزاء العمل الصالح:

إن واضع المنهج الإلهي هو خالق الإنسان، ولذا كان التناسق كاملاً بين المنهج وبين تلك الفطرة التي فطر الإنسان عليها.

وبما أن للحسن أثره البالغ على النفس، فقد جعله الله بعض الجزاء على العمل الصالح، ونتيجة للاستقامة في هذه الحياة. وبهذا يكون الجمال هو العنصر البارز

(١) سورة النحل [٦٣].
(٢) سورة الجاثية [٢٣].

في الثواب الذي أعده الله لعباده المتقين. وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى ذلك في الكثير الكثير من آياته، حيث جاء التركيز على حاسة البصر أكثر من غيرها. وحاسة البصر هي الوسيلة لاستشعار هذا اللون من النعيم.

ولنستمع إلى بعض هذه الآيات الكريمة:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾(١).

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾(٢).

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾(٣).

وتتنقل العين عبر هذه المشاهد من جمال إلى جمال.. الجنات التي التفت أشجارها بعضها على بعض، وتلاقت أغصانها.. والماء الجاري منساب رقراق.. والحلية.. تتعانق فيها الألوان من ذهب أصفر إلى لؤلؤ أبيض.. والثياب.. السندس والاستبرق والحرير متناسبة الألوان في خضرتها مع الجو العام.. إنها مشاهد تحار العين على أيّها تستقر!

وفي مشهد آخر، حيث تقل الكلمات، وتُلغى آفاق المسافات، ويسرح الفكر والنظر.. ويتساوق العموم الذي تعنيه «ما» في قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾ مع الخلود الذي يعني العموم الزمني.. فإذا جمال النص جزء من جمال الحقيقة..

---

(١) سورة التوبة. الآية ٧٢.

(٢) سورة الكهف. الآيتان ٣٠، ٣١.

(٣) سورة الحج. الآيتان ٢٣، ٢٤.

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾[1].

وتأخذ «لذة الأعين» مكانها، في إشارة خاصة بها من بين كل ما تشتهيه الأنفس.. ولذا فالصحاف، لا يشار إلى ما فيها ولكن يشار إلى مادتها، فهي وحدها المناسبة لذلك الجو من الحبور والسرور حيث يتوفر كل ما تشتهيه الأنفس، وتتمناه وترغبه.

* * *

كانت تلك مشاهد إجمالية لذلك الجزاء، أبرزت فيها الخطوط العريضة والمعالم الكبيرة.

ونحب أن نعيش مع واحد من النصوص التي تناولت الأمر بشيء من التفصيل:

﴿...فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديراً. ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عيناً فيها تسمى سلسبيلاً. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضةٍ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾[2].

إنه مشهد يشع الجمال من كل أرجائه، ويبدو كذلك في كل جزئية من جزئياته. وهو مع ذلك يؤدي دوره في أداء المتاع حقه من الوصف والإيضاح وهكذا يلتقي المتاع والجمال. وهي سمة واضحة في كل نعيم الآخرة.

ونحن ـ في هذا النص ـ نريد الإشارة إلى الجانب الجمالي فهو موضوع بحثنا.

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ٧٠ و ٧١.

(٢) سورة الإنسان الآيات ١١-٢٢.

إن كلمة «الجنة» بمقدار ما تعني من النعيم، فهي ترسم لوحة الجمال الطبيعي حيث تلتف الأشجار يعانق بعضها بعضاً، فتبدو أقواساً منتظمة أو غير منتظمة وكل يؤدي دوره في إتمام اللوحة...

وفي «الأرائك».. إنها ليست مجرد سرر يأخذ الإنسان راحته عليها، بل هي التي أحيطت منها بالستائر والحجال. لا لتغيّب من فيها عن النظر، وإنما لتؤدي دورها في جمال المنظر...

و«الظلال» ليست ظلالاً تقي حر الشمس، فهم ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ ولكنها لأداء الدور الجمالي. وللظلال حيثما وجدت دورها الجمالي الكبير. و«دنو» الظلال يعطي المشهد جمال الحركة وحيويتها.

و«الآنية» ليست مجرد أوعية لتؤدي الغرض فيما أعدت له، ولكنها جمالية من الجماليات، وما زال الناس في دنياهم قديماً وحديثاً يُعنون بجماليات هذه الأواني، فصلتهم بها يومية..

إنها من الفضة، والفضة ترسم في المخيلة ذلك اللون الرائع مع لمعان ليس بالشديد، يوحي بالصفاء.. والأكواب من نفس المادة، ولكنها في تركيب آخر يؤدي مهمة الكوب من حيث الاستعمال ويؤدي التناسق مع بقية الآنية من حيث اللون والمادة.. إنها قدرت تقديراً محكماً، حيث رقّت ودقت صفحتها، فأصبحت شفافة، فهي في مادتها فضية، وفي شفافيتها زجاجية.. إنه الجمال.

وأما الولدان الذين يؤدون الخدمة فهم اللؤلؤ المكنون وكفى به وصفاً إلهياً.

والثياب من الحرير بأنواعه.. السندس والاستبرق في لون ينساب مع اللون العام فلا يحدث التنافر في الألوان.. بل التكامل والتناسق.. وكذا الحلي..

وفي قوله تعالى (وإذا رأيت ثَمَّ رأيت..) تأكيد على أهمية حاسة البصر وأن جزءاً كبيراً من ذلك النعيم يحصل عن طريقها.

* * *

ولا تغفل النصوص الكريمة الجانب النفسي للإنسان، وما له من أثر على طلاقة وجهه واشراقته، وهو يعيش في ذلك النعيم. فهو الصفحة التي تعكس كل

ما يحيط بها في بلاغة وإيجاز. وقد وردت الإشارة إلى ذلك في آيات كثير منها ما ورد في النص السابق (ولقاهم نضرة وسروراً﴾ومنها قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[1]

إن آثار النعيم بكل أبعاده ـ والجمال يبدو منها جميعاً ـ ستشرق في وجوه أولئك الذين كتب الله لهم الفوز برضوانه، يعرف ذلك ويحس به كل من رآهم.

﴿إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم..﴾[2].

إنها صورة الإنسان الذي يتناسب مع الجو السابق المذكور.. فالوجوه الكالحة المظلمة، لا تصلح له وتسبب تنافراً في اللوحة الكبرى..

* * *

مما تقدم نرى مدى اهتمام النصوص بعرض الجمال، وما ذاك ـ كما قلنا ـ إلا لما له من أثر عميق في النفس، فكان هذا الوصف بياناً للجزاء من جهة، وإغراء بالعمل الصالح وحثاً عليه من جهة أخرى.

وبهذا نتبين مدى الدقة في المنهج الإسلامي وهو يتعامل مع النفس الإنسانية فهو يلبي كل حاجاتها من خلال الفطرة في تغطية شاملة لكل متطلباتها من حاجات وأشواق.

* * *

تلك قصة تأثير الجمال في النفس، يسجلها القرآن الكريم في وضعها حين يكون الجمال حقيقة، كما يسجلها حين يكون تموهاً وخداعاً.

وفي الحالة الأولى: يتعامل المنهج الإسلامي مع الفطرة فيسمو بالإنسان.. حيث ترق المشاعر وترتقي العواطف، وتعمل إنسانية الإنسان، فإذا به يسير في

---

(١) سورة القيامة الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة المطففين الآيات ٢٢-٢٤.

طريق الزينة التي هي من صنع الله تعالى.. ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينة في قلوبكم﴾[1].

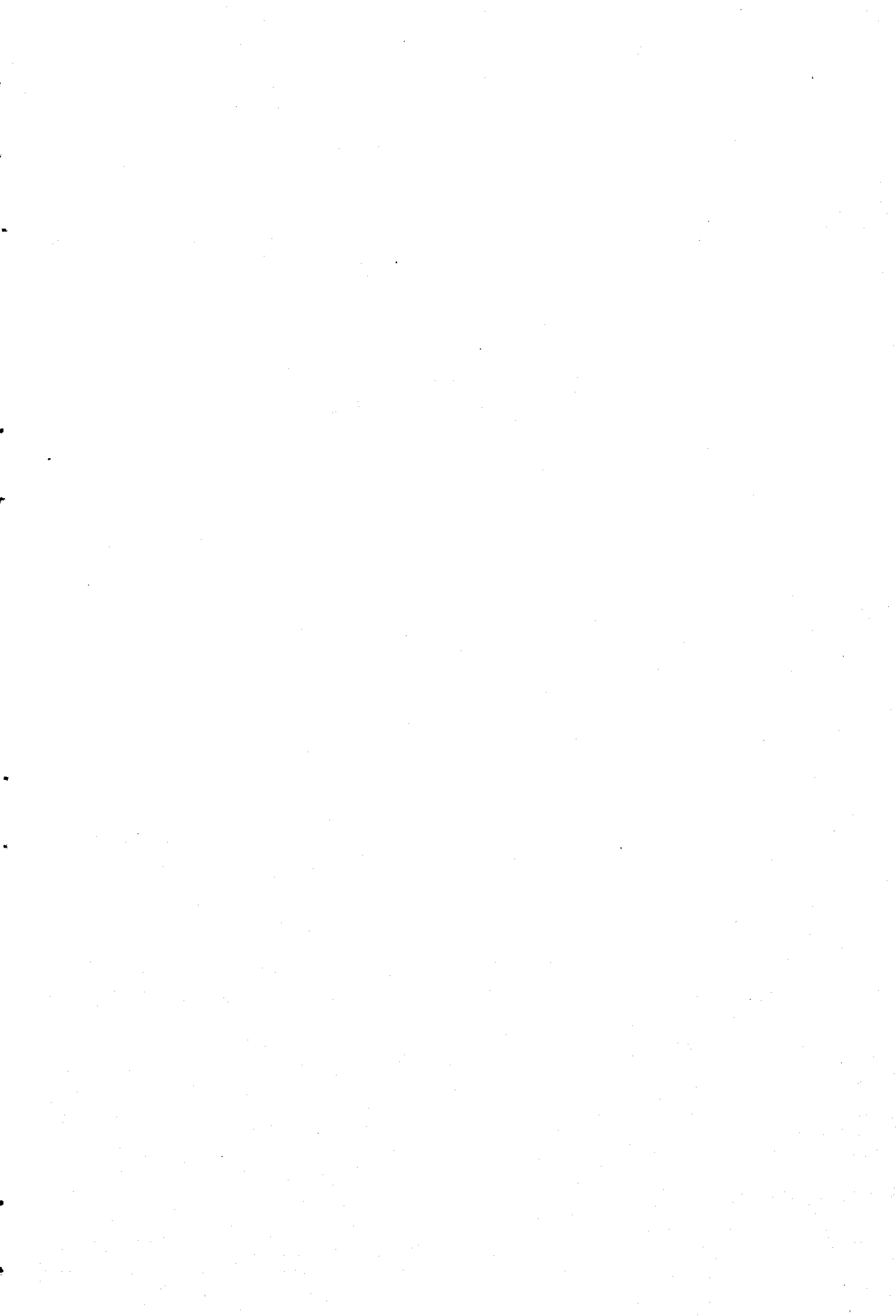
وفي الحالة الثانية: حيث الزينة الخادعة.. فإنه يغلظ الحس، وتسيطر على الإنسان ماديته، وتموت أشواقه، و يصبح محكوماً من خلال شهواته ونزواته، إنه اتجاه نحو الأسفل.. حيث تغيب إنسانيته وتطفو على السطح حيوانيته و يصدق فيه قولهتعالى: ﴿.. أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[2].



(١) سورة الحجرات [٧].
(٢) سورة الأعراف [١٧٩].

الفصل الثالث

الجمال والقيضة الكبرى



القضية الكبرى...

إنها العقيدة...

وهل للجمال من علاقة بالعقيدة؟.. نعم.

إن الجمال أمر قائم في بنية المنهج الرباني، كما هو قائم في صنعة الله تعالى. وهو كذلك في فطرة الإنسان.

والعقيدة تصور للحقيقة وإقرار بها.. أراد الله أن يستقر في عقل الإنسان ووعيه ومشاعره، بحيث يصبح مسلمة ثابتة، تشغل الساحة النفسية كلها.

فليس غريباً ــ بعد هذا ــ أن يلجأ القرآن الكريم إلى «الجمال» ليكون حجة ودليلا في هذا الميدان، كواحد من البراهين المهمة، باعتبارها سريعة الوصول إلى مستقرها في النفس الإنسانية.. فالوصول إلى الوجدان عن طريق المشاعر أمر ميسور.

وقد نوع القرآن الأساليب لتثبيت العقيدة. فاعتمد على البراهين العقلية بمقدار ما يشغل الساحة التي يهيمن عليها العقل في كيان الإنسان. واستعمل المنطق الجمالي.. بالمقدار الذي يشغله الجمال من ساحة المشاعر والأشواق.

والقرآن في ذلك يعتمد طريقة فريدة إذ يمزج بين نوعي الدليل ليخاطب الإنسان بكليته، فهو لا يخاطبه فكراً على انفراد، كما لا يخاطبه مشاعر على انفراد. ولذا أشرب الدليل العقلي المعنى الجمالي، وإنساب البرهان الجمالي إلى النفس يحمل في طياته لغة العقل.. وبهذا تكون القناعة عقلية ووجدانية.

وقد يكون الوقوف أمام الأمثلة أجدى من الحديث عنها قال تعالى:

﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن

جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[1].

إنها حدائق ذات بهجة..

«حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة... ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية. وتأملُ هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر. وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دوتها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر..[2]».

* * *

وإنها ــ كذلك ــ الأنهار..

تمخر هذه الأرض منسابة من الأعالي، أو متفجرة من السهول، ومع تلك صوت الخرير، ومع هذه صوت التدفق.. إنها نبضات الحياة، يعبر عنها الصوت والحركة.

إنه الجمال يملأ العين والأذن معاً، إنه يحمل إليهما الريّ كما يحل الماء الري إلى كل مكان آذن الله بوصوله إليه.

إنها الحدائق.. وإنها الأنهار.. وإنها الرواسي.. وإنها..

وبعد ذلك «أإله مع الله»؟؟

استفهام فيه الكثير من الإنكار والتعجب!!

إن الذين هم في شك «قوم يعدلون» عن الحق «بل أكثرهم لا يعلمون».

* * *

---

(١) سورة النمل. الآيتان ٦٠، ٦١.

(٢) الظلال في تفسير الآية المذكورة.

وفي تقرير آخر تحدثنا آيات القرآن الكريم معددة نعم الله الظاهرة على هذا الإنسان، ليتعرف من خلالها عظمة الخالق وفضله.. وتعداد آلائه.

﴿والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾..

﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلآء ربكما تكذبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأي آلآء ربكما تكذبان. وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام. فبأي آلآء ربكما تكذبان﴾[1].

ونتوقف عند هذا الوشاح الجمالي الذي يبرزه النص الكريم، مبيناً للإنسان تلك النعم التي تجاوزت حدود الضرورات.. لتلبي المشاعر وحاجة الحس..

«فيها فاكهة»

والفاكهة متعة للنظر في أشكالها وتنوعها وألوانها، وما زال فن الرسم منذ القديم وحتى عصرنا الحاضر.. وحتى التجريدي منه الذي برز في التكعيبة.. ما زال يقدم لوحات لها، لما تؤديه من دور جمالي... وهي مع هذا متعة للمذاق.

«والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان»

إنها واحدة من أنواع الشجر الباسقة، والارتفاع يؤدي دوره في الحسِّ الجمالي.. وبخاصة حينما يكون على وشك التبشير يقرب الإنتاج حيث تزينه الأكمام، والأكمام هي الكؤوس أو الأكياس التي تحمل الطلع.. إنه طفولة الثمرة.. والطفولة جمال في كل شيء والنص لا يكتفي بتلبية حاجة العين فحسب من خلال تلبية الضرورات بل يطلب مشاركة الحواس الأخرى.. فالريحان تلبية لحاسة الشم وهي تلبية جمالية ينشرح لها الصدر وتمتليء بها النفس..

وتنقلنا الآيات بعد ذلك لتقف بنا على البحر.. بعد أن متعنا نظرنا وحسنا ببعض إنتاج الأرض اليابسة.

---

(١) سورة الرحمن الآيات ١٠-١٣، ١٩-٢٥.

والبحر.. خلق فيه من الجمال بمقدار ما فيه من الجلال. إنه يتيح لك أن تمد نظرك حتى يغيب مع الأفق فتأخذ العين راحتها دون أن تصطدم بالحواجز.

والبحر لوحة فنية معطاء... قادرة على أداء فنيتها في كل وقت في الصباح عندما تشرق الشمس. وفي الأصيل.. في الضحى حينما يشتد حيث تعكس صفحة الماء ضوء الشمس.. وفي الليل حيث تنساب الخطوط من ضوء القمر تضيء الطريق للأمواج في تقدمها نحو صخور الساحل.. معبرة عن الشوق والحب..

والبحر جمال، ومنه تخرج أدوات الزينة والجمال «اللؤلؤ والمرجان».. ويحمل على متنه آيات الجمال، إنها المنشآت في البحر كالأعلام..

تلك السفن الضخمة في حجم الجبال ووزن الجبال يحملها في هدوء وحنان هذا المائع الرقراق.. إنه من المشاهد التي لا تملها العين..

وبعد هذا وذاك «فبأي آلآء ربكما تكذبان».

إنه الجمال يؤدي دوره في بناء العقيدة.

* * *

والعقيدة لا تبنى في النفوس بالإكراه والقسر، ولكن بالإقناع الهادىء، ولفت النظر.. حيث يعود الإنسان بعدها إلى نفسه يراجع حسابه في هدوء وطمأنينة.. ذلك هو الطريق.

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد..﴾[1].

والآيات هنا، كما تخاطب العقل. فإنها ــ أيضاً ــ تدعو الحس الجمالي إلى التأمل والنظر، فإن له دوره في هذا الميدان.

---

(١) سورة ق. الآيات ٦-١٠.

وقرب الأشياء من الإنسان يجعلها مألوفة لديه، فلا يمعن النظر فيها!! ولا يتفحص أسرارها وعجائبها.

والآية الكريمة هنا، تبدأ بالاستفهام الذي ضمن التعجب والاستغراب.. فالسماء قريبة من الإنسان، إنها فوق رأسه، فما عليه أكثر من أن يرفع رأسه إلى أعلى فينظر... فيتعرف إلى الخالق سبحانه من خلال مخلوقاته.

وتوجّه الآية النظر إلى أمور ثلاثة:

«كيف بنيناها»

«وزيناها»

«وما لها من فروج»

وكلها جوانب يأخذ فيها الجمال مداه وغايته.

«كيف بنيناها» والبناء في لغة الإنسان يعتمد على القواعد والأسس، وعلى الأعمدة والسواري.. ولا يتصور بغير هذا. وكلما قلّت هذه الأعمدة والقواعد.. كلما كان أقرب إلى الجمال.. والمسافات هنا مسافات صغيرة لا تكاد تذكر مهما اتسعت بل إنها لا تذكر.

أما بناء السماء.. فهو شيء آخر، فلا قواعد ولا أعمدة. هكذا سقف مرفوع بغير ركائز، وهو سقف محفوظ محكم. وهو واسع واسع «وإنا لموسعون»، و يذهب البصر في كل الاتجاهات. فلا يدرك غاية.

إنه الجمال يبدو من خلال العظمة والإحكام..

«وزيناها» والزينة ــ هنا ــ خلق متناسب مع هذا الاتساع، إنها الكواكب والمجرات. إنها الحجوم الهائلة التي لا مجال للحديث عن عظم كتلها و بيان ذلك بالأرقام، لأنه يذهب بحديث الجمال..

«وما لها من فروج» إنه كمال الخلق الذي لا عيب فيه، فلا تشقق ولا خروق رغم ذلك الاتساع...

فإذا هبط ببصره إلى حيث يقف.. كان أمام آيات أخرى.

«والأرض مددناها..»

إنها مدت لتكون صالحة لقيام الحياة عليها.. ومن ذلك النباتات البهيجة التي تسر العين بمرآها، وهي مع ذلك أزواج.. سيراً مع السنن الكونية.. وأما الرواسي فلها في الحسّ الجمالي وقع كبير.. يستشعره كل من وقف أمامها في عالم الطبيعة، أو في عالم اللوحات.

«تبصرة وذكرى»

إن ما سبق الحديث عنه، وما يتبع أيضاً، للتبصر والذكرى، فلعل ذلك يكون الطريق إلى الحق.

وفي الجزئيات ما يذكر الإنسان و يبصره.. كالكليات، ولذا ذهبت الآيات الكريمة تذكرنا ببعض ذلك.. إنها الجنات.. والباسقات من النخيل ذات الطلع المنضد.. كلها ميادين تأمل.. وكلها تبصرة وذكرى..

* * *

والعلم بالله يورث الخشية منه، وهي متناسبة معه، والعلم تأمل ونظر ومقارنة وبحث، ولئن كانت الآية السابقة تطلب من الإنسان أن يرفع رأسه إلى أعلى فينظر إلى السماء. فإن آيات أخرى تدعو إلى النظر المتعمق إلى المقارنة والاستنتاج.. ولنستمع إلى واحدة منها.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور﴾(١).

وقد سبق الحديث عن الجبال في هذه الآية. ولكننا الآن نتحدث عن مظهر الوحدة في اختلاف اللون.

و بأسلوب تقريري تبدأ الآية (ألم تر..)

---

(١) سورة فاطر الآيتان ٢٧-٢٨.

ثمرات مختلف ألوانها.
جبال مختلف ألوانها.
الناس مختلف ألوانها.
الدواب مختلف ألوانها.
الأنعام مختلف ألوانها...

إنها ألوان وألوان متعددة في الصنف الواحد من المخلوقات، وهي كلذلك متدرجة في اللون الواحد.. فاللون الأحمر مثلاً مختلف. إنها طائفة من الألوان تشملها التسمية بالأحمر.

والآية الكريمة تشير إلى أن اختلاف اللون ظاهرة تشمل جميع المخلوقات إنه اختلاف.. ولكنه اختلاف يشمل جميع المخلوقات.. فهو منهج ونظام بني الخلق على أساسه، إنه دليل على وحدة الخالق سبحانه.

إن هذه النظرة الفاحصة التي تبحث وتقارن وتستنتج. تحتاج إلى العالم الصبور على البحث.. ووقوف العالم على هذه الدقائق يجعله أكثر معرفة بالله تعالى وأكثر خشية وهذا ما تقرره الآية في ختامها «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

واللون الذي هو العامل المشترك بين هذه المعروضات، عنصر مهم في الجماليات كلها، وبهذا يكون الجمال مسرحاً يجول في ردهاته النظر والفكر لينتقل منه إلى عظمة الملوّن.

* * *

وفي المجال نفسه نحب أن نتوقف عند نص كريم آخر:

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمرة إذا أثمر و ينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٩٨-٩٩.

«أنشأكم من نفس واحدة»
«أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء»
المبدأ واحد. وحدة في أصل الخلق، وتنوع بعد ذلك.
نفس واحدة، واختلاف في الألوان.. واللغات.
ماء واحد، ونباتات شتى...

إنها وحدة الصنعة ومن ورائها وحدة الصانع، ثم تأتي البيانات الجمالية التفصيلية في الآية الثانية تبين عظمة الصانع.

«خضراً» إنه اللون والحيوية تعبر عنه الكلمة الكريمة.
«متراكباً» إنه الشكل الهندسي، ركب بعضه على بعض في تناسق وتكامل.
والقنوان الدانية.. إنه جمال الحركة.. قربها وجعلها في المتناول.
والتشابه.. وغير التشابه تناظر وتوازن في المشهد..

إنها لفتات من الآية الكريمة تستحق التأمل والمتابعة.. «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه» إنه جمال آخر يضاف إلى جمال اللون وجمال الشكل وجمال الشجر.. أليس في هذا من الآيات ما فيه؟! ولكنها «لقوم يؤمنون».

* * *

وهكذا يدخل «الجمال» عنصراً مهما في بناء العقيدة وتأكيدها. ولم تكن الآيات التي توقفنا عندها إلا أمثلة لما انبثّ في القرآن الكريم، في سوره وآياته من براهين ودلائل جمالية. مما يحتاج إحصاؤه إلى بحث خاص.

ونورد أمثلة أخرى مكتفين بالنص الكريم للتأكيد على أن اعتماد الجمال في أمر العقيدة ليس أمراً عرضياً، بل هو أمر مقصود.

﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ النحل [٧٩].

﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ الأنبياء [٣٢].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، إن الله لطيف خبير﴾ الحج [٦٣].

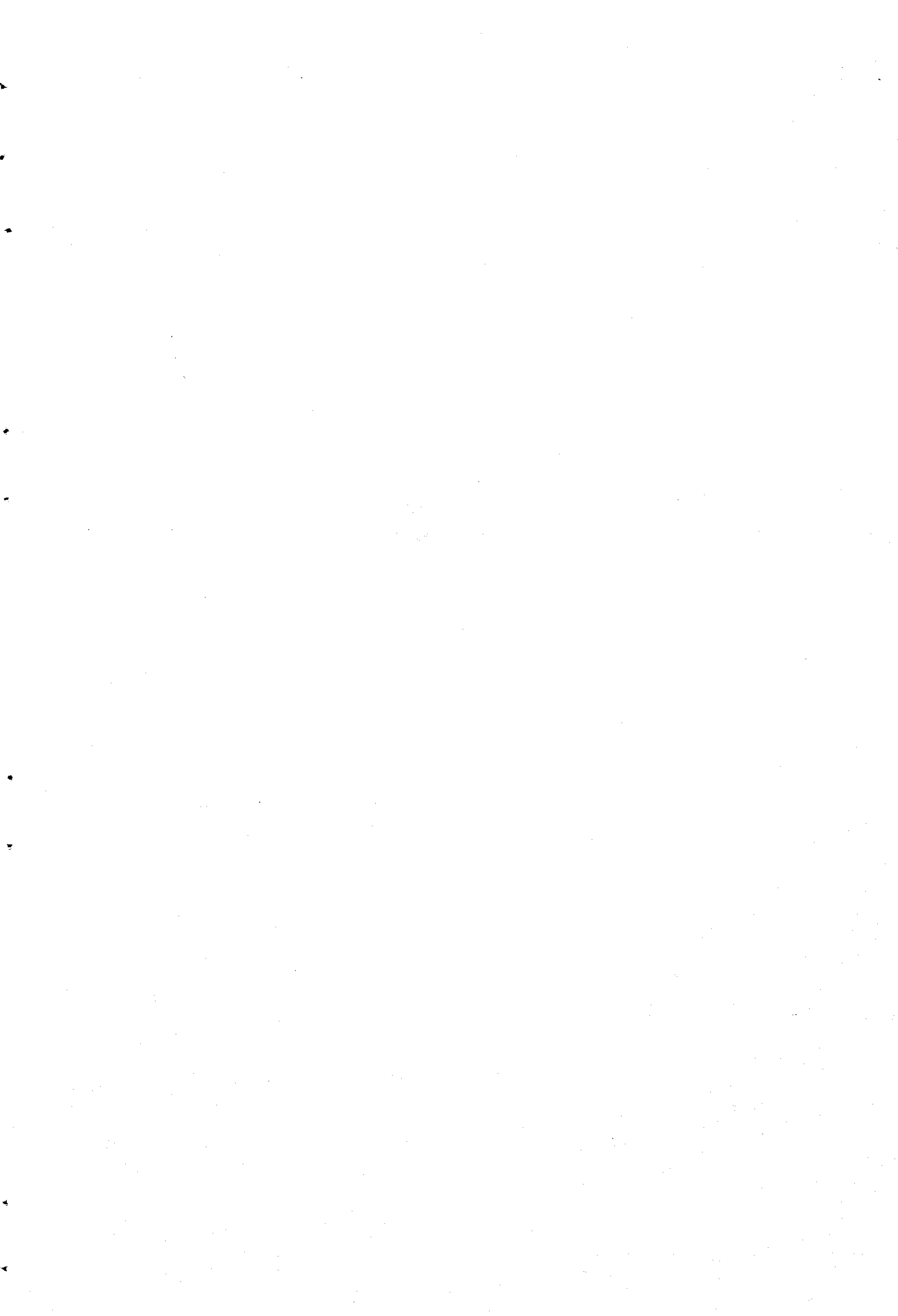
(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منير. وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ الفرقان [٦١-٦٢].

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت..﴾ لغاشية [١٧-٢٠].

وآيات.. وآيات..

(١)





الفصل الرابع

العموم والشمول

○ كلمة في المنهج والجمال.

— الألوهية.

— الكون.

— الإنسان.

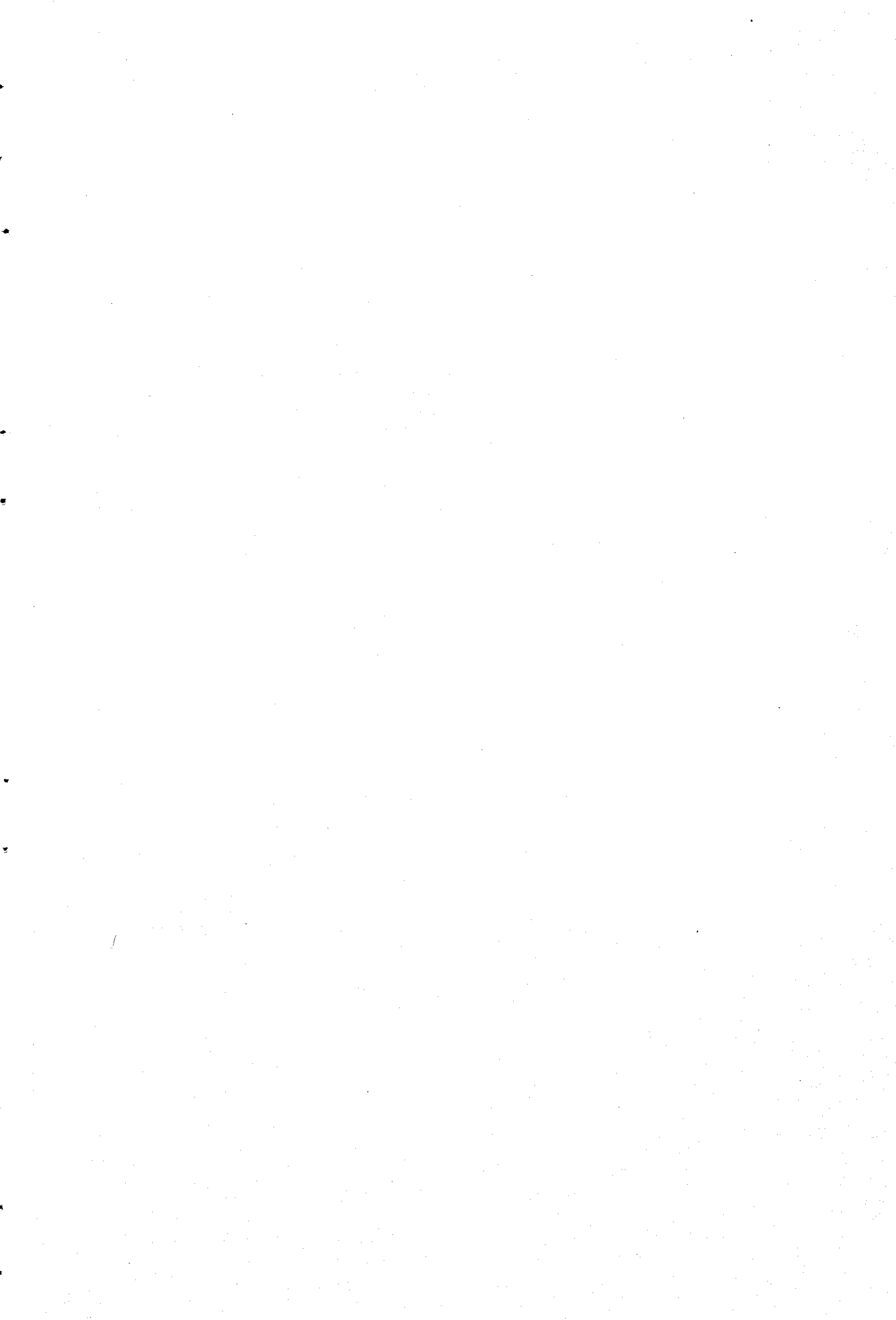
○ ميادين لم تعرف الجمال.

— الصبر.

— الهجر.

— مواطن أخرى.

○ صانعو الجمال ومشاهدوه.



(كلمة في المنهج والجمال)

إن الحديث عن العموم والشمول في الظاهرة الجمالية يدفعنا إلى التعرف ــ ولو معرفة ذهنية ــ على المنهج الإسلامي في خطوطه العريضة.

إن هذا الدين منهج. منهج في التفكير والحركة، وهو كذلك منهج في تصوره الاعتقادي ونظامه الحيوي.

و«توحيد الألوهية» هو القاعدة الكبرى التي يقوم عليها بناء العقيدة، ومنها ينبثق التصور الاعتقادي الكامل للألوهية، وللوجود الكوني، وللحياة، وللإنسان.

فالله سبحانه هو الإله الواحد الخالق.. المربي.. المعبود.

والكون، منه ما هو مشاهد «عالم الشهادة»، والجانب الآخر هو عالم الغيب.

والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف بل هناك الحياة الآخرة.

والإنسان هو المخلوق الذي استخلفه الله في هذه الأرض.. إنه ليس إنسان حقبة من الزمن أو جيل من الأجيال. إنه الإنسان حيث وجد.. إنه إنسان الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

إنه ليس مخلوقاً تائهاً، لا يدري لم خلق؟ ولا إلى أين يسير؟ إنه في ظل هذا التصور مخلوق مكرم، يعرف قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره كما يعرف كيف يبني علاقته بالكون وبالأحياء ــ وهي علاقة ودّ، واشتراك في العبودية ــ كما يعرف علاقته بالخالق. وهي علاقة عبودية وخضوع.

وهو في رحلته في هذه الحياة لا يسير فوضى. بل هناك تشريع يضبط له كل تلك العلاقات. فتلك شرائع العبادات، وتلك الشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله في إطاره الفردي.. والجماعي.. وكذا الدولي.. وهناك تشريع تربية الضمير.. والتعامل مع السرائر والنوايا..

إنه تشريع مصدره خالق الإنسان. ولذا فهو يلبي كل حاجاته..

إن التعاون وثيق بين التصور والنظام، فالتصور يشغل كل أبعاد الفكر وأشواق الروح،والنظام يلبي كل حاجات النفس في شؤون الحياة كلها لا يترك صغيرة ولا كبيرة.. عبادة ومعاملة.. مادة ومعنى.. ما وجد منها، وما سيجد، بناء على قواعد عامة وضعها خالق الإنسان العليم به.

* * *

نتبين من هذا أن التصور الاعتقادي في الإسلام يتميز بسمات ثلاث لا يشاركه في واحدة منها أي من التصورات الأخرى.

- فعقيدة هذا الدين هي الحقيقة نفسها.
- وهي بعيدة عن التعقيد فلا تتعامل مع الرموز.
- وهي عامة شاملة.

وهي بهذا تتيح للإنسان.. أن يتعامل معها وهو مطمئن إلى أنه أمام الحقيقة كاملة بكل أبعادها.

وسيكون ميسراً له إدراكها وفهمها. لأنها التعبير الصادق عن الحقيقة، ولأنها تخاطب الفطرة. بعيداً عن الغبش والأوهام. ولأنها ــ أخيراً ــ تلبي حاجته في تصور كامل شامل يعطيه جواب كل تساؤل.

* * *

وهكذا فنحن مع المنهج الإسلامي أمام عموم وشمول. عموم يهيمن على كل القضايا، وشمول يتناول جميع جزئياتها...

إنه في البعد المكاني يشتمل على عالم الشهادة ليتجه منه إلى عالم الغيب.
وفي البعد الزماني يسيطر على الحياة الدنيا ساعياً إلى الآخرة.
وفي البعد البشري يتناول الإنسان بكل فئاته وفي جميع العصور.
وفي البعد النفسي يتناول ما يكمن في الضمير.. إضافة إلى الحاجات النفسية والروحية.

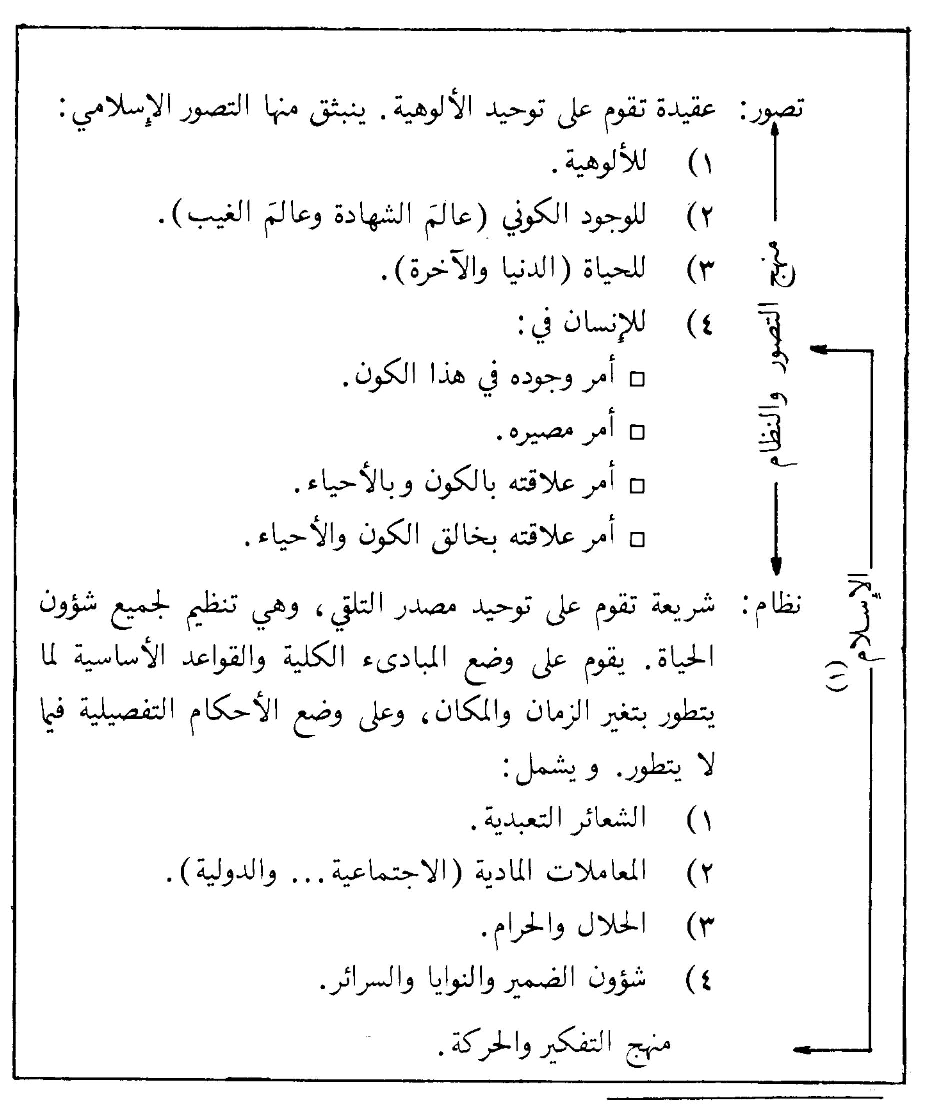
إنه منهج من صنع الله.

* * *

وبناء على هذا التصور نستطيع القول بأن الظاهرة الجمالية تنساب في هذا المنهج لتؤدي دورها كاملاً: في الأصول والفروع. وإذا كان من الصعب استيعاب الحديث عن الجزئيات فلا أقل من الوقوف على الكليات..

الألوهية، الكون، الإنسان.

* * *



(١) هذا الجدول مستخرج من الظلال مج ٢ ص ٨٤١ و١٠٠٤ وما بعدهما (دار الشروق ط ٨).

الألوهية:

الجمال صفة من صفات الألوهية، وفي هذا المجال يظل المرجع الأول والأخير هو النصوص. وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال)[1].

على أن العقل يقرر هذا أيضاً، فالكمال المطلق هو صفته سبحانه وتعالى وإنما يبلغ الكمال غايته بالجمال.

الكون:

سبق الحديث عن جمال الكون، ولكننا هنا بصدد «العموم والشمول» نحب أن ندعو القارىء إلى مائدة الظلال عند قوله تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[2].

«إنها لفتة كونية عجيبة.. لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها. في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام. لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً. وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً.

«... ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها ﴿فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال. فما من نوع من الثمار يماثل

---

(١) الحديث في صحيح الإمام مسلم من رواية عبدالله بن مسعود ج ١ ص ٩٣. كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (باب ٣٩). وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ريحان ١٣٣/٤ و١٣٤ وعن عقبة بن عامر ١٥١/٤.

(٢) سورة فاطر. الآيتان ٢٧-٢٨.

لونه لون نوع آخر. بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد. فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون!

«و ينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها. بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها».

﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾.

«والجدد الطرائق والشعاب. وهنا لفتة في النص صادقة. فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه. وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد».

«واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزاً. وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، على بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان. ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك. يستحق النظر والالتفات».

«ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة».

«وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب أشمل والأنعام أخص، فالدابة كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان. والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء» (١).

---

(١) من الظلال في تفسير الآيتين السابقتين.

إن النص الكريم يلفت النظر إلى سمة واحدة من سمات الجمال وهي «اللون» في عدد من المخلوقات في هذا الكون، وهي مثال يضرب لكل عناصر الجمال الأخرى.

* * *

وإذا أحب القارىء الكريم أن يقف على أمثلة أخرى على ظاهرة العموم في ألوانه المتعددة، فأدعوه إلى جولة قصيرة نستعيد فيها بعض المشاهد التي ربما مررنا بها، ولم نهتم لها..

هل أتيح لك أن تشاهد تلك القطة التي وضعت حملها منذ أيام. وهي ما تزال مهتمة بصغارها تسعى إلى تغذيتهم.. وها هي بعد أن انتهى دور الرضاع تؤثرهم على نفسها بتلك القطعة من اللحم التي حصلت عليها.. ثم تجلس لتنظر إليهم أثناء طعامهم في ودّ وحنان.. ثم ها هي قد انتقلت بهم إلى شمس الشتاء الدافئة تنظف لهم أجسادهم بلسانها.. وتداعبهم..

إنه جمال الأمومة.

إنه جمال الرحمة.

إنه جمال العلاقة الحسنة ضمن الاسرة الواحدة.

وفي أمة النمل، لو أمعنت النظر. لوجدت عجباً.. تلك الطرق المعبدة التي يسلكها النمل إلى بيوته.. إنها طرق اختطها وهيأها لتسهل عليها حركة السير، قد تضطر الواحدة أن تفسح المجال بعض الأحيان لتمر صديقتها.. ثم قد يخطر لهما أن تجريا حديثاً ما قبل أن تفارق إحداهما الأخرى..

وها هي إحداهن وقد عثرت على بعض سنبلة قمح فلم تستطع جرها فذهبت لتستدعي رفاقها لمساعدتها.. وقد فعلن.. بعضهن يدفع و بعضهن يجر...

وها هي النملة المكلفة بالحراسة تنادي بأعلى صوتها وقد شعرت بالخطر الداهم ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾[1].

---

(١) سورة النمل. الآية ١٨.

إنه جمال التنظيم..
إنه جمال التعاون..
إنه الدقة والنباهة في أداء الواجب وتحمل المسؤولية.

وفي عالم النحل حدّث ولا حرج.. الكثير الكثير.. من التنظيم في توزيع العمل.. في هندسة البنيان.. في التعاون.. إنها أمة النحل التي أوحي إليها ﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا..﴾[1].

إن جولتنا لن تنتهي لو أردنا متابعة الخطا.. إنها أمم وأمم ولكنا نكتفي بالنص الكريم يلخص لنا ذلك بكلمات قليلة.

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[2].

إنها أمم لها نظمها الاجتماعية!! لها لغاتها التي تتفاهم بواسطتها[3].. لكل منها طريقتها في الحياة[4]..

إنه الجمال الكوني العام الشامل ينساب خلال هذه المخلوقات، ابتداء من الإنسان وانتهاء بأصغر دابة تدب على الأرض وأصغر طائر يطير بجناحيه من فراشة وغيرها..

---

(١) سورة النحل الآيتان ٦٨-٦٩.

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٣) جاء في سورة النمل الآية ١٦ قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ وسبق الحديث أعلاه عن انذار النملة لقومها.. وقد سمعها سليمان عليه السلام ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها..﴾.

إنه لكل أمة من المخلوقات منطقها، ولغة تتفاهم بها فيما بينها.

(٤) هناك خطوط عريضة تشترك فيها كل الخلائق منها الرحمة التي ورد ذكرها في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه). انظر جامع الأصول الحديث رقم ٢٦٢٣.

إنها أمم، يضم الطائفة الواحدة سلك الأمة. فكل فرد جزء من مجموع.. إنه جمال وتناسق وتماثل في هذا التنظيم الكوني العام.. ظاهرة واضحة المعالم لكل ذي عينين، وقلب يعي.

الإنسان:

سبق القول: إن الإحساس بالجمال أمر فطري..

ولكن قد يوجد من العوامل ما يبلد هذا الإحساس، حتى يفقده قدرته فقداناً جزئياً في بعض الميادين أو في جميعها، أو فقداناً كلياً في بعضها وجزئياً في بعضها الآخر.

وبالمقابل، فقد يوجد من العوامل ما ينمي هذه القدرة ويزكيها حتى تصل إلى درجة عالية من الشفافية في رؤية الجمال وكشفه حيث كان، وتصل كذلك إلى درجة عالية في إنتاج الجمال في شتى مجالات الحياة. وحتى في المناخ القاسي الذي قد لا يكون ملائماً لمثل هذا الإنتاج.

والإسلام يهيء للإنسان كل العوامل التي من شأنها أن تجعل منه «الإنسان الجمالي» أو لنقل وبالتعبير الأدق: الإنسان المسلم.

ونستطيع أن نرجع تلك العوامل إلى عاملين رئيسيين:

- معرفة الإنسان بنفسه.
- معرفة الإنسان لوظيفته ودوره في هذه الحياة.

أما المعرفة الأولى فيتلقاها حقيقة يقينية من قوله تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[1].

إنه بهذه النفخة من روح الله يتلقى التكريم من الله.

«لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين. كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين. فمن الطين كل عناصرها، فيما عدا سر الحياة الذي لا

(١) سورة ص الآيتان ٧١-٧٢.

يدري أحد من أين جاء ولا كيف جاء. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر، وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنساناً»[222].

إنها «النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائصه الإنسانية، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية. فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء، بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه».

«هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للاتصال بالله، وللتلقي عنه ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول..[2]».

وشتان بين أن ينطلق الإنسان من هذه الحقيقة في معرفة ذاته، وبين أن ينطلق من النظرة التي تزعم أن الإنسان حيوان متطور.. تلك النظرة المادية.. حيث تنحصر المطالب الأساسية للإنسان بالمطالب الأساسية للحيوان من طعام وشراب ومأوى وجنس..

أما الكرامة.. أما حق الاعتقاد.. أما التفكير واستعمال العقل.. أما كل ما يميز الإنسان.. فانها يسدل عليها الستار، لأن الذي يعيش منطق الحيوان لا يدرك هذه الجوانب.

إن معرفة الإنسان بنفسه ضرورة ماسّة، ومن خلالها تحدد معرفته لوظيفته..

* * *

وأما المعرفة الثانية ــ معرفة الإنسان لمهمته في هذه الحياة ــ فإنها تتوقف على إدراك للحقيقة الكبرى في هذا الوجود حقيقة الألوهية والعبودية.

وفي ظل هذا الإدراك يكون الإنسان أمام تصور عام شامل لهذا الوجود والعلاقات القائمة بين جوانبه، وحينئذ يدرك دوره في هذه العلاقات ويكون على بصيرة من أمره.. مدركاً المسار الذي ينبغي له أن يسير فيه.

---

(1) الظلال في تفسير الآيتين المذكورتين ٥/٣٠٢٧.

(2) الظلال ٤/٢١٣٩.

ولئن سبق الحديث عن هذه المعرفة في مقدمة هذا الفصل. فنحن بحاجة إلى بعض التفصيل.

إن التفسير الشامل للوجود يقوم على حقيقتين:

- □ «حقيقة الألوهية.
- □ وحقيقة العبودية. وهذه تشتمل على:
  - ــ حقيقة الكون.
  - ــ وحقيقة الحياة.
  - ــ وحقيقة الإنسان.

وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط [١]».

والإنسان ــ في هذا التصور ــ فرد من بني جنسه، مكرم بتكريم الله له، يستمد قيمته من إنسانيته لا من لونه ولا من عرقه، وتعدد الألوان والألسنة وسيلة للتعارف والتعاون. وليس سبباً لتعالي بعضهم على بعضهم الآخر، فهم سواء كلهم لآدم وآدم من تراب.. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.. وتلك لا تعطي تعالياً على الناس في الدنيا.. ولكن ثوابها عند الله تعالى.. (إن إكرامكم عند الله أتقاكم).

وعلى هذه القاعدة، قاعدة المساواة والتعاون والتعارف، تقوم العلاقة بين البشر.. بل إنها في ظل الإيمان تصبح علاقة أخوة.. وعندها ترتقي علاقة التعاون لتصبح علاقة تضحية وإيثار... وفي ظل هذه المفاهيم لا مكان للصراع... الصراع في سبيل تحصيل لقمة العيش.. والصراع في سبيل الحصول على الثوب.. والصراع.. من أجل البقاء!!!؟

والإنسان في هذه التصور لا يقوم ارتباطه فقط في دائرة المحيط الذي نشأ فيه أو الطائفة التي ولد فيها.. بل ينبغي أن ينمي علاقاته مع الناس جميعاً.. «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»..

ومع هذا فليس هو مقطوعاً عن المستقبل بل عليه أن يسعى في سبيل مصلحة الجيل الذي يليه بل والأجيال التي بعده، فالذي يوجد الخير يكون له من إنتاجه..

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. سيد قطب ص ٣.

ما دام قائماً في الحياة فمن سنَّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها.. إلى يوم القيامة.. ومن أمثلة الأعمال المستمرة في عطاء الخير.. الصدقة الجارية والعلم المنتفع به..

وإذا كان العطاء الخير ينبغي أن يستمر للمستقبل فإنه ليس مقطوعاً عن الماضي والاتصال به. إنه الخير ــ في هذا التصور ــ يقوم في ذاتية الإنسان. ولئن كان من المستحيل استرجاع الماضي فإن العواطف والرغبات والتأسف يمكن أن يتخطى الحاجز الزمني و يرجع إلى الوراء، ليعبر عن هذه الخيرية. إن تأسفنا أن أبا طالب وأمثاله لم يكونوا مسلمين.. إنما هو بعض التعبير عن حب الخير.. لكل الناس..

وهكذا فإن الإنسان فرد ليس في أمته فحسب ولا في جيله فحسب.. ولكنه فرد تمتد صلته أفقياً حتى تشمل كل أولئك الذين يعايشهم في فترة حياته، وتمتد صلته عمودياً لتكون حلقة في السلسلة التي تبدأ بآدم عليه السلام وتستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

والإنسان، ليس هو المخلوق الوحيد لله، فهناك مخلوقات أخرى لا يحصيها إلا الله.. وكل منها أمة وعالم له نظمه وله أسلوب حياته.. والعلاقة قائمة بينها وبين الإنسان.. على تسخيرها له بأمر الله تعالى خالقه وخالقها...

فعليه أن يحسن الاستعمال والاستفادة من التسخير كما عليه أن يحسن المعاملة.. وعندها يكون المردود أحسن وأفضل.. فلا ضرورة لمفاهيم العنف والسيطرة والإخضاع..

إن هذا التصور يقرر في خلد الإنسان أن تلك المخلوقات كلها تشارك الإنسان عبوديته وخضوعه لله تعالى، فهي في هذا المعنى في مستوى الأخوة له، ولكنه قد منح ــ بفضل الله ــ مفاتيح تسخيرها فليحسن الاستعمال وليشكر الله تعالى...

* * *

نكتفي بعرض هذا الجانب من حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي وبيان طبيعة ارتباطاته.. فهو الجانب الذي نحتاج إليه في بحثنا.

إن هذا التصور حينما يستقر في وعي الإنسان يجعل نفسه متفتحة قابلة للمعاني الكريمة، وعلى مثل هذا السطح يستطيع الجمال أن ينمو، وتمتد جذوره في تلك الأرض الطيبة...

وبهذا يكون التصور الاعتقادي قد أدى دوره في إقرار صلة الود بين الإنسان:

- وأخيه الإنسان.. كل إنسان.
- مع الحيوان.. ومع النبات..
- في عصره الذي يعيش فيه.. وعبر كل العصور.
- في أرضه التي يعيش عليها وعبر الكون كله.

إنها علاقة وشيجة طيبة تمتد لتسع الزمن، وتمتد لتشمل الكون كله. إنها حقيقة جمالية ــ ولا نقول فلسفة ــ تتجاوز في واقعها كل الكلمات التي تعبر عنها، لأنها أكبر من الكلمات. بل وأوضح من كل وسائل التعبير.

ويأتي دور النظام (الشريعة) ليتم مهمته.

وأول ما يقع عليه الحس الجمالي هو الظاهر، فلنبدأ به.

قد يكون من نافلة القول أن نتحدث عن عناية الإسلام بالزينة الظاهرة التي تتناول الجسم والثياب.. فذلك أمر يفرضه الإسلام فرضاً. ويتخذ كل الوسائل التي من شأنها أن تساعد على ذلك، وما الطهارة المطلوبة في العبادات ــ وهي تشمل الجسم والثوب والمكان ــ إلا واحدة من الوسائل لإنجاز هذه المهمة. ولا نريد الوقوف طويلاً على هذا الجانب ونكتفي بالإشارة إليه[1].

وتنطلق الشريعة إلى أبعد من الاهتمام بما تقع عليه العين، لتهتم بتلبية مطالب الحواس الأخرى، فإن لها دورها في أداء الظاهر الجمالي، إنها تطلب الاهتمام بالطيب تلبية لحاسة الشم، كما تطلب العناية بالكلمة التي تتعامل بها مع الآخرين فلتكن كلمة طيبة.. وبهذا تلبى المطالب الجمالية لحاسة السمع.

---

(١) سيرد هذا الحديث بالتفصيل في قسم التربية. إن شاء الله تعالى.

إنها العناية العامة الشاملة بمادية هذا الإنسان وتجميلها.

ولم تكن العناية بالجانب المعنوي أقل شأناً، فقد حظي من رعاية التشريع بما يتناسب مع أهميته.

وتبدأ عملية التجميل هنا، من طهارة النفس من الصفات الذميمة، فلا غل ولا حسد، ولا حقد ولا غش، ولا غيبة ولا نميمة ولا... وهكذا حتى تصبح صفحة النفس بيضاء ناصعة. قابلة لتلقي الجمال في معانيه اللطيفة، حيث يرهف الحس، وتعمل المشاعر. و يكون الإنسان في هذه المرحلة في صدد تطبيق قوله تعالى ﴿وذروا ظاهر الإثم و باطنه﴾[1]. إنه الابتعاد الكلي عن الإثم أو لنقل عن القبح.

إن طهارة النفس من صفة ذميمة، يعني تحليها بصفة كريمة، وهكذا تبدأ النفس بالتعامل مع الجمال في صفاته.. فإذا بنا أمام الوفاء والصدق والأمانة وما تزال الفضائل النفسية يتطلب بعضُها بعضَها الآخر ـــ تبعاً لتنفيذ أوامر التشريع ـــ حتى يسمو الإنسان و يسمو، فتصبح صفاته: الكرم والإيثار والتضحية، يحب للآخرين ما يحب لنفسه، بل ربما قدمهم على نفسه، سعادته مرتبطة بسعادتهم، إنه جزء من مجموع. وبهذا يرتقي إلى درجة الإحسان بعد أن كان في درجة الحق والواجب. وهنا يكون الجمال كل حركة من حركات الإنسان، وكل كلمة من كلماته، بل وكل هاجس يمر بخاطره..

وإذا ألقينا نظرة عامة شاملة على هذا الإنسان في ظاهره الذي تقدم الحديث عنه وفي باطنه الذي نحن بصدده تبين لنا ذلك الانسجام والتوافق بين الظاهر والباطن وهو سمة هامة من سمات الجمال.

وإنا نعترف أن الناس ليسوا في مستوى واحد من حيث إمكانية الارتقاء إلى هذه الدرجات العليا. ولكن الذي لا شك فيه أن أقل مستوى يقبله الإسلام هو ذلك الإنسان الذي قد لا ينتج «الجمال». ولكنه مع ذلك لا ينتج «القبح». وهو بهذا يعتبر عاملاً إيجابياً ـــ على سلبيته ـــ في المساعدة على إنتاج الجمال. لأنه في أقل شأنه أنه يساعد على تصفية الجو العام من شوائب القبح، بعدم المساهمة في

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٠.

إنتاجها، إنه يؤدي دوره في إيجاد النظافة، وهي الدرجة الأولى لإنتاج الجمال كما رأينا.

و يظل الباب مفتوحاً.. أمام الآخرين وهم الأكثرية ليتابعوا الطريق حتى يصل بعضهم إلى الذروة.. وكلٌ ينتج من الجمال بحسب قدراته وإمكاناته.

* * *

وفي نهاية هذه الفقرة من البحث، لا بد من لفت النظر إلى ملاحظة مهمة، وهي أن الإنسان وهو يتعامل مع الشريعة و ينفذ أوامرها، سواء أتعلقت بالظاهر أم بالباطن، فإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا بدافع من رضى الناس، أو طلباً للشهرة.. ولهذا لا يتغير سلوكه. تجاه أمر ما، سواءأكان منفرداً أم مع الآخرين، في مجتمعه الذي يعرفه أم في غير مجتمعه، مع من يجهله..

إنه جانب آخر من تطبيق العموم...



ميادين لم تعرف الجمال:

مما سبق يتبين لنا أن الظاهرة الجمالية قائمة في كيان التصور الإسلامي، ولذا فهي عامة شاملة. ولا أدلّ على عمومها من أن القرآن الكريم أدخل الجمال إلى مجالات لا عهد للناس برؤيته في ميادينها، وذلك إما لعدم التوافق بينه وبينها — فيما يبدو لأول وهلة — أو لاختلاف في طبيعة كل منهما عن الآخر، فيما يخيل للمتأمل.

ويحسن بنا أن ننعم النظر في هذه المواطن:

(١) ميدان الصبر:

فقد جاء موصوفاً بالجمال ثلاث مرات في كتاب الله تعالى، منها ثنتان في سورة يوسف، وردتا في سياق النصين التاليين:

﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون. فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وجاؤوا أباهم عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[١].

﴿... يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون. قال بل سولت

(١) الآيات [١١-١٨].

لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾[1].

في النص الأول نجد الأب العطوف يفقد ابنه، الحبيب إلى قلبه، العزيز على نفسه، يفقده في حالة متعمدة، للغدر والخيانة دور كبير فيها، وهو غير قادر على أي تصرفٍ أو قيامٍ بعمل. فالأمر مدبر محبوك الأطراف.. فلجأ إلى الصبر.

والصبر عمل نفسي محض[2]، لا يشارك فيه أحد أحداً، إنه تماسك يقوم داخل النفس حتى لا تنهار أمام المصيبة أو الكارثة، إنه انتقال من حال الجزع والضعف والخور إلى تماسك وتجلد، ومن حزن يفقد الإنسان صوابه إلى حزن مع الرضى بقضاء الله تعالى.

وهكذا كان الصبر في هذه الحال هو وسيلة التجميل، إذ به يكون الموقف الأحسن والأجدى.

وفي النص الثاني، نشاهد يعقوب عليه السلام، وقد فقد ولده الثاني، إنه في حال لا تقل كآبة عن الحال الأولى. إنه يشعر وكأن المرحلة الثانية من القصة متممة للأولى.. ولكن الثانية أعادت ذكريات الأولى. فاشتد الأمر وعادت الجروح تنزف من جديد.. ثم لا يجد ملاذاً غير الصبر، فهو الموقف «الجميل» من بين جميع المواقف المحتملة في هذا الموضع، إذ الهلع والذعر لن يردا غائباً أو يسترجعا مفقوداً، ولكنهما يضعفان القدرة على التحمل والثبات في مواجهة الصعاب.

و يستكمل الصبر جماله ــ في الموقفين ــ بعدم اليأس من رحمة الله تعالى وهو ما عبر عنه يعقوب بقوله: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾.

إن الجمال يدخل ميداناً جديداً. ولكنه في وضع يتناسب فيه مع الموقف، والانسجام والتوافق من سمات الجمال. «فالجمال البائس» جميل في مواطن الأسى والحزن، و«الجمال الضاحك» جميل في مواطن الفرح والسرور. ولو وضع الواحد منهما مكان الآخر لما كان جمالاً بل سماجة وقبحاً.

---

(١) الآيات [٨١-٨٣].

(٢) هذا لا ينفي أن يكون له أثر مادي.

وللصبر مجالات كثيرة متعددة، ولذا يضع القرآن الكريم أمامنا موقفاً آخر[1] من مواقف الصبر الجميل، التي يكون فيها أكثر فاعليةً وأبعد أثراً.

إنه الصبر في مجال الدعوة إلى الله، حيث الحاجة إلى الكثير الكثير من التحمل والجلد والثبات والاستمرار، الحاجة إلى الحلم وسعة الصدر كما هي الحاجة إلى تحمل الإيذاء مادة ومعنى. وفي هذا الصدد ورد قوله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾[2].

إن الصبر في الحالة الأولى ــ في قصة يعقوب ــ عمل سلبي يرأب الصدع الذي حصل. ولكنه هنا دفعة من القوة النفسية تجعل للإنسان قدرة أكبر على مواصلة السير ومتابعة الطريق إنه عمل نفسي أيضاً ولكنه إيجابي[3] وكونه جميلاً يساعد على أن تكون النفس في وضع صحيح.

ونحن إذا نظرنا إلى الحياة، نظرة عملية، وجدنا أن المشاق تشغل مساحة غير صغيرة منها، وللتغلب على هذه المشاق وتحملها نحتاج إلى الصبر، وإنه وفقاً لعموم الظاهرة الجمالية، فإن تَرْكَ هذا الميدان يعني ترك مساحة كبيرة دون تغطية، والإسلام يحمل الخير والجمال لهذا الإنسان في كل حالاته، ولذا لم يترك هذا الجانب دون أن يزينه بجماله.. فكان الصبر الجميل.

إنه تجلّد وأمل، إنه اطمئنان نفسي، إنه ــ كما سبق القول ــ الموقف الأحسن والأجمل، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة قلنا: إن عملية تجميل الصبر هذه ليست زخرفة قول ولكنها حقيقة نستطيع الإشارة إلى عناصرها الأولية:

---

(١) وهو ثالث المواطن التي وصف فيها الصبر بالجمال في القرآن الكريم.

(٢) سورة المعارج. الآية ٥.

(٣) قال الإمام الغزالي في أنواع الصبر:

«اعلم أن الصبر ضربان:

أحدهما: ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة.. وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجرحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام، هو الضرب الآخر. وهو الصبر النفسي..» أ.هـ.

إحياء علوم الدين ٤/٦٦-٦٧ ط دار المعرفة بيروت.

- جعل الله للصبر الجزاء الجزيل والدرجات العلا وقد تأكد هذا بالكثير من آيات الذكر الحكيم و بالكثير من أحاديث الرسول ﷺ وعلى سبيل المثال نكتفي بذكر قوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].
- إن الله تعالى جعل معيَّته للصابرين في آيات عدة منها قوله تعالى ﴿إن الله مع الصابرين﴾[2] و﴿والله مع الصابرين﴾[3].
- الإيمان بالقدر: حيث يطمئن المسلم إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾[4].

إن هذه العوامل تجعل الصبر متقبلاً، فالنفس مطمئنة مرتاحة إلى قدر الله لا ينتابها القلق، ولا يشل حركتها الخوف. ثم هناك الأمل الكبير بثواب الله، كما أن الراحة عظيمة بشعور المؤمن أن الله معه في صبره يرعاه و يسدد خطاه. وكلها عوامل إن لم تقض على مرارة الصبر فإنها تخففها إلى حد كبير حتى يصبح مقبولاً. وليست مهمة الجمال في هذا الميدان إلا هذه.

وبهذا يظل المسلم في رحاب الخير كما ورد في الحديث الشريف (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[5].

(٢) ميدان الهجر:

وثمة ميدان آخر يدخله الجمال، هو الهجران والقطيعة بين الناس، حيث يشيح الإنسان بوجهه العبوس عمن هجرهم، لا يريد لقاءهم، ولا رؤيتهم حتى ولو كان ذلك عرضاً على قارعة الطريق.

---

(١) سورة الزمر. الآية ١٠.
(٢) سورة البقرة. الآية ١٥٣.
(٣) سورة الأنفال. الآية ٦٦.
(٤) سورة الحديد. الآية ٢٢.
(٥) رواه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد باب ١٣. وهو في مسند أحمد عن أنس ٥/٢٤ بلفظ مختصر.

و يتناول القرآن الكريم هذا الأمر وفي الإطار العام والمهم، إطار الدعوة إلى الله فيكون الخطاب إلى الرسول ﷺ بهذا الأسلوب الذي لا عهد للناس به: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله، الهجر الجميل: هو الذي لا عتاب معه، وقال صاحب «صفوة التفاسير» هو الذي لا عتاب معه ولا يشوب أذى ولا شتم.

وقال في الظلال: (واهجرهم هجراً جميلاً) لا عتاب معه ولا غضب ولا هُجر فيه ولا مشادَّة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة وبخاصة في أوائلها.. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر. ومجرد بلاغ هادىء ومجرد بيان منير. أ.هـ.

والذي يبدو ــ والله أعلم ــ أن هذا الهجر ليس المراد منه القطيعة، وإنما الترك المؤقت الذي لا يكون سبباً في زيادة الجفاء بل يكون مساعداً على تصفية النفوس ومراجعة حسابها لعلها تكون أقدر على تقبل الدعوة.

وبهذا تزول عن الهجر جفوته وقسوته وشدته، و يصبح هجراناً هادفاً ليست غايته تأكيد القطيعة، وإنما التريث حتى تتوفر إمكانية المتابعة والمواصلة.

وهكذا يكسى الهجران ثوب الجمال، الثوب الذي لم يتح له الحصول عليه إلا في ظل التصور الإسلامي.

(٣) مواطن أخرى:

ومن القضايا التي وصفت بالجمال في القرآن الكريم «التسريح» وذلك في سورة الأحزاب، بقوله تعالى:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾[2].

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾[3].

---

(١) سورة المزمل. الآية ١٠.

(٢) الآية ٢٨.

(٣) الآية ٤٩.

إن الموضوع هنا يتعلق بإنهاء علاقة تعتبر من العلاقات المهمة التي تنشأ بين الناس، إنها العلاقة بين الرجل وزوجه. حيث الأصل فيها أن تقوم على الود والحب والرحمة. وإذا لم يتم هذا لسبب أو لآخر.. فلا أقل من أن يكون التسريح ـ وهو نهاية هذه العلاقة ـ جميلاً.

والموطن الأخير الذي ننهي به حديثنا هو «الصفح» فقد جاء ذكره في قوله تعالى:

﴿إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾[1].

والصفح عفو وتنازل عن الحق، وإغضاء عن إساءات الآخرين... وإذا قام الإنسان بالصفح، بمعنى أنه تنازل عن حقه وعفا.. فليكن ذلك بالأسلوب الجميل، فلا حنق ولا حقد، وإنما حلم وسعة صدر. وبهذا يؤدى المعنى الجميل وهو الصفح، بإطار جميل فيكون التناسق قائماً، وتتم العملية الجمالية شكلاً وموضوعاً.

* * *

تبين لنا من خلال ما سبق أن الإسلام خطا بالجمال خطوات بعيدة المدى. فأوصله إلى حيث لا عهد للناس به، بل إلى حيث لا يطرأ على أذهان الناس أن يصل إليه وما ذاك إلا وضعاً للظاهرة الجمالية في مكانها من التصور الإسلامي.

كما يلاحظ أن الآيات السابقة ـ وهي معظم الآيات التي ذكر فيها «الجمال» في القرآن[2] ـ قد ركزت اهتمامها على الجانب المعنوي في الإنسان. فكان الجمال وصفاً للصبر والهجر والتسريح والصفح. وكلها أمور معنوية، وإن كان لها آثارها المادية، والإسلام حين يهتم بهذا الجانب من الإنسان ـ وهو الجانب الذي يدرك ولا يرى ـ فإنما يلفت النظر إلى تقديم الجانب المعنوي في الإنسان على الجانب المادي، إذ به تتحقق إنسانية الإنسان.

---

(١) سورة الحجر. الآية ٨٥.

(٢) إذا أضفنا إليها الآيتين [٦ و ٧] من سورة النحل، فإنا نكون أمام جميع الآيات التي ذكر لفظ الجمال فيها في القرآن الكريم. وهما قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾.

إن هذه الآيات دعوة لتحقيق هذه الصفات في الذات الإنسانية، فيكون صبرها جميلاً وهجرها جميلاً... فيتكامل الجمال فيها.

* * *

وقد خطا المنهج الإسلامي الخطوات نفسها في الجانب السلوكي والعملي من حياة الإنسان. وأدخل الجمال والإحسان إلى ميادين قلّما فكر أن يصل به إليها أحد، ولنستمع إلى السنة في حديثها عن ذلك:

عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[1].

وإحسان الشيء جعله حسناً،

والإحسان مطلوب في كل شيء، كل شيء.. هكذا بهذا التعبير الذي يفيد العموم. فقد يكون الشيء قولاً وقد يكون عملاً وقد يكون حركة وقد يكون ابتسامة وقد يكون صنعة.. وقد يكون فكرة..

والإحسان أن تصل بهذا الشيء إلى الوضع الأحسن والأمثل والأجمل...

ولشد ما يعجب السامع، والحديث يطرق سمعه لأول مرة، أن تكون الأمثلة التي طرحها الحديث، كمثال على القاعدة الكلية، في صدد القتل والذبح.

والقتل إزهاق للروح والذبح إزهاق للنفس.. وكيف يكون الإحسان في مثل هذه الحالات..؟؟

إن الحسن في كل شيء بحسبه فالإحسان بالقتل أن لا يُسبق بتعذيب جسدي أو نفسي وأن يكون القتل بحق.. والإحسان في الذبح ألا يكون فيه تعذيب للحيوان بالذبح ذاته فتكون الشفرة حادة وبذلك يريح الذبيحة وهذا ما تشير إليه رواية مسلم للحديث «وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته».

---

(١) رواه مسلم ١٥٤٨/٣ كتاب الصيد والذبائح باب ١١.
ورواه أحمد ١٢٣/٤، ١٢٤، ١٢٥ واللفظ له.

وإذا كان الحديث يلفت النظر بهذه الأمثلة إلى جوانب ما كان الإنسان ليصل إليها وهو يطبق النص العام، فإنما يذكِّر بأن تطبيقه في كل المجالات الأخرى ممكن، ومن باب أولى. وبهذا تبلغ دائرة التطبيق كل شيء ولعل هذا هو ما عناه الحديث وقصده.

والحديث في لفظه وفحواه يتجاوز دائرة التعامل مع الإنسان إلى التعامل مع الحيوان، و يكون للعموم بهذا معنى أوسع، بل إن مفهوم «كل شيء» يتناول حتى النبات.. وغيره.

ونحن في هذا الميدان لسنا أمام نص واحد، فالنصوص كثيرة كثيرة، ونكتفي بالإشارة إلى واحد منها مما تبدو فيه الظاهرتان معاً.. ظاهرة العموم.. وظاهرة الجمال.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) [1].

«والإتقان: الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والاحكام»[2] وهذا هو الجمال.

صانعو الجمال ومشاهدوه

لم تعد صنعة الجمال ــ وفقاً لمقتضيات التصور الإسلامي ــ قاصرة على فئة قليلة، وهي الفئة المنتجة لما يسمى بالفن الجميل من شعر ورسم ونحت وموسيقى..

كما لم يعد تذوق الجمال والإحساس به وقفاً على تلك الطبقة المنتجة للفن الجميل، أو الطبقة الأخرى المترفة التي يتيح لها ثراؤها.. الفراغ.. والثمن الذي تقتني به لوحات الجمال!!

---

(١) الحديث في «شعب الإيمان» للبيهقي. وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ١٨٧٦ وقال عنه: حسن.

(٢) عن «صفوة التفاسير» في تفسير قوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ سورة النمل. الآية ٨٨.

ولكنه أضحى لدى الإنسان المسلم خلقاً استقر في وعيه، وتصوراً استقر في فكره، ولغةً يعبّر بها، وإتقاناً يوصف به عمله،.. إنه لون المنهج الذي يحياه، ورائحته التي يستنشق عبيرها، وحيويته التي يمتع بها نظره.

إنه لكل إنسان، إذ كل إنسان في ظل المنهج الإسلامي ينتج الجمال، وهو في الوقت نفسه واحد من مشاهديه.

إن على النجار أن يتقن عمله، وإن على الحداد أيضاً.. والحذاء والنسّاج وصانع الخزف والبناء... أن يتقن عمله. إن من واجب كل فرد أن ينتج الإتقان في مهنته وصنعته.. ذلك لأن الله كتب الإحسان على كل شيء..

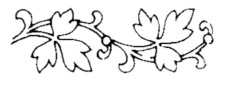
وتتحول الحياة كلها لتصبح معرضاً للجمال الذي يكمل بعضه بعضاً في تناسق رائع.

إنه لا يكفي أن تحس بالجمال وأن تكون لك الدراية في تذوقه، ولكن المهم أن تشارك في صنعه. وصنعه ليس إعداد معرض للوحات تعلق على الجدران فحسب، وإنما أن يتحرك الحسن فيصبح مادة في طبيعة الحياة.. فإذا «إماطة الأذى عن الطريق»[1] مساهمة فعالة في إقامة هذا المعرض الكبير.

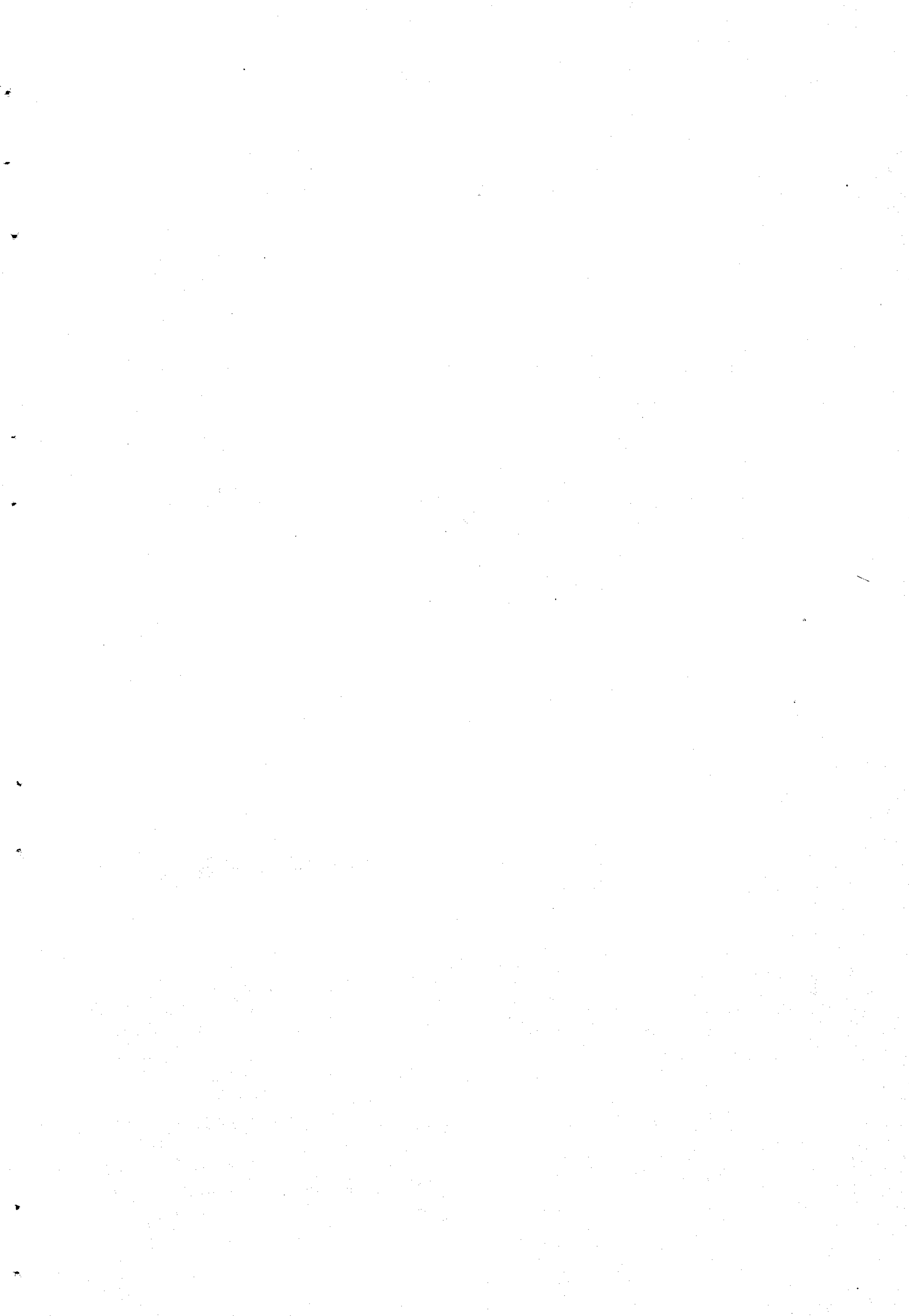
إنه الشمول في التصور..

والشمول الذي يستوعب كل جوانب النفس الإنسانية.

والعموم الذي يشمل جميع الأفراد.



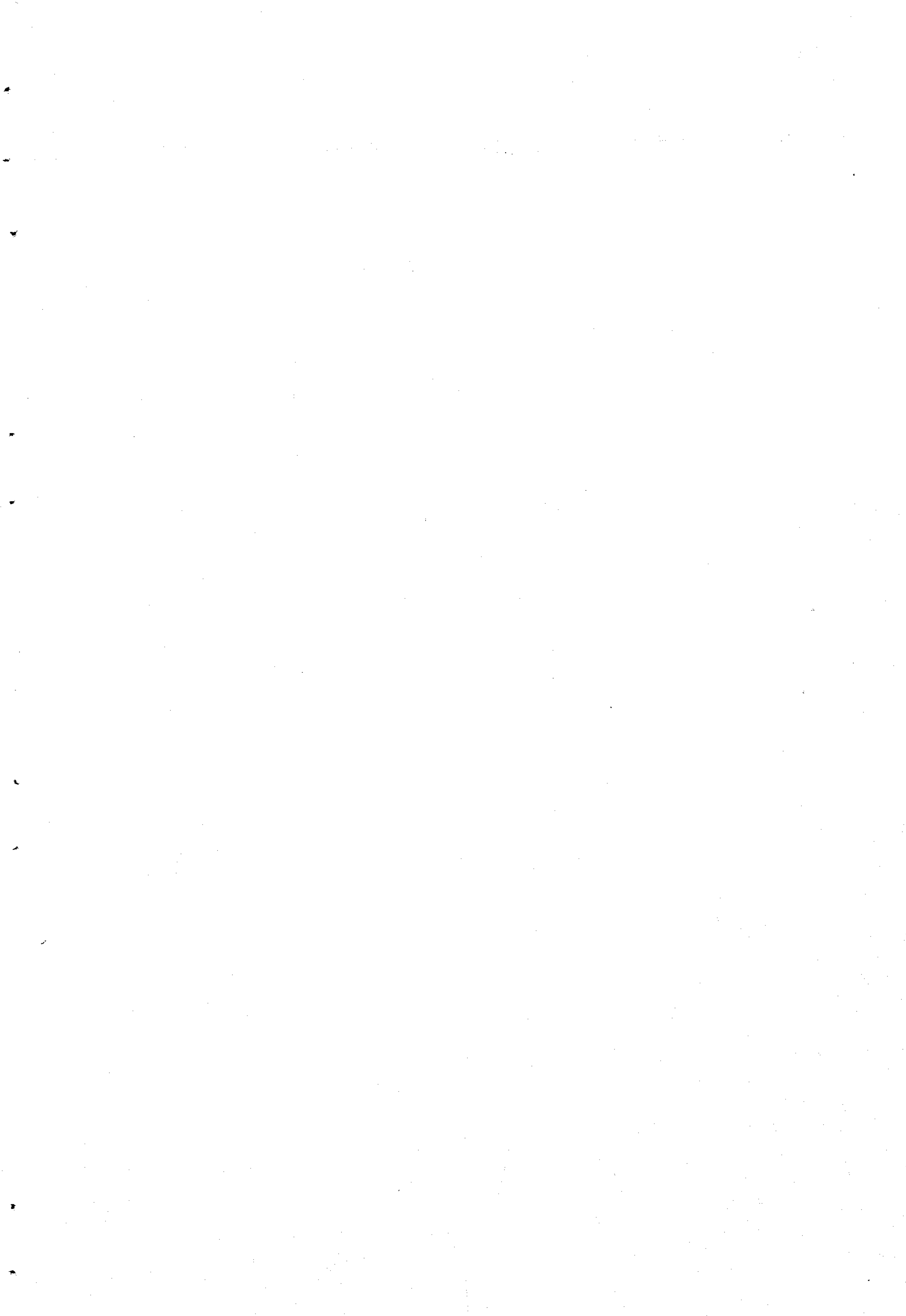
(١) في الحديث (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان) قال في رياض الصالحين متفق عليه. وهو عند مسلم في كتاب الإيمان باب ١٢. ومعنى الإماطة: الإزالة.



الفصل الخامس

الظاهر والباطن

- مع الشكل والمضمون.
- المنهج وخاصية الظاهر والباطن.
  1) ملازمة الظاهر الباطن.
  2) انفراد الباطن.
  3) انفراد الظاهر.
- الظاهر والباطن وحالات الضرورة.
- خلاصة.
- الظاهر والباطن والجمال.



مع «الشكل والمضمون»

سبق الحديث عن الشكل والمضمون في الباب الأول. وهو الموضوع الذي كان له أثره في الفن سواء أكان تشكيلياً (رسماً، نحتاً، عمارةً) أم تعبيرياً (شعراً، موسيقا). وإن كان هذا الأثر في فن الرسم أوضح منه في غيره.

وواضح أن مصطلح «الشكل والمضمون» يتناول الفن ولا يكاد يتجاوزه، فنحن أمام اللوحة، أو أمام التمثال، أو أمام القصيدة... وإذا تجاوزه فإنما ذلك من باب المجاز، لا باعتباره مصطلحاً يتناول كل الأبعاد الجمالية.

إنه قاصر عن احتواء «الجمال» حيث كان، ولهذا نرى أن «الإنسان» وهو ميدان هام من ميادين الجمال، لا ينضوي تحت هذا المصطلح، أو أن المصطلح قاصر عن احتوائه.

وما قيل في الشكل والمضمون يمكن أن يقال في «الصورة والمادة».

وبحث «الشكل والمضمون» ليس جديداً على المنهج الإسلامي، بل هو معروف ومشهور ولكنه استعمل تحت عناوين أخرى. كل منها في ميدان من الميادين.

فقد استعمل القرآن الكريم «السر والعلن»[1] كما استعمل «الجهر والخفاء»[2] واستعملت السنة المطهرة «الصورة والقلب»[3] كما استعملت

---

(١) ورد ذلك في آيات كثيرة منها (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) سورة النحل. الآية ٩.

(٢) ورد ذلك في آيات منها (إنه يعلم الجهر وما يخفى) سورة الأعلى. الآية ٧، كما ورد استعمال الجهر مع السر في قوله تعالى (يعلم سركم وجهركم) سورة الأنعام. الآية ٣.

(٣) وذلك في قوله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) الحديث من رواية أبي هريرة في صحيح الإمام مسلم. كتاب البر: باب تحريم ظلم المسلم. وقد جعل الحديث «القلب» في مقابل «الصورة والجسم». وقد تكرر ذكر الصورة في القرآن ولكن استعمالها كان قاصراً على الإنسان.

«العمل والنية»[1] ولكن أوسع المصطلحات في هذا الميدان، هو ما استعمله القرآن الكريم في لفظي «الظاهر والباطن»[2]. وهو ما يحسن اختياره عنواناً لهذا البحث.

و«الظاهر والباطن» تعبير أدق وأوسع في الدلالة على المطلوب من مصطلح «الشكل والمضمون».

«فالظاهر في اللغة: خلاف الباطن، والظهر من كل شيء: خلاف البطن. ومنه: ظهارة الثوب وبطانته، فالظهارة ما علا وظهر ولم يلِ الجسد، والبطانة: ما ولي منه الجسد وكان داخلاً»[3].

فالظاهر: هو كل ما يظهر وتدركه الحواس من هيكل خارجي (الطول والعرض والارتفاع) وصورة محسوسة، وكذلك لون الشيء وخشونته ونعومته، ولمعانه وبريقه وصوته المسموع.. ورائحته.. فكل هذا مما يظهر.

وعلى هذا فكلمة «الظاهر» أعم وأشمل في مدلولها من كلمة «الشكل» التي تعني: «صورة الشيء المحسوسة أو المتوهمة»[4].

و«الباطن» خلاف الظاهر. أي كل ما خفي عليك أو غاب عنك خلف الظاهر، فكلمة الباطن، هي الوجه المقابل لكلمة الظاهر، وقد يكون هذا الباطن هو «المعنى» وقد يكون هو «النية» أو «الباعث» وقد يكون هو «الفكرة».. أي ما لا تدركه الحواس وإنما يدرك بالعقل.

وعلى هذا فكلمة «الباطن» أيضاً أعم وأشمل من كلمة «المضمون» التي هي في اللغة من «ضمن الشيء: بمعنى تضمنه، ومنه قولهم: مضمون الكتاب كذا وكذا»[5]. فمضمون الكتاب هو ما حواه الكتاب، فلا يشمل النية والباعث...

---

(١) ورد ذلك في الحديث المتفق عليه من قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات). أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكر العمل إما موصوفاً بالصلاح أو بغيره. فمن الأول ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ فاطر. الآية ١٠. ومن الثاني ﴿إنه عمل غير صالح﴾ هود. الآية ٤٦.

(٢) ورد ذلك في آيات منها: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ سورة لقمان. الآية ٢٠. ومنها ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ سورة الأنعام. الآية ١٢٠.

(٣) (٤) (٥) معجم لسان العرب.

نخلص من ذلك إلى أن «الظاهر والباطن» أعم في مدلولها وأشمل من «الشكل والمضمون» وأنها المصطلح الذي يلبي حاجة القضية الجمالية، بل إنها مصطلح عام شامل يتناول المنهج بكامله، للجمال فيه نصيب يتساوى مع حجمه الذي يشغله من الحياة.

المنهج وخاصية «الظاهر والباطن»

قبل الحديث عن «الظاهر والباطن» وأثرهما في الظاهرة الجمالية لا بدّ من بيانٍ مقتضبٍ عنهما باعتبارهما خاصية أصيلة من خصائص المنهج الإسلامي. نلحظها في المنهج ذاته، كما نلاحظها في معالجته للقضايا التي يتناولها، وقد تناول كل القضايا... في حياة هذا الإنسان.

والإنسان له ظاهر، وهو ما يُرى به، ويُميز بواسطته من صورة ولون، وله باطن، وهو ما استقر في داخله من عقيدة وأفكار وقيم.

وعمله ــ الذي يصدر عنه كذلك ــ له ظاهر: وهو ما يراه الناس، وله باطن، وهو المعنى أو الباعث أو النية.

والظاهر والباطن سوف يكوّنان وحدة متكاملة نتيجة لتطبيق المنهج، فتكون حقيقة العمل التي تبدو من ظاهره، هي حقيقته الكامنة فيه، ذلك أن المنهج الذي يضبط الظاهر، هو نفسه الذي يضبط الباطن.

وإذا عرفنا أن هذا المنهج يتناول كل قضايا الإنسان في كلياتها وجزئياتها، تبين لنا أن هذه الخاصية أصيلة في المنهج الرباني، وليست مجرد بحث نتناوله في صدد الحديث عن الظاهرة الجمالية.

فالإنسان الذي خلقه الله وصوره، لا يكون إنساناً حقاً، إلا حينما يستقر في نفسه المنهج الذي وضعه الله له، وحينئذٍ تلتقي الصورة الظاهرة مع معناها الحقيقي المناسب، أو يلتقي الظاهر الذي هو من صنع الله، مع الباطن لذي تمثّل منهج الله فإذا الظاهر والباطن وحدة تامة الانسجام.. وعندها تكمل إنسانية الإنسان، صورة ومعنى، ظاهراً وباطناً.

والعمل الذي يقوم به الإنسان أو ينتجه، حتى يكون صحيحاً كاملاً، لا بدّ أن يكون متلائماً مع المنهج في ظاهره وفي باطنه، وإن انحراف أيٍّ منهما عن هذا التناسق، فذلك يعني فساد العمل وفشله.

فالظاهر والباطن وجهان لحقيقة واحدة: كل يعبر عنها من خلال طبيعته، وهما بعد ذلك شيء واحد، فتلازمهما هو الأصل، وانفراد أحدهما دلالة على حالة مَرَضيَّة.

وحتى نكون أمام تصور كامل للموضوع يحسن بنا أن نضع بين الأيدي بعض الأمثلة، وفي مجالات مختلفة:

(١) ملازمة الظاهر للباطن:

هذا ما أكد عليه المنهج الإسلامي، فلا بد لصحة العمل أو الموضوع من أن يكون الظاهر تعبيراً دقيقاً عن الباطن، وكلما دقَّ التعبير، اشتد التلازم وكان العمل أقرب إلى الكمال.

■ فقضية الإيمان التي دعا إليها الإسلام ــ واعتبرها القضية الأولى ــ مقرها القلب (وهو الباطن). ولكن الإسلام لم يكتف باستقرارها في القلب، بل طلب من اللسان أن يعلنها صريحة بشهادتين، هما ظاهر هذه العقيدة، ولا يكون الإيمان إلا بهما (الظاهر والباطن) فإذا أصاب الخلل أحدهما فلا إيمان حينئذٍ.

■ والانصياع لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، لا بد أن يكون كاملاً أي ظاهراً وباطناً، والآية الكريمة صريحة في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[1].

(حتى يحكموك) الاحتكام إلى الرسول ﷺ في كل الأمور، وهذا هو الوجه الظاهر. وأما الوجه الآخر، فقد نصت عليه الآية بقولها: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم

---

(١) سورة النساء. الآية ٦٥. قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسيرها: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به و ينقادون في الظاهر والباطن...

حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً﴾ وهو الوصف الدقيق لما ينبغي أن يكون عليه الباطن. وبغير هذا الخضوع (ظاهراً وباطناً) لا يكون الإيمان.

■ وفي ميدان التعامل بين الناس، بل وفي إطار الأسرة وبين الزوجين سجل القرآن الكريم ضرورة هذا التلازم بين الظاهر والباطن بقوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾(١).

وكلمة (نفساً) هنا ذات إيحاء كبير، فقد تعطي المرأة زوجها بعض مالها، أو تتنازل له عن شيء من مهرها، مظهرة الرضى حفاظاً على علاقة الزوجية... إن الرضى الظاهر وحده لا يكفي، بل لا بد من أن يكون لدى الزوج من القرائن ما يشعره أن هذا الرضى الظاهر يرافقه و يصاحبه رضى نفسي باطن فيكون الأول تعبيراً عن الثاني حقاً، وعندها يكون حلالاً طيباً.

وهكذا نلاحظ أن التلازم بين الظاهر والباطن هو الأمر الذي لا يُستغنى عنه يستوي في ذلك الكليات والجزئيات. فهو احدى خصائص المنهج الرباني الكريم.

(٢) انفراد الباطن:

حين ينفرد الباطن ولا يستطاع تأمين ظاهر له فذلك يعني فقدان أحد ركنين لا يقوم الأمر إلا بهما معاً، وذلك يؤدي إلى الفساد.

وفي قصة أبي طالب خير مثال على ذلك: إن الدلائل كلها كانت تشير إلى وجود الإيمان في نفس أبي طالب. يتضح ذلك من عطفه على الرسول ﷺ ودفاعه عنه، ووقوفه معه ودونه في المواقف الحرجة.. وشعره في وصفه .. كل ذلك كان إشارة واضحة إلى وجود ذلك الإيمان.

وقد حرص الرسول ﷺ كل الحرص على أن يتلفظ أبو طالب بشهادة الإيمان، وخاصة قبل وفاته، ولعل زيادة الحرص منه ﷺ إنما كانت بسبب علمه بما كان في نفس أبي طالب، أوما كان يبدو في الظاهر مما يعبر عن ذلك، حتى بدا له ﷺ أن المسافة بين أبي طالب و بين الإسلام قصيرة جداً، وهي ليست بأكثر من التلفظ بالشهادتين.

(١) سورة النساء. الآية ٤.

ولكن أبا طالب رفض أن يعلن تلك الشهادة حتى لا تقول العرب إن أبا طالب غير دينه.. ومات أبو طالب على الكفر.. ونزل في ذلك قوله تعالى ــ خطاباً للرسول ﷺ ــ ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾(1).

إن قضية العقيدة هنا لم تستوفِ ركنيها، فقد غاب (الظاهر) وكانت النتيجة الفساد المؤدي إلى الهلاك.

وشبيه بهذه الحال أمر فرعون وقومه إذ جاءهم موسى عليه السلام بالبينات فأنكروها على الرغم من أن صدقها قائم في نفوسهم، ولكنهم بظلمهم وعنادهم رفضوا الخضوع لها فكانت عاقبتهم الخسار. وفي هذا ورد قوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلّواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾(2).

(٣) انفراد الظاهر:

وهذه الحالة أكثر وجوداً من سابقتها. إذ قد يوجد الظاهر و يكون الباطن المقابل له مخالفاً له، وقد يوجد الظاهر ولا يوجد ما يقابله من الباطن.. وكلا الحالين مآله وعاقبته الفساد:

آ ــ الحالة الأولى:

وهي إختلاف الظاهر عن الباطن، بحيث لا توجد بينهما علاقة، وهذه الحالة ترجع إلى أصل كبير أطلق عليه الإسلام اسم «النفاق» إذا كان في العقيدة، و«الرياء» إذا كان في المعاملة.

■ فعندما يظهر الإنسان الإيمان و يبطن الكفر، فهو النفاق، وقد تحدث عنه القرآن الكريم في الكثير من آياته ــ مما نزل بالمدينة ــ مبيّنا صفات المنافقين وسلوكهم حتى يحذره المؤمنون.

---

(١) سورة القصص. الآية ٥٦.

(٢) سورة النمل. الآية ١٤.

قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ــ والله يعلم إنك لرسوله ــ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[1].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ . فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك... ثم قال تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم. أ.هـ.

وقد وردت آيات كثيرة في وصفهم منها ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[2].

■ إن فعل الخير ينبغي أن يكون الدافع له، هو ابتغاء وجه الله تعالى، وبهذا تكون الصورة الظاهرة لهذا الفعل موافقة للصورة الباطنة، فإذا كان الدافع عليه هو طلب مدح الناس، والشهرة بالصفات الجميلة بين الناس، فقد اختلفت الصورة الظاهرة عن الباطنة وكان ذلك سبباً في فساد العمل. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس..﴾[3] فأخبر تعالى عن بطلان ثواب المرائي، وأن المن كذلك يؤدي إلى مثل ذلك.

إن كلاً من النفاق والرياء يلتقيان في المنطلق والغاية، إنه تظاهر بالخير... والدافع ليس فيه من الخير شيء، وإنما هو الكسب الذي يرجوه كل منهما من وراء فعله، فالأول يكسب أنه يعامل معاملة المسلمين، وفي هذا كسب له[4]. والثاني

---

(١) سورة المنافقين. الآية ١.

(٢) سورة البقرة الآيات ٨-١٠.

(٣) سورة البقرة. الآية ٢٦٤.

(٤) إنما تكون سوق النفاق رائجة حينما يكون للإسلام قوة فيرتجى نفعه...

يكسب المدح والشهرة وهو أمر عائد عليه. إنه التنافر بين الصورة الظاهرة وبين الحقيقة المعنوية[١].

ب ــ الحالة الثانية:

وهي أن توجد الصورة الظاهرة للعمل وتنعدم الصورة الباطنة، وفي هذه الحالة يفقد العمل قيمته، وقد يفقد وجوده كلية.

■ قد يمتنع إنسان عن الطعام والشراب طوال يومه، إذ يخرج من الصباح إلى عمله ثم لا يتاح له أن يأكل أو يشرب حتى يحين المساء. وهذه هي صورة الصوم. ولكننا لا نسمي الرجل صائماً، لفقدان الصورة الباطنة للصيام وهي النية.

وهكذا انعدمت قيمة الصوم هنا لانعدام النية.

■ الصلاة لها صورة ظاهرة يمكن استكمالها بإتمام الشروط التي تسبقها وبأداء الأركان التي بها قوامها. ولها صورة باطنة وهي «الخشوع» فيها. فإذا أديت الصلاة بغير خشوع فذلك يعني وجود خلل في الصورة الباطنة مما يعرض الصلاة للفساد.

إن الصلاة التي فقدت خشوعها تكاد تفقد وجودها، بل إنها في رأي بعض الفقها قد فقدته فعلاً، لذا أوجبوا على صاحبها إعادتها[٢].

■ ومن هذا القبيل ــ في انعدام الصورة الباطنة ــ أولئك الذين ذكرتهم الآية الكريمة بقولها: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا

---

(١) ومن هذا القسم في إطار المعاملات: الغش، حيث تكون واجهة البضاعة شيء وباطنها شيء آخر. «وقد مر ﷺ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس. من غشنا فليس منا». رواه مسلم.

(٢) قال ابن القيم، رحمه الله، في هذا الصدد:

«فإن قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع، هل يعتد بها أم لا؟

قيل: أما لاعتداد بها في الثواب، فلا يعتد له فيها، إلا بما عَقَل فيه منها، وخشع فيه لربه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها.

وفي المسند مرفوعاً (إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها، حتى

تحسبنهم بمفازة من العذاب.. ﴾[1]. إنهم قوم من أهل الكتاب أو من المنافقين، أحبوا أن يحمدوا و يثنى عليهم و يذكروا بخير... وهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك. إنهم يريدون صورة ظاهرة لا حقيقة لها أصلاً.. فاستحقوا العقوبة. وإذا كان المنهج الإسلامي يرفض صورة ظاهرة أصاب باطنها بعض الزيف.. فكيف يقبل ظاهراً لا باطن له أصلاً؟!

* * *

«الظاهر والباطن» وحالات الضرورة

كانت تلك هي النظرة العامة عن وضع كل من الظاهر والباطن وأثرهما في وجود العمل أو الموضوع، تبين لنا من خلالها: أنه لكمال أي عمل لا بد من توافر الركنين معاً، وإن أي خلل يصيب أحدهما يؤدي إلى الفساد.

ولكن المنهج الإسلامي ــ وهو المنهج الرباني ــ يضع لكل حال ما يناسبها، ولئن كانت القاعدة العامة ما أشرنا إليه، فإن الضرورة لها دائماً في هذا المنهج تشريعها الخاص، أو استثناءاتها من القاعدة العامة.

وفي صدد حديثنا عن الظاهر والباطن فإن الإسلام في حالة الضرورة ــ والضرورة تقدر بقدرها ــ سمح بالتنازل عن بعض الظاهر، أو عن الظاهر كله بشرط سلامة الباطن، بينما لم يقبل التنازل عن بعض الباطن، بل ولم يسمح أن يصاب ولو بخدش يسير.

بلغ عشرها).

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم..

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء، فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً... وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبوعبدالله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه ــ لا في وسيطه و بسيطه ــ واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها.. كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل روح الصلاة ومقصودها ولبّها، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها و بقيت صورتها وظاهرها؟...».

(مدارج السالكين ١/٥٢٥-٥٢٦ تحقيق محمد حامد الفقي).

(١) سورة آل عمران [١٨٨].

ويحسن بنا ــ كما فعلنا من قبل ــ أن نقف على بعض الأمثلة:

■ قال تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾[1].

قال ابن كثير في تفسير الآية وذكر سبب نزولها:

«أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر وأطمأن به أنه قد غضب عليه... وأما قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرها ثم جاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية... وفي رواية ابن جرير: قال النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان قال النبي ﷺ: إن عادوا فعد» أ. هـ[2].

وهكذا تبين الآية إمكانية التنازل عن الظاهر إذا كان الباطن سليماً معافى وذلك حال الضرورة.

■ الصلاة ــ كما مر ــ لها ظاهر، ولها باطن وهو النية والخشوع..

وفي حال المرض يسمح التشريع بعدم إتمام هذا الظاهر ــ بمقدار الضرورة ــ فالذي لا يستطيع القيام، يصلي قاعداً والذي لا يستطيع القعود يصلي مضطجعاً.. حتى تصبح الصلاة نيةً بغير حركة...

وكذلك الصوم: فمن أكل أو شرب ناسياً، أتم صومه، لأن النية قائمة وكذلك إذا كان مكرهاً أو مريضاً[3]... فالنية قائمة ولكن منع العذر من وجود الظاهر الذي هو الإمساك عن الطعام والشراب..

---

(١) سورة النحل. الآية ١٠٦.

(٢) قال ابن كثير تعقيباً على ذلك: اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل.

(٣) ولكنه في حالة المرض والإكراه يعيد الصوم، ولا إثم عليه.

■ وقد يكون التسامح بظاهر العمل بكامله. عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر» رواه مسلم. ورواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر»[1].

وواضح من نص الحديث عدم وجود صورة العمل ولكن النية والعواطف والتحرق على أداء العمل ــ لو كانت القدرة موجودة ــ كل ذلك موجود في النفس آخذ أبعاده فيها.. لذا تم الأجر واكتمل.

هذا ما يتعلق بموقف المنهج من الظاهر، وأما موقفه مع الباطن، فهو كما قلنا، لا تسامح فيه أبداً ونكتفي بذكر مثال واحد فيه الدلالة على غيره.

■ إنه يوم حنين، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت. ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾[2].

إن الصورة المادية هنا متوفرة للمسلمين كما لم تتوفر في يوم مضى، فهم في كثرة من العدد.. وفي كفاية من العتاد.. إن الصورة الظاهرة مستكملة أبعادها. ولكن خدشاً يسيراً كان قد أصاب الباطن.. فكانت الهزيمة.

إن الباطن أصابه فتور قليل حين «غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدة والعتاد»[3]. فكانت النتيجة فساد العمل.

---

(١) عن رياض الصالحين للإمام النووي باب الإخلاص.
(٢) سورة التوبة. الآيتان ٢٥-٢٦.
(٣) من الظلال في تفسير الآيتين.

خلاصة:

بعد هذه الجولة المقتضبة في رحاب «الظاهر والباطن» نخلص إلى القواعد التالية:

(١) لا بد من تلازم الظاهر والباطن حتى يستكمل أي عمل أو أي موضوع وجوده.

(٢) لا يقبل الظاهر منفرداً بحال من الأحوال[١].

(٣) لا يقبل الباطن منفرداً إلا في حال الضرورة وبقدرها.

(٤) الباطن مقدم على الظاهر. بدلالة عدم التنازل عنه حتى في حال الضرورة فليس هو كالظاهر الذي يمكن فيه ذلك.

* * *

«الظاهر والباطن» والجمال

إن الجمال ليس شيئاً قائماً بذاته، وإنما هو أمر قوامه بغيره، فنحن نستطيع أن نراه أو نحس به في الإنسان، وفي سلوكه.. وفي عمله.. وفي الأشياء.. وبما أنه كذلك فإن تلك القواعد العامة التي ذكرناها قبل قليل تشمله على اعتبارها قواعد عامة في المنهج.

فالجمال لا يكون له وجود حقيقي إلا حينما يكون سمة للظاهر والباطن في آن واحد، و يكون التناسق تاماً بين هذين الركنين.

أما إذا كان سمة للظاهر فحسب، فهو جمال تافه، من خلفه باطن فارغ، و يضع القرآن الكريم بين أيدينا صورة غاية في الدقة لهذه الحالة الكريهة، محذراً منها، وذلك حين وصف المنافقين فقال:

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مسندة..﴾[٢].

---

(١) المقصود عدم القبول عند الله تعالى. وفي حقيقة الأمر، وإلا فالإسلام قبل من المنافقين ظاهرهم ووكل السرائر إلى الله.. وقد نصت الآيات الكريمة على أنهم أكثر سوءاً من الكافرين.

(٢) سورة المنافقون. الآية ٤.

﴿إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ إن أشكالهم حسنة، وهندامهم جميل ورواءهم معجب..

﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ وإن يتكلموا تصغ لقولهم، فهم ذوو فصاحة وذلاقة لسان، يحسنون تنميق الحديث..

ولكن ذلك الظاهر من خلف خواء، خواء في معناهم، وكذلك في معنى كلامهم.. فاستحقوا ذلك التشبيه الدقيق..﴿كأنهم خشب مسنَّدة﴾إنها أخشاب جامدة لا حيوية بها بل لا حياة فيها، مسلوبة الإرادة فهي ليست مستندة، ولكنها مسنَّدة.

وفي مقام آخر ردَّ الله على قريش حينما تفاخرت بوضعها الاجتماعي، وذلك فيما نقله القرآن من شأنهم إذ قال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً..﴾(١).

إنهم يفاخرون بمكانتهم الاجتماعية، بأنديتهم الحسنة، بمنازلهم الرفيعة.. إنها مظاهر.. من الزينة والطلاء..

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾(٢). كثيرة تلك الأمم التي أهلكها الله ودمرها، كانت أكثر متاعاً وأحسن أثاثاً، وأجمل صورة وأبهى منظراً.. ومع ذلك لم يغنِ عنهم ذلك شيئاً.. إن فساد الباطن غلب حسن الظاهر، فكان الهلاك.

* * *

وفي إطار تطبيق القاعدة الرابعة ــ حيث يقدم الباطن على الظاهر ــ نشهد هذا التوجيه الكريم:

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو

---

(٢) سورة مريم. الآية ٧٣.

(٣) سورة مريم. الآية ٧٤.

أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم..﴾[1].

إنها مقارنة وتوجيه:

صورة ظاهرة فيها اللمعان والبريق.. إنها تعجب، ففيها الحرية والجمال والمركز الاجتماعي المرموق.. ولكن الباطن مظلم..

وصورة أخرى ليس فيها هذا اللمعان وذاك البريق.. إنها الرق.. بكل ما فيه ولكن الباطن مضيء منير.

إنهما صورتان.. و يقرر القرآن مؤكداً خيرية الثانية..

* * *

وهكذا نجد أنفسنا في المنهج الإسلامي أمام قواعد ثابتة غير خاضعة للتبديل والتغيير، وبهذا تظل الأذواق سليمة لا يصيبها المرض ولا تنتابها الحمى ولا تشتبه عليها الأمور، ولا تضيع في متاهات النظريات[2]... المتلاحقة، حيث ينقض المتأخر منها المتقدم.. حتى فقد الحس الجمالي وجوده، إذ أصابه الصرع نتيجة لهذا التخبط، فلم يعد قادراً على التميز بين ما هو جميل و بين ما هو قبيح، و بين ما هو شيء و بين ما ليس بشيء.. و بات الإنسان في هذا الضياع إمَّعة مع الناس يقول ما يقولون.. فأضحى واحداً في قطيع...



---

(١) سورة البقرة. الآية ٢٢١.

(٢) هذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل، إن شاء الله، في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

الفصل السادس

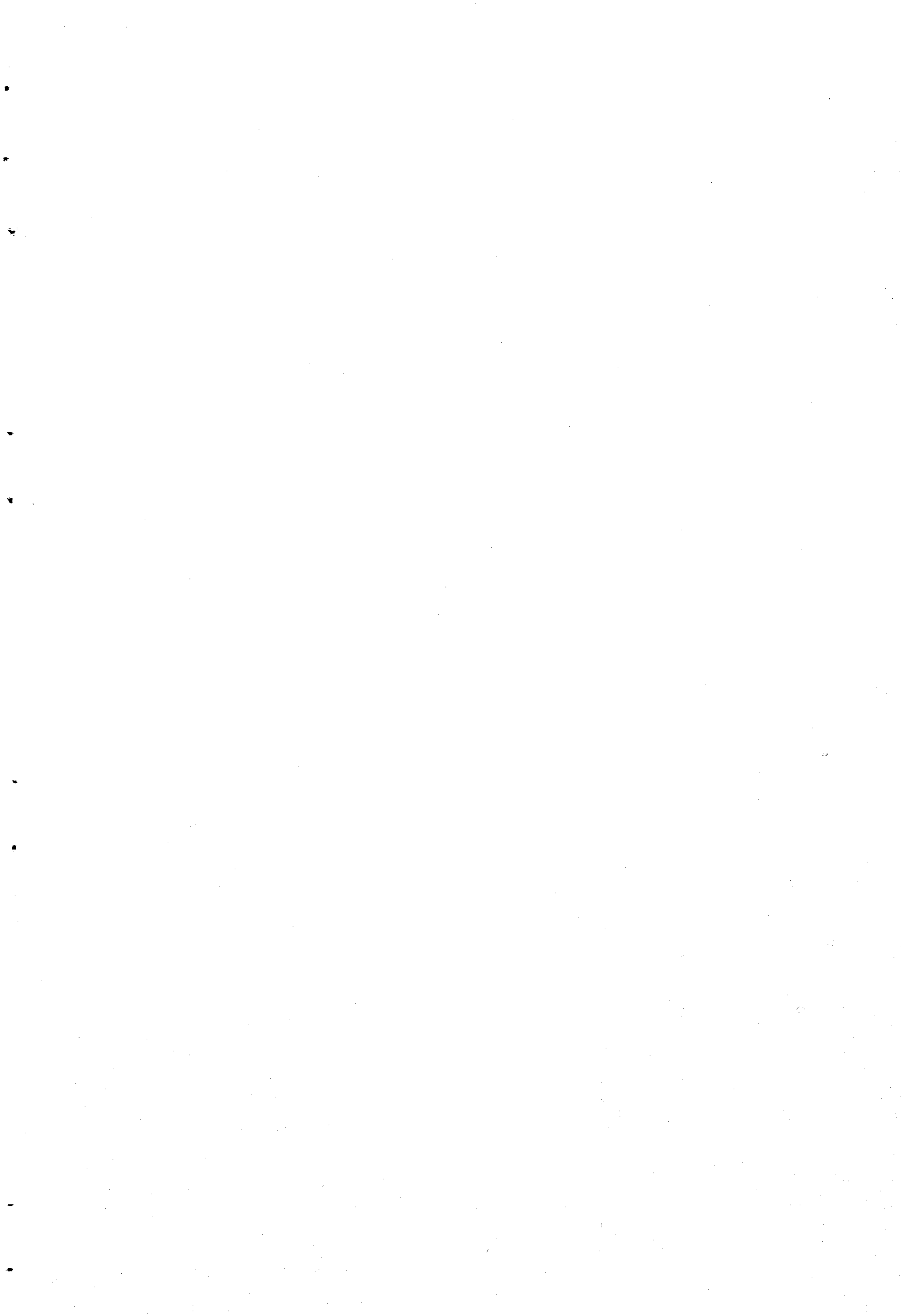
سمات الجمال

(١) السلامة من العيوب .

(٢) القصد .

(٣) التناسق .

(٤) التنظيم .



سمات الجمال

هل للجمال سمات يعرف بها؟

إن الجمال من اللطف والشفافية بحيث لا يدرك كنهه، ومحاولة التعرف عليه تكون تارة بتفحص آثاره، كما تكون تارة أخرى بالتعرف على أسبابه، ومع ذلك يظل مستعصياً على الخضوع لضوابط يمكن قياسه بها.

وإدراك الجمال يحصل بسرعة فائقة، الأمر الذي لا يتيح لنا انتظار إجراء المحاكمة العقلية للتثبت من وجود تلك السمات والخروج بنتيجه، فإدراك الجمال يتم قبل أن تكتمل المناقشة العقلية... فما فائدة هذه السمات والحديث عنها؟

ونحن ــ في بحثنا هذا ــ لا نريد أن نسلك مذهب الذين أرادوا تقنين الجمال وضبطه بمقاييس حتى يتسنى لهم إخضاعه لقواعد قابلة للقياس... فقد تبين لنا من البحوث السابقة عقم هذا المذهب، ذلك أن طبيعة الجمال تأبى هذا المسلك.

ولكنا نتساءل: ألا يخدع البصر؟ وهو الحاسة الرئيسية في إدراك الجمال، وإذا خدع البصر فإن إدراكنا للجمال يكون قائماً على الوهم!! أليس السراب من الأمور التي يخدع بها البصر دائماً؟.. نعم... ولكن الذي عرف ظاهرة السراب لا يمكن أن يخدع و يسيطر عليه الوهم، إنه بمجرد رؤية السراب يعرف أنه ليس أمام الماء، ولكنه أمام انعكاس لأشعة الشمس على السطح الواسع(١)..

وإذن بمعرفة الحالات التي يوجد بها السراب يمكننا التفريق بين الماء حينما

---

(١) في الأيام الشديدة الحرارة يسخن الهواء القريب من الأرض أكثر من الهواء الأعلى بحيث تتعرض أشعة الضوء التي تمر قرب الأرض للانحناء باتجاه علوي، و ينتج عن ذلك أن يظن الناظر على بعد، أن ضوء السماء هو بركة ماء على الأرض وتدعى هذه الظاهرة بالسراب وهي شائعة في الصحاري وفي الأيام الشديدة الحرارة حيث يخدع المسافرون العطاش بمنظر وهيمي للمياه. [عن كتاب: الطقس. من سلسلة مكتبة الثقافة العلمية الميسرة رقم ١٤].

يكون حقيقة وبينه حين يكون سراباً، فالمعرفة فيها من الفائدة الشيء الكثير... وبواسطة سمات الجمال نستطيع التمييز بين الجمال الحقيقي وبين سراب الجمال.

* * *

وإن هذه السمات التي أشرنا إليها ليست خاصة بالجمال. بل هي سمات وضعها المنهج كقواعد عامة يستفاد منها في كل المجالات، وللجمال فيها نصيب، إذ بها يعرف الصحيح من الفاسد، والخطأ من الصواب.. كما يمكن الاستفادة منها في ميدان الكمال.. والجمال.

إنها سمات يمكن الاسترشاد بها في التعرف على:

عظمة هذا الكون.

وجمال هذا المخلوق (الإنسان).

وعظمة المنهج الذي وضع لضبط هذا الإنسان.

وهي ـ بعد هذا كله ـ ينبغي أن تكون مقياس عمل الإنسان وسلوكه ما دام ملتزماً بمنهج الله تعالى.

إنها قواعد عامة تؤكد لنا خاصية الشمول التي سبق الحديث عنها.

وفي بحثنا هذا سنقف على بعض هذه السمات...

(١) السلامة من العيوب:

رأينا كيف أن الجمال يُدرَك للوهلة الأولى، ولكن هذا الجمال لا يكون حقيقياً إلا إذا خضع بعد ذلك لرؤية عقلية متفحصة. وعندها يكون الحكم صادقاً، بعيداً عن الوهم.

والسلامة من العيوب هي السمة الأولى التي يتفحص العقل وجودها في الشيء الجمالي، إذ هي نقطة الانطلاق إلى عالم الكمال والجمال.

والقرآن الكريم يلفت النظر إلى التأكد من وجود هذه السمة، وذلك بعد أن يسجل وجود الظاهرة الجمالية:

في الحديث عن جمال الكون قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾[1] فأشارت الآية الكريمة إلى جمال السماء وزينتها، ثم بينت عدم وجود التشقق فيها وهو نفي للعيوب، وقد جاء تأكيد هذا في مكان آخر حيث قال تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[2].

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسير الآية: ﴿ما ترى في خلق من تفاوت﴾. ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخافة ولا نقص ولا عيب ولا خلل لهذا قال تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور﴾أي انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً... ﴿من فطور﴾أي شقوق. أ.هـ. ولم تكتفِ الآية الكريمة بنفي العيوب بل طلبت تكرار وإعادة النظر حتى لا يظن الإنسان نفسه أنه أمام الوهم ولذا جاء التأكيد في الآية التي تليها بقوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[3] إن البصر سيعود صاغراً كليلا منقطعاً من الإعياء إذ لم يستطع العثور على نقص..

إن وجود العيوب يذهب بجمال الزينة مهما بلغ رونقها وعظم حسنها.

وفي صدد الحديث عن الإنسان قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك﴾[4]. جاء في صفوة التفاسير في تفسير: (سواك) جعل أعضاءك سليمة سوية، وقال ابن كثير: (فسواك فعدلك) أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال. أ.هـ. وهكذا تشير الآية إلى السلامة من العيوب..

وقال تعالى في وصف البقرة: ﴿إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ ثم قال بعد ذلك في وصفها ﴿مسلّمة لا شية فيها﴾[5] قال ابن كثير: عن قتادة: مسلمة: لا عيب فيها.

---

(١) سورة ق [٦].

(٢) (٣) سورة الملك [٣، ٤].

(٤) سورة الإنفطار [٧].

(٥) سورة البقرة [٧١].

وهكذا يتبين لنا أن سمة «السلامة من العيوب» تعد سمة ضرورية لتحقيق الجمال، ونؤكد أنها سمة عامة وليست خاصة ببحث الجمال، وكمثال على ذلك نورد قوله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.. قيّماً..﴾[1] فقد نفي عنه الاعوجاج والزيغ والميل وأكدَّ هذا النفي بقوله (قيما) أي مستقيماً.. وهكذا وصف بأنه سليم من العيوب.

* * *

والإنسان مطلوب منه أن يحقق في عمله ــ مادياً كان أم معنوياً ــ سمة «السلامة من العيوب» كحد أدنى لتحقيق المعنى الجمالي. وقد كثرت الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) كما تعددت الآيات التي طالبت بإحسان العمل. وحتى يوصف العمل بالصلاح لا بد أن يسلم من العيوب، وتلك خطوة أولية في طريق الجمال.

(٢) القصد:

ونعني بهذه السمة نفي «العبث» عن الموضوع الجمالي.

والسلامة من العيوب سمة ترتبط بالموضوع الجمالي ذاته، أما السلامة من العبث فنعني بها وجود «باعث» و«غاية» للموضوع الجمالي، وهو أمر خارج عن الموضوع، وإن كان ذا أثر بالغ فيه.

والعبث أمر يرفضه المنهج الإسلامي في أصوله وفروعه.. كما يرفضه الجمال على وجه الخصوص، لأن الجمال تناسق وتوازن وإحكام ــ وهي تقوم على القصد والإرادة ــ والعبث لا يقوم على منهج وليس له غاية.. ولذا فهو والجمال على طرفي نقيض.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه السمة وأولاها عناية خاصة تتناسب مع أثرها الكبير في أمر الخَلْق والاعتقاد. ولنستمع إلى الآيات الكريمة وهي تتناول هذه السمة:

---

(١) سورة الكهف [١].

قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾[4].

إنه القصد، فلا عبث ولا لعب، ولكنه الحق الذي قامت به السموات والأرض وما بينهما.

وخاطب الله تعالى أولئك الذين انحرفوا في الحياة الدنيا وقضوا حياتهم لهواً وعبثاً، خاطبهم في مقام الإنكار عليهم بقوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[5].

وسمة القصد ظاهرة جلية في هذا الكون يستطيع رؤيتها والإحساس بها أولو الألباب ذوو الحس المرهف والرؤية الصادقة التي تتجاوز الأشياء إلى ما وراءها. وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[6].

إنهم تفكروا في خلق السموات والأرض.. فهداهم تفكيرهم إلى الوقوف على الحكمة والقصد في هذا الخلق.. فارتفعت أصواتهم بهذه الحقيقة ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾.

---

(١) سورة ص [٢٧].
(٢) سورة الأنبياء [١٦].
(٣) سورة الدخان [٣٨].
(٤) سورة التغابن [٣].
(٥) سورة المؤمنون [١١٥].
(٦) سورة آل عمران [١٩٠-١٩١].

والإنسان ـــ الذي لم يخلق عبثاً ـــ مطلوب منه أن لا يعيش عبثاً، إنه ينبغي له أن يعقل غاية وجوده، فيكون عمله في ضوء هذه الغاية، والهداية الإلهية تأخذ بيده لتنطلق به في طريق الرشد والصلاح، وعندها يعي أنه لن يترك سدى ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟﴾(1).

فالعمل الذي يقوم به الإنسان ينبغي أن يكون له باعث وغاية، وأن يكونا إيجابيين، وحينما لا تتوفر فيه هذه المتطلبات فهو مصنَّف في قائمة العبث، وهذا ما سجلته الآية الكريمة في إنكار هود عليه السلام على «عاد» ـــ وهم القوم الذين ارسل إليهم ـــ حيث قال لهم: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟﴾(2).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً.. وإنما يفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو.. ولهذا أنكر عليهم نبيّهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة».

وجاء في تفسير الظلال: «والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم (تعبثون)».

إن هذا البناء ليس لهداية الناس وارشادهم إلى الطريق، وليس نُزلاً لراحة المسافرين.. إن الباعث لإقامته لم يكن إيجابياً، ولم تكن الغاية كذلك إيجابية.. ولذلك كان عبثاً.

* * *

وبعد التعرف على «القصد» كسمة أصيلة في المنهج الاسلامي، نعود للحديث عنه في الظاهرة الجمالية:

---

(1) سورة القيامة [36].

(2) سورة الشعراء [128].

إن العبث في الموضوع الجمالي ــ في ظلال المنهج الإسلامي ــ غير متصَّور، ذلك أنا نلمح خلف الموضوع الجمالي إحدى مهمتين:

إما أنه وجد ليؤدي غرضاً جمالياً محضاً وهو هنا عمل تحسيني أو تزييني.

وإما أنه وجد لأداء مهمة ما، والجانب الجمالي فيه أمر تحسيني.

وفي الحالة الأولى تعتبر مهمته هي تلبية نداء الفطرة في الوفاء بحاجة الإنسان إلى الإحساس بالجمال، وفي الحالة الثانية يكون له مهمتان، الأولى وهي التي وجد الشيء من أجلها ــ وهي رئيسية ــ والثانية ثانوية وهي أداء تلك المهمة بطريقة جمالية.

وقد يرتقي الموضوع الجمالي، فيكون أداء وظيفته عن طريق جماله، وتلك الدرجة العليا في الجمال. حيث تؤدي آليَّة الشيء عن طريق جماله..

جاء في الظلال ــ رحم الله مؤلفه رحمة واسعة ــ: «إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه، ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدي عن طريق جمالها، هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح. ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار، وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها... والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال»[1].

* * *

نخلص مما سبق إلى القول بأن «القصد» سمة ضرورية لتحقيق الجمال، وبهذا ينتفي «العبث» و يسلم الموضوع الجمالي من كل العيوب...

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٤٣.

(٣) التناسق:

التناسق[١] سمة واسعة السطح عميقة الغور، فهي المرجع والمآل لكثير من الصفات.

إنه النظام الخفي الذي يربط الأشياء بعضها ببعض فتبدو في وحدة متجانسة متكاملة، أو يربط بين جوانب الشيء الواحد بحيث تبدو أجزاؤه متوازنة لا يطغى بعضها على بعض..

فهو التناسب[٢]
وهو التوازن
وهو التجانس[٣]
وهي ــ جميعاً ــ لا توجد إلا حيث التقدير والضبط والإحكام.

والتناسق بجميع مظاهره ــ من تناسب وتوازن وتجانس ــ قد يكون:
في شكل الشيء.
وقد يكون في مادته.
كما يكون في لونه أو صوته أو حركته..

والتناسق بعد هذا كله:
قد يكون في الصورة الحسية وقد يكون في الصورة المعنوية.. وهو الوثاق الذي يربط بين الصورتين: الحسية والمعنوية.

والتناسق ــ كما سبق القول ــ ليس سمة للجمال فحسب، وإنما هو سمة واضحة في بناء الكون كله، وفي خلق الإنسان، وفي المنهج، و ينبغي أن يتحقق في فعل الإنسان حتى تتم له إنسانيته.. ولن يتوفر له ذلك إلا بتطبيق هذا المنهج.

---

(١) التنسيق لغةً: التنظيم.
النسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء.
يقال: نسق الدر، ونسق كتبه، والكلام: عطف بعضه على بعض.
و يقال: جاء القوم نسقاً، وزرعت الأشجار نسقاً.

(٢) التناسب لغةً: التشابه، والمناسبة: المشاكلة.

(٣) المجانس: المشاكل، يقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله.

والتناسق ــ كما رأينا ــ يقوم على التقدير والضبط وتحديد نسب الأشياء بعضها إلى بعض، في الحجم والشكل واللون والحركة والصوت..

والقرآن الكريم يتحدث عن هذه السمة مقرراً اعتبارها في أصل الخلق والتكوين.. ويجري الحديث عنها في ميدانين. ميدان القواعد الكلية الشاملة، وميدان الأمثلة التطبيقية.

ومن الميدان الأول تطل علينا آيات كثيرة منها:
قوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1].
وقوله تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[2].
وقوله تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[3].
......

إنه التقدير والضبط لكل شيء.

«كل شيء.. كل صغير وكل كبير، كل ناطق وكل صامت، كل متحرك وكل ساكن، كل ماض وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول، كل شيء.. خلقناه بقدر..

قدر يحدد حقيقته، ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء، وتأثيره في كيان هذا الوجود.

وإن هذا النص[4] القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة، مصداقها هذا الوجود كله، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود، و يتجاوب معه، و يتلقى عنه، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقاً دقيقاً، كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود[5]».

---

(١) سورة القمر [٤٩].
(٢) سورة الفرقان [٢].
(٣) سورة الرعد [٨].
(٤) الإشارة هنا إلى الآية الأولى.
(٥) في ظلال القرآن ٣٤٣٦/٦.

وإذا انتقلنا إلى ميدان الأمثلة التطبيقية وجدناها تتناول الكون والإنسان والمنهج، وعلى سبيل المثال نقف على بعض النماذج:

■ في صدد الحديث عن تناسق الكون:

قال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)(٢).

وقال تعالى: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾(٣).

إنه التنسيق بين حركة الليل وبين حركة النهار.. حركة الشمس.. وحركة الأرض.. وحركة القمر.. بين حركة مجموعتنا الشمسية وبين.. إنه الحساب الدقيق والتقدير المضبوط الذي لا يسمح للشمس أن تغير سرعتها، ولا لليل و النهار أن يتجاوز كل منها حدود ما رسم له..

■ وفي صدد الحديث عن الأرض وما عليها من مخلوقات:

قال تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء **موزون**، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما تنزله إلا **بقدر معلوم**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده **بمقدار**﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام [٩٦].

(٢) سورة يس [٣٧-٤٠].

(٣) سورة المزمل [٢٠].

(٤) سورة الحجر [١٩-٢١].

(٥) سورة الرعد [٨].

ويلاحظ في الآية الأولى ما توحي به كلمة «موزون» وصفاً لكل ما أنبت في هذه الأرض.. ثم خزائن الأشياء هي في ملكه تعالى.. وما ينزل منها إنما ينزل بمقدار محدود معلوم..

إنه الوزن.. والمقدار المحدد.. إنه التناسق.

وإذا كانت الآية الأولى تتناول ما ينبت في الأرض فإن الآية الثانية تتناول وبالمعنى نفسه ما تحمله الأرحام.. كل الأرحام.. وما تسقطه.. إنه بمقدار.

■ وفي صدد الحديث عن الإنسان:

قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره﴾(٢).

إنه التقدير والتسوية والتعديل.. إنه التناسق.
التناسق بين العقل والجسم.
التناسق بين أعضاء الجسم بعضها مع بعض.
التناسق بين أجهزة العضو الواحد بعضها مع بعض.

ونكتفي ــ على سبيل المثال ــ بالاستماع إلى «الكسيس كاريل» وهو يحدثنا عن اليد.. قال: «.. وعلى مقربة من نهاية الذراع تنتهي هذه العضلات بأوتار هي التي تحرك الأصابع واليد نفسها. وتعتبر اليد عملاً رائعاً، فهي تحس وتعمل في وقت واحد، وهي تعمل إذ وهبت نعمة البصر، ونظراً لخصائص جلدها الفريدة ولأعصابها اللامسة، وعضلاتها وعظامها، فإن اليد قادرة على صناعة الأسلحة والأدوات، وما كنا لنكسب سيادتنا على المادة بغير مساعدة أصابعنا، تلك العتلات الخمس الصغيرة التي يتكون كل واحد منها من ثلاثة أجزاء مفصلية مركبة فوق عظام المشط وعظام الرسغ، وتكيف اليد نفسها لأداء أشقّ الأعمال،

---

(١) سورة الإنفطار [٦-٧].
(٢) سورة عبس [١٧-١٩].

كما تكيفها لأداء أدق الأعمال.. فاستعملت بمهارة متساوية المدية المصنوعة من الحجر الصوان في عصر الصياد الأول، ومطرقة الحداد، وفأس قاطع الأخشاب، ومحراث الفلاح، وحسام فارس القرون الوسطى، وعجلة قيادة الطائرات العصرية وريشة الرسام، وقلم الصحفي، وخيوط نساج الحرير..»[1].

إنه التناسق بين العظام وبين العضلات.. والأعصاب.. إنه تناسق اليد مع العمل المطلوب..

وهكذا بقية الأعضاء في جسم الإنسان..

إنها صنعة «الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى»، سبحانه وتعالى.

■ وفي صدد الحديث عن المنهج قال تعالى:

﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[3].

إنه الإحكام والدقة التامة. فكل كلمة في مكانها، ولكل كلمة مدلولها.

إنه التناسق الكامل، فهو المنهج الذي لا يخالف بعضه بعضاً.. بل تتعاون أنظمته ـــ من سياسية واقتصادية واخلاقية واجتماعية... ـــ في تغطية جوانب الحياة المختلفة في تعاون كامل وانسجام تام.

إنها أنظمة متعددة ولكنها ترجع إلى أصل واحد، هو العقيدة، التي جعلت أواصر التناسق وثيقة بين تلك الأنظمة حتى بدت في وحدة تامة.

ونحن هنا، لسنا في مجال الحديث التفصيلي ولكنا ننوه ببعض الأمثلة دلالة على الكل...

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١١٦.

(٢) سورة النساء [٨٣].

(٣) سورة هود [١].

الزكاة عبادة وركن من أركان الإسلام، وهي ـــ في الوقت نفسه ـــ جانب من النظام الإقتصادي العام. وهي ـــ في المجال الاجتماعي ـــ ركن مهم من أركان نظام التكافل.. وهي ـــ في الميدان الأخلاقي ـــ عامل مهم في القضاء على الجريمة وأسبابها من حقد وضغينة.. وهي...

إنها تؤدي دورها في كل هذه المجالات في تناسق تام بحيث لا يحجزها دورها في مجال عن أداء دورها في مجال آخر.

وفي النظام الإقتصادي حرم الإسلام الربا.

إنه لا يقوم على قاعدة الربح الحلال فهو يتعارض مع أصول النظام الاقتصادي. وهو يؤدي إلى الخلل في التوازن الاقتصادي.. وهو استغلال لحاجات الناس وأزماتهم فهو يخل بالنظام الأخلاقي إذ به تفقد روح التعاون والتعاطف و يتضخم الشح...

وهكذا يحرم الربا لا باعتباره عيباً اقتصادياً فحسب، بل لأنه لا ينسجم مع النظام الاجتماعي كما لا يتفق مع النظام الأخلاقي..

وفي إطار العبادة، قرر المنهج أن استجابة الدعاء لها ارتباط كبير بحِلّ الطعام الذي يأكله الإنسان، فالذي يدعو.. يا رب.. يا رب.. ومطعمه حرام، ومشربه حرام.. فأنى يستجاب له؟!

إنه التناسق التام بين أنظمة هذا المنهج.

ولا يفوتنا قبل ختم هذه الفقرة أن نذكر بالتناسق في الأسلوب المستعمل في صياغة هذا المنهج.. إنه الأسلوب الذي تحدى الله بـه الناس.. إنه الإعجاز.

و بعد:
أليس التناسق في هذه المجالات كلها هو الجمال نفسه؟!

* * *

ونعود إلى الحديث عن التناسق كسمة جمالية..

إن الأشياء المختلفة قد تكون مادتها واحدة، وقد يجمعها اللون الواحد، وقد

تلتقي في أداء الحركة الواحدة.. وقد يكون التناسق في التعاون بين المادة واللون والحركة، وقد...

و يبدو هذا واضحاً من خلال المشاهد التي تعرضها كثير من الآيات الكريمة، ونكتفي بذكر بعضها على سبيل المثال:

قال تعالى:

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾(١).

إن الصحاف والأكواب التي يقدم لهم فيها الطعام والشراب من ذهب، والذي تكون آنيته من ذهب ما يليق به أن يخدم نفسه، بل ينبغي أن يكون هناك من يخدمه، وهذا ما أشارت إليه الآية بالفعل المبني للمجهول (يطاف). ومن كانت آنيته من ذهب يحسن أن تلبى رغباته فيما يقدم له من (ما تشتهيه الأنفس) من طعام طيب ورائحة زكية.. وكذلك لا تقع عينه إلا على المنظر البهيج الذي به (تلذ الأعين)...

إنه التناسق التام في المستوى الذي تتطلبه آنية الذهب..

وقال تعالى:

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها..﴾(٢).

إنه التناسق بالمواكبة الزمنية، فالثمر مستمر لا ينقطع، والظل مستمر لا ينقطع.. واستمرارهما يوحي باستمرار المنظر العام..

وقال تعالى:

﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب و يلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾(٣).

---

(١) سورة الزخرف [٧٠-٧١].

(٢) سورة الرعد [٣٥].

(٣) سورة الكهف [٣١].

إن نعومة الحرير وليونته هي التي تناسب نعومة الحياة ورغدها، ولذا كانت الثياب من سندس (الحرير الرقيق) ومن استبرق (الحرير الثخين)...

والجنات، تلك البساتين التي غلب عليها لون الخضرة لكثرة أشجارها والتفاف هذه الأشجار بعضها على بعض، ثم انعكاس هذا اللون على صفحة الماء الجاري تحتها يناسبه أن يكون لون تلك الثياب هو اللون الأخضر.. حتى يتكامل التناسق.

وقال تعالى:

﴿.. وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديراً. ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلاً. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذ رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا..﴾[1].

في هذا النص الكريم نجد أنفسنا أمام تفصيل لما أجمل في النص السابق.

الجو معتدل لا شمس تؤثر بحرارتها ولا زمهرير يؤثر ببرودته، والثياب ليست لدفع البرد ولا لرد الحرارة، فهي ـ من حيث مهمتها ـ ألصق بالزينة منها بالضرورة، ولذا كانت من حرير. إنه النوع من الثياب الذي يناسب تلك الحياة الناعمة، حيث تمس تلك النسمة الرقيقة كل ما تلامسه من أوراق الشجر والثياب السندسية فيكون له تماوج الصدى يتردد في تلك الثياب مجاوباً حفيف الأوراق.. إنه تناسق النغمة والحركة..

وإلى جانب تلك الحركة حركة أخرى وظيفتها تقريب الأشياء والحاجات وجعلها في متناول الأيدي.. ولكن هذه الوظيفة تؤدي عن طريق تلك الحركة الجمالية.. وذلك أرقى درجات الجمال.

إن الأغصان دانية.. دانية الظلال.. دانية القطوف.

---

(١) سورة الإنسان [١٢-٢١].

والآنية دانية وكذا الأكواب.. يطاف بها، فإذا بها في متناول كل راغب.

والولدان لؤلؤ منثور.. هنا وهناك لتلبية كل طلب..

إنها حركات متناسقة كل منها تؤدي دورها..

والإنسان ــ الذي أكرمه الله بذلك النعيم ــ متلائم في ثيابه وحليه مع ما يحيط به، حتى لا يكون نشازاً في ذلك التناسق التام:

إن لون الثياب في وحدة تامة مع كل ما يحيط بها.. إنها الخضرة..

والحلي، في هذا المشهد من فضة، لا من ذهب، لتتناسب ــ لوناً ومادة ــ مع الأدوات التي يطاف عليهم بها.. إذ هي من الفضة أيضاً، والأكواب التي تكون ــ في العادة ــ من زجاج شفاف، إنها هنا (قوارير من فضة) صنعت بدقة وتقدير، حتى أصبحت لها شفافية الزجاج مع المحافظة على نوعية المادة (الفضة). إن اللون هنا يسير في خطين متناسقين، لون الخضرة ولون الفضة.

إنه التناسق في جميع الاتجاهات..

(٤) التنظيم:

يلتقي التنظيم(١) كسمة جمالية مع التناسق. ولكن التنظيم يختص بتناسق الأبعاد، بينما تبقى سمة التناسق عامة حيث تشمل تناسق الألوان بعضها مع بعض أو المادة.. أو الصوت..

ونقصد بالأبعاد هنا معناها العام، فقد يكون المقصود أبعاد الشيء الواحد، أو المسافات بين الأشياء، وقد يكون المقصود ترتيب الأشياء على شكل هندسي من استقامة أو تطابق أو تنضيد أو تناظر. إنه التناسق في الصورة الظاهرة(٢).

---

(١) التنظيم في اللغة: من: انتظم الشيء: تألف واتسق. ونظم الأشياء نظماً: ألفها وضم بعضها إلى بعض.

ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في سلك، والتنظيم مثله.

والنظيم: المنظوم، ومن كل شيء، ماتناسقت أجزاؤه على نسق واحد.

(٢) ذلك لا ينفي أن يكون خلف هذا الظاهر باطن له من الصورة الباطنة ما يماثل الصورة الظاهرة.

وقد ألمح القرآن الكريم إلى بعض مظاهر هذه السمة أحياناً وصرح ببعضها الآخر أحياناً أخرى: فالصف، ترتيب وتنظيم: وهو سمة جمالية في عالم السماء. وكذلك في عالم الأرض.

فالملائكة مصطفة في إداء عبادتها، وبها أقسم الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿والصافات صفا﴾[1] وقالت الملائكة مبينة مهمتها: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصافون، وإنا لنحن المسبحون﴾[2].

والمسلمون يؤدون صلاتهم بالأسلوب نفسه، فقد ورد في الحديث من رواية جابر بن سمرة رضي الله عنه قال (.. خرج علينا ــ رسول الله ﷺ ــ فقال: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، قال: قالوا يا رسول الله، كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأولى و يتراصون في الصف)[3].

والاصطفاف ليس مقصوراً على الصلاة، بل هو مطلوب في عبادات أخرى.. منها الجهاد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾[4].

إنها سمة جمالية وعن طريقها تؤدى وظائف أخرى وفقاً للمنهج الإسلامي العام، فالاصطفاف في الجهاد تعبير عن التعاون الذي يصل بالمسلمين إلى درجة من التماسك القوي الذي يجعل منهم بنياناً مرصوصاً غير قابل للاختراق.. إنه جمال.. وإنها وظيفة تؤدى عن طريق ذاك الجمال.

وقد استخدمت هذه السمة في بيان الجمال في الجنة ضمن التنسيق الجمالي العام، فالسرر المعدة لأهل الجنة مصفوفة مرتبة ليأخذوا عليها كامل راحتهم في وضع جمالي ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾[5]. والوسائد أيضاً مهيأة على نسق ونظام ﴿ونمارق مصفوفة﴾[6]..

---

(١) سورة الصافات [١].

(٢) سورة الصافات [١٦٤-١٦٦].

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ٥/١٠١، وعند مسلم. كتاب الصلاة، باب ٢٧.

(٤) سورة الصف [٤].

(٥) سورة الطور [٢٠].

(٦) سورة الغاشية [١٥].

وقد يظهر التنظيم بأسلوب آخر كالتنضيد، وترتيب الأشياء بعضها فوق بعض:

فالسماوات طبقة فوقها طبقة ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾[(١)].

وفي الجانب المقابل للسماء في عظمها وضخامتها نجد السمة نفسها في الحجوم الصغيرة.. في ثمر النبات. حيث لفت القرآن النظر إلى ترتيبها:

فقال في شأن النخيل وثمرها: ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾[(٢)].

وقال في شأن الموز ﴿وطلح منضود﴾[(٣)] لمتراكب بعضه فوق بعض.

وفي حديث عام عن النبات قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه..﴾[(٤)].

فالحَبّ متراكب بعضه فوق بعض في نظام هندسي، والثمار كلها مرتبة وفق نظام يحث القرآن على النظر إليها للتدبر في هذا النظام...

والبناء ميدان فسيح لظهور سمة النظام.. في الجنة غرف أعدت للمتقين، بعضها فوق بعض.. ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار..﴾[(٥)].

وهناك مشاهد أخرى يعرضها القرآن في نعيم الجنة يبدو فيها النظام بأبهى حلله، منها تقابل السرر وتناظرها، ومنها: الحور العين اللواتي هن في سن واحدة، إنهن أتراب متساو يات...

وهكذا تبدو سمة التنظيم واضحة في مجالات عدة، مؤدية دورها في إبراز ملامح الجمال...

---

(١) سورة نوح [١٥].

(٢) سورة ق [١٠] قال في صفوة التفاسير: «أي لها طلع منضود، منظم بعضه فوق بعض. قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضداً كحب الرمان، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد».

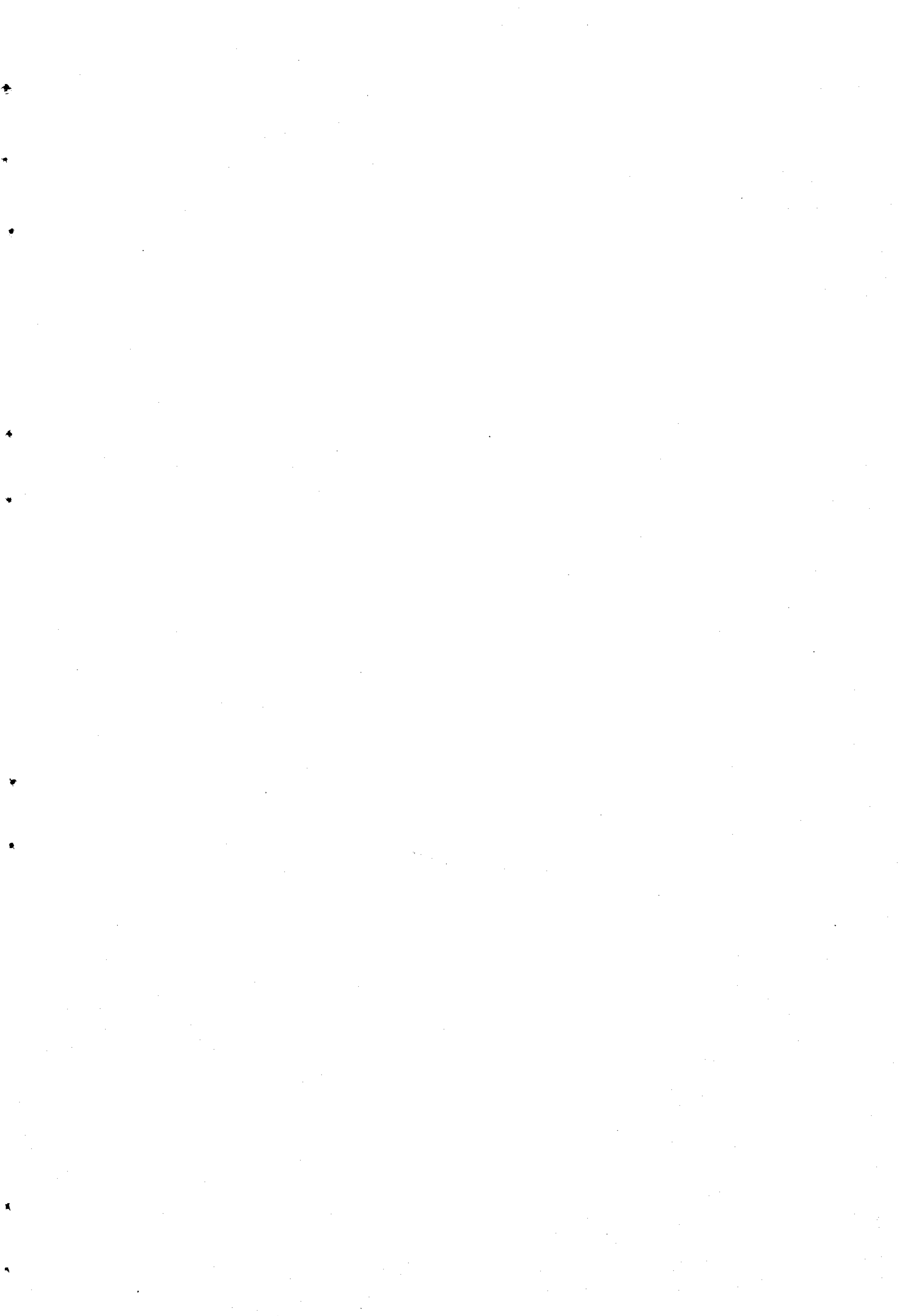
(٣) سورة الواقعة [٢٩].

(٤) سورة الأنعام [٩٩].

(٥) سورة الزمر [٢٠].

الفصل السّابع

التصوّر الكُلّي للظاهرة الجماليّة



قبل اختتام البحث، أراني بحاجة إلى وقفة متأملة، استجمع فيها تلك الخطوط العريضة، وأجملها في كلمات يسيرة، تكون حدوداً لخارطة الجمال، وبياناً لتصور كلي لهذه الظاهرة. تعاد فيه الفروع إلى أصولها، وترد فيه الجزئيات إلى كلياتها،... فنكون أمام دستور لهذه الظاهرة.

التصور الكلي للظاهرة الجمالية

- **الجمال حقيقة ثابتة في كيان هذا الوجود.**
- **وهو «قيمة» من القيم العليا، تعلو على «المنفعة» و«اللذة».**
- **وهو سمة بارزة في الصنعة الإلـهية.**
- **وإن وجوده فيها «مقصود» لا عرضي.**
- **وإن من خصائصه: «العموم والشمول».**
- **وهو «الذروة» دائماً، إذ به تستكمل القضايا والأشياء.**

* * *

- وإن «الطبيعة» ميدان من ميادينه.
- وإن وجوده فيما لا نبصر منها، كوجوده فيما نبصر.

* * *

- وإن «المنهج» الإلـهي واحد من ميادينه.
- يقوم الجمال في مادته وفي أسلوبه.
- وسمات المنهج هي المقاييس الجمالية الثابتة.
- وإن تطبيق المنهج يحقق الجمال في الحياة.

* * *

- وإن «الإنسان» واحد من ميادينه.
- يعم الجمال ظاهره وباطنه.

فهو في ظاهره حقيقة ووجود.

وهو في باطنه فطرة واستعداد.

■ والإنسان مدعو إلى تطبيق المنهج لكي يحقق الجمال في كيانه النفسي، وفي سلوكه، وفي إنتاجه، و«الفن» بعض إنتاجه.

* * *

■ والظاهرة الجمالية لا تستمد وجودها من الفلسفة، وإنما من المنهج الإلهي.

■ ولذا كان التصور الكلي ـ المسبق ـ لهذا المنهج ضرورة لازمة إذا أردنا الوقوف على تصور كلي للظاهرة الجمالية. ذلك أن التصور الثاني في مقام الظل من التصور الأول.



خاتمة

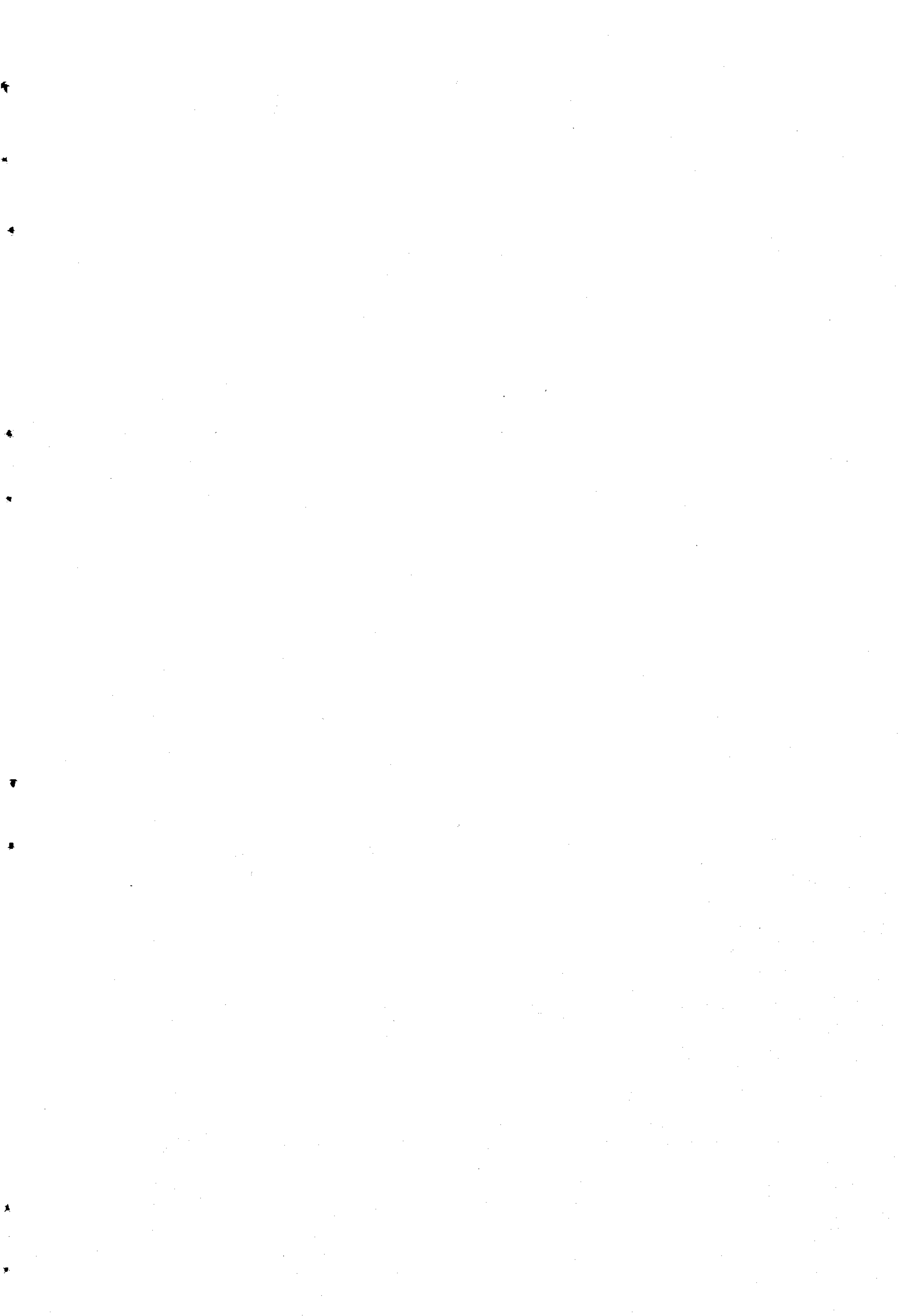
تلك هي الخطوط العريضة في بناء الظاهرة الجمالية في الإسلام. عرفنا من خلالها قيمة الجمال، وأثره على النفس، وارتباطه بالعقيدة، وانسيابه معها ليشمل كل الأنظمة المنبثقة عنها، وامتداده بعد ذلك ليهيمن على الظاهر والباطن.. ثم كان الختام حديثاً عن السمات الجمالية.

وأعتقد أن هذه النقاط هي القواعد الكبرى والخطوط العريضة، كما فهمتها من النصوص القرآنية الكريمة، فإن كنت وفيت هذه الظاهرة بعض حقها فذلك إنما كان بفضل الله تعالى ومنته، وإن كان فاتني بعض ما ينبغي الحديث عنه.. فإنه مما يغفر لي أنها محاولة لصياغة هذه الظاهرة، والمحاولة هي الخطوة الأولى على الطريق.

وقد اقتصرت على الكليات في هذا البحث، ولم أذهب في متاهات الجزئيات ــ كما هو الأمر في كتب علم الجمال ــ لأن هذه الجزئيات في المنهج الإسلامي لها أصول ترجع إليها، ولأني أردت ــ هنا ــ بيان حدود الخارطة الجمالية في هذا المنهج.

أما ما هو خارج عن حدود القواعد الكلية، فذلك ما أرجو أن ييسر الله الحديث عنه في الجزأين التاليين من هذه الدراسة. وسيكون موضوع الأول منهما: ميادين الجمال، وفيه حديث عن الطبيعة والإنسان والفن، وسيكون الثاني تحت عنوان: التربية الجمالية. وفيه أتناول الجانب التطبيقي في البناء الجمالي للنفس الإنسانية.

والله المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصاً له. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع

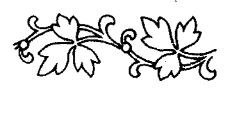
القرآن الكريم	
كتب السنة	
جامع البيان في تفسير القرآن	الإمام محمد بن جرير الطبري
تفسير القرآن العظيم	الحافظ ابن كثير الدمشقي
في ظلال القرآن	سيد قطب
صفوة التفاسير	محمد علي الصابوني
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي طبعة دار المعرفة ــ بيروت
الاستقامة	أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بتحقيق د. محمد رشاد سالم ط ١
الإسلام تشكيل جديد للحضارة	محمد تقي الأميني ترجمة: د. مقتدي حسن ياسين
الإسلام والحضارة الإنسانية	الدكتور عبد المنعم خفاجي
الإسلام والفن	محمد مهدي الاستانبولي
بحث في علم الجمال	جان برتليمي ترجمة: د. أنور عبد العزيز
التربية عن طريق الفن	هير برت ريد ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد
جمال المرأة	د. فخري فرج
الخبرة الجمالية في التربية	منير المرسي سرحان ط ١ ١٩٧٣
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته	سيد قطب
دراسات في علم الجمال	مجاهد عبد المنعم مجاهد ط ١٩٨٠
دراسات في النفس الإنسانية	محمد قطب
روضة المحبين	ابن القيم فسر غريبه وراجعه صابر يوسف

علم الجمال	عبد الفتاح الديدي ط ١ ١٩٨١
علم الجمال في الفلسفة المعاصرة	مجاهد عبد المنعم مجاهد
فصول في علم الجمال	عبد الرؤوف برجاوي ط ١ ١٩٨١
فلسفة الجمال في الفكر المعاصر	د. محمد زكي العشماوي
فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة	د. محمد علي أبو ريان ط ٥
فكرة الجمال	هيغل. ترجمة جورج طرابيشي
في النقد الحديث	د. نصرت عبد الرحمن
	مكتبة الأقصى ـــ عمان ١٩٧٩
الفروق في اللغة	أبو هلال العسكري
الكشاف الفريد	خالد محمد علي الحاج
ليوناردو دافنشي	أحمد أحمد يوسف. دار المعارف بمصر
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي ط ١٠
مدارج السالكين	ابن القيم
	بتحقيق محمد حامد الفقي
المدخل إلى علم الجمال	هيغل. ترجمة جورج طرابيشي
المذاهب المعاصرة	د. عبد الرحمن عميرة
مشكلة الفن	د. زكريا ابراهيم
مع الأندلس	د. عبد الرحمن الحاجي
معجم الألفاظ والأعلام القرآنية	محمد اسماعيل ابراهيم
مقدمة في علم الجمال	د. أميرة حلمي مطر
الملل والنحل	ابن حزم الأندلسي
منهج الفن الإسلامي	محمد قطب
منهج القرآن في تربية المجتمع	عبد الفتاح عاشور ط ١
الموافقات	ابراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي
	بتحقيق محي الدين عبد الحميد
الموسوعة العربية الميسرة	بإشراف محمد شفيق غربال
نوادر الإمام ابن حزم (السفر الأول)	أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

الفهرس

الباب الثاني

الظاهرة الجمالية في الإسلام



هذه الدراسة الجمالية

ستصدر إن شاء الله

في ثلاثة أجزاء

الجزء الثاني: بعنوان: ميادين الجمال
الطبيعة ــ الإنسان ــ الفن.

الجزء الثالث: بعنوان: التربية الجمالية في الإسلام.